الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الدكتور يحي فارس بالمدية

كلية الآداب واللّـغـــــات

قسم اللغة العربية وآدابها

النَّحْوُ التَّعْلِيمِيُّ في كِتَابِ سِيبَوَيْهِ

مذكّرة مقدّمة لنيل درجة الماجستير

التخصص : لسانيات عربية قديمة وحديثة

إعداد الطالب :

حسين بلحنيش

السنة الجامعية

2015/2014

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الدكتور يحي فارس بالمدية

كلية الآداب واللّـغـــات

قسم اللغة العربية وآدابها

النَّحْوُ التَّعْلِيمِيُّ في كِتَابِ سِيبَوَيْهِ

مذكّرة مقدّمة لنيل درجة الماجستير

التخصص : لسانيات عربية قديمة وحديثة

إعداد الطالب :

حسين بلحنيش

إشراف الأستاذ الدّكتور :

مبارك تريكي

أعضاء لجنة المناقشة :

د. بن يوسف حميدي ..... رئيسا.
أ.د. مبـــارك تريكـــي ..... مشرفا ومقررا.
د. أحمد محمد الصغير ..... عضوا مناقشا.
أ.د. أبو عبد الله لعبيدي..... عضوا مناقشا.

السنة الجامعية

2015/2014

إهـــــــداء

إلى رُوحَـي والدَيّ رحمهما الله وأسكنهما فسيح جنانه .

إلى كلّ أفراد أسرتي الصّغيرة والكبيرة .

إلى كلّ الزّملاء والأصدقاء .

إلى كلّ محبّي اللّغة العربية والمدافعين عن تراثها .

إلى كلّ أولئك أهدي هذا العمل المتواضع، راجيا من الله العليّ القدير القبول والسّداد إنّه نعم المولى ونعم النّصير .

الطّالب : حسين بلحنيش

شكر وعرفان

الشكر لله أولا على آلائه ونعمائه، وعلى توفيقه وامتنانه.

والشكر موصول للمشرف الفاضل : الأستاذ الدكتور -**مبارك تريكي**-

الذي لم يدّخر جهدا في توجيهي وإرشادي، و صرامة في مساعدتي لإنجاز هذا البحث، فجزاه الله عني خير الجزاء، وأمدّ في عمره وبارك في صحّته.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من قدّم لي يد المساعدة من قريب أو من بعيد، ماديا أو معنويا، سائلا المولى –عزّ وجلّ- أن يسدد خطاهم ويبارك مسعاهم.

آميـــــــــــن

مقـــدّمـــة

بسم الله الرّحمن الرّحيم ، الحمد لله وكفى، والصّلاة والسّلام على النّبيّ المصطفى، محمد بن عبد الله، أرسله ربّه بالهدى ودين الحقّ ليخرج النّاس من ظلمات الجهل إلى نور اليقين .

إنّه لمّا كان القرآن قد نزل بلسان عربيّ مبين، ولمّا كانت اللّغة العربيّة هي الحامي له من اللّحن والتّحريف، والخطأ والتّزييف، وجب على أبنائها أن يُعْلوا من شأنها ويدافعوا عنها حماية لقرآنهم أوّلا وتطويرا لها ثانيا.

وبما أنّ سيبويه يعتبر بلا منازع رائد النّحويّين وإمامهم على الإطلاق ، أحيا اللّغة ورفع رايتها، بمجهوداته الجبّارة ، فإحياء تراثه ، ودراسة علمه فرض عين على كلّ غيور على تراث الأسلاف.

وانطلاقا من المحبّة التي أكنّها لأولئك الأفذاذ، روّاد النّحو العربيّ القديم، وإعلاء لشأنهم، وافتخارا بما قدّموا لهذه اللّغة ، ولهذا الدّين من نصر وعزّة، أحببت أن يصبّ بحثي هذا في نفس مصبّهم، لعلّي أتشبّه بهم، وأسير وفق الطّريق التي سلكوا ولسان حالي يقول : إنّ ذكراهم تحفظ بإحياء مجدهم، وبناء تماثيل عزّ لهم في قلوب تراثيّة الأهواء.

أمّا الأمر الثّاني الذي دعاني إلى سلوك هذا المسلك فيتمثّل في اشتغالي في هذا الحقل، فباعتباري أنتمي إلى حقل التّربية والتّعليم، وتخصصّي في اللّغة العربيّة ، فحري بي أن يكون لاشتغالي بالنّحو أولويّة على باقي الموضوعات وإن كانت ذات أهمّية.

أمّا السّبب الآخر الذي دفعني إلى تبنّي مثل هذا الطّرح ، فهو الأهميّة ، التي يكتسيها هذا الموضوع لحاجة المجتمع إليه خدمة للغة العربية.

ومن هنا تظهر الأهميّة التي يتمتّع بها هذا الموضوع، إذ يجيب عن إشكاليّة كانت السّبب في نشأة النّحو، وعن قضيّة لطالما أسالت حبرا كثيرا لقرون طويلة، ألا وهي قضيّة تعليم النّحو بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى، سواء لأهل العربيّة، أو لغيرهم من الأجناس الأخرى حتّى

يتذوّقوا ما تحمله هذه اللّغة من علوم وكنوز فقد يقول قائل : ما علاقتنا بسيبويه وليس الزّمان زمانه ، وحتّى الظّروف تغيّرت، والبلدان تبدّلت أفرادا وحدودا ؟ وما بالنا نتحدّث عن التّراث ونريد إحياءه وفي أيدينا مناهج وكتب جديدة قد تغنينا عن الإرث الذي ورثناه ؟

فنقول لهم : إنّ أثْبَت ما في الشيء أصله ، فالأخذ بالأصول يعين على فهم الفروع، وزيادة على ما قلنا ، فمعرفة طريقة الأجداد في تفكيرهم وتعليمهم قد يقرّب لنا المسافات ويهدينا أحسن السّبل لتعلّم العربيّة وتعليمها.

وعليه، فالإشكاليّة التي تطرح كمنطلق للإجابة عن تساؤلات الباحثين والدّارسين في هذا الموضوع هي : هل نحو سيبويه تعليميّ أم علميّ ؟ وإذا كان تعليميّا فما مظاهره ؟ وهل يصلح كلّه ليكون كقاعدة تعليميّة ؟ وما هي الصّعوبات التي تصادفنا ونحن ندرس كتاب سيبويه ؟ وما المعوّقات التي تقف حجر عثرة في سبيل التعامل مع هذا الإرث ؟ أضف إلى ذلك فيم تتمثل خصائص الخطاب التّعليميّ عند سيبويه ؟

وبغية الوصول إلى إجابات مقنعة لهذه التّساؤلات صغنا فرضيتنا في النّقاط التّالية :

أوّلا : إنّ النّحو العربيّ وجد لعلّة واحدة ووحيدة ، وهي تعليم المسلمين من عرب وعجم ممّن انقطعت بهم السّبل وسقطوا في شَرَك اللّحن ، لنحمي من خلالهم القرآن والسّنة من هذا الخطر الدّاهم من جهة، ولفهمهما وسبر أغوارهما من جهة ثانية .

ثانيا : إنّ نحو سيبويه علميّ تعليميّ في وقت واحد ، لأنّ الحدود الفاصلة بين التّنظير والتّطبيق لم تكن قد انفصلت بعد، وهذه الخاصّيّة تنطبق على المطوّلات والمختصرات، وربّما الأمر الذي جعل الدّارسين يتهيّبون هذا الكتاب ، هو طريقة سيبويه في عرض المسائل النّحويّة سيما طريقته في وضع المصطلحات والتي لم تكن قد استقرّت بعد ، زيادة على أسلوبه في التّبويب .

ثالثا : إنّ نظرة سيبويه إلى النّحو تختلف تماما عن نظرة من جاء بعده لأنّه دَرَس اللّغة كطبيعة اجتماعية ، بكلّ تفاصيلها ، أي سمْت كلام العرب و ليس كونها قواعد مجرّدة فحسب.

رابعا : إنّ النّحو العربيّ الذي يُدرَّس اليوم في مدارسنا ، مصدره كتاب سيبويه رغم بعد المسافة، إذ بقي محافظا على جلّ مصطلحاته رغم تغيّر الكثير منها واستبدالها بأخرى بحيث لم يستطع المتأخرّون إضافة شيء إلاّ ما ليس فيه خطر .

وقد اعتمدنا المنهج الوصفيّ التّحليليّ المناسب لمثل هذه المواضيع فقمنا بعرض المسائل النّحويّة وتحليلها بأسلوبنا الخاصّ مرّة وبأسلوب الدّارسين مرّات عديدة .

من هنا كان عملنا يسير وفق الخطّة التّالية : مقدّمة وثلاث فصول وخاتمة .

- أمّا **الفصل الأوّل** فقد حجزناه للحديث عن النّحو التّعليميّ ونظرة القدامى والمحدثين إليه، تاركين مساحة كبيرة للحديث عن أهّم الضّوابط التي يجب مراعاتها قبل الخوض في مسألة النّحو التّعليميّ ، كما خصّصنا جانبا مهمّا للحديث عن النّحو العربيّ بصفة عامة ، من حيث : التّعريف والنّشأة والأهداف ، والغاية وأسباب وعوامل نشوئه .

فعند حديثنا عن استراتيجيّة الأقدمين في تعاملهم مع النّحو التّعليميّ ، كان لزاما علينا الإشارة إلى أهم الملاحظات والإشكاليّات التي طرقوها وتعاملوا معها.

أمّا بالنسبة للمتأخّرين، فقد أشرنا إلى نظرتهم في كيفيّة التّعامل مع هذا الإرث، وكيفيّة تعليمه، ومحاولات تيسيره ليكون في متناول المتعلّمين.

- **وأما الفصل الثاني** فخصّصناه للحديث عن مظاهر النّحو التّعليميّ في الكتاب والتي نقصد من ورائها تلك القواعد المعياريّة المرتبطة بالاستعمال الفعلي للكلام ، وكيف أراد سيبويه تقديمها للمتعلّم والتّمثيل لها ، وإغراقه في نماذج لغويّة يحتذي بها كلام العرب الفصحاء ،

ولكن ارتأينا قبل إنجاز هذه المرحلة أن نضع نحو سيبويه في ميزان المشتغلين بشأن النّحو العربيّ ، لمعرفة الزّاوية التي يشغلها من وجهة نظرهم .

- **أمّا الفصل الثّالث** ، فقد خصّصناه للحديث عن تعامل سيبويه مع القارئ المحتمل، وأهّم الأساليب والآليّات التي اتّبعها في تقريب المادّة النّحويّة من المتعلّم، وكيف اتّسم خطابه التّعليميّ، وهذا بعد أن أشرنا إلى نظرة سيبويه للّغة، والأهمّية التي أولاها للمتكلّم والمتلقّي ولسياقات الخطاب وظروفه .

وفي الختام ذيّلنا بحثنا المتواضع هذا ببعض النّتائج، التي ارتأينا أنّها تجيب عن الأسئلة التي اعتمدناها في الإشكالية .

أمّا بخصوص مصادر البحث ومراجعه ، فكان كتاب سيبويه هو قطب الرّحى الذي يدور حوله هذا البحث ، زيادة على الكتب التي درست الكتاب ولو في جزئيّة من جزئيّاته ، كالأصول لتمّام حسّان ، ومبادئ في أصول النّحو لمخلوف بن لعلام ، ودراسات في اللّسانيّات العربيّة لعبد الرّحمان الحاج صالح ، وتطوّر المصطلح النّحويّ لحمد القوزي وغيرهم، كما جعلت بعض البحوث والرّسائل والمقالات مطيّة لولوج هذا البحر المتلاطم وقد تمت الإشارة إليها للأمانة العلميّة .

في الأخير دعوني أعترف لكم بصعوبة الولوج في هذا الإرث، لقلّة خبرتي أوّلا، وللصّعوبة التي تطبع هذا المؤلّف ثانيا، ولقلّة الخائضين فيما يخصّ الخطاب النّحويّ التّعليميّ ثالثا .

وعليه أدعو الله أن أكون قد وفّقت في مسح ولو زاوية بسيطة من علم هذا الفذّ، وأن يجعل عملي هذا مقبولا، وأن يجعله بداية لعمل قادم أكبر، فهو نعم المولى ونعم النّصير.

الفصل الأول : نظرة الدّارسين إلى النّحو التّعليمي قديما وحديثا

تمهيد :

يعتبر النّحو العربيّ من القضايا التي ظلّت تطرح نفسها كلّما جرى حديث عن الأسباب التي أدّت إلى تدهور اللّغة العربيّة، وهي- بلا شك- مشكلة قديمة متجدّدة.

فالعرب قديما لمّا أحسّوا باللّحن يتسرّب إلى سليقتهم نتيجة اختلاطهم ببقية الأجناس الدّاخلة في دين الله، انبروا يدافعون عن حصنهم المنيع بجمع اللّغة واستنباط قواعدها التي بها يعلّمون العربيّة حتّى يلحق من ليس منها بأهلها.

من هنا ومن خلال هذا الفصل التّمهيدي الّذي خصّصناه للحديث عن نظرة الدّارسين إلى تعليم النّحو قديما وحديثا، ارتأينا أن نسلّط الضّوء أوّلا على النّحو عموما من حيث التّعريف، والفائدة والغاية، ومن حيث الأسباب والعوامل التي أدّت إلى نشأته وتطوّره، لننتقل بعدها إلى الحديث عن الزّاوية التي رأى منها السّلف والخلف قضيّة تعليم النّحو، معرّجين على بعض الأسس التي بجب مراعاتها قبل الحديث عن أيّ إصلاح للنّحو أو تيسير له.

1. تعريف النّحو :

من الأجدر بنا ونحن نعالج موضوع النّحو التّعليميّ أن نلقي نظرة فاحصة على تعريفات النّحو لغة واصطلاحا، إذ الواجب قبل الخوض في أيّ أمر معرفة ماهيته، فما النّحو ؟

النّحو لغة : استعمل مصطلح النّحو بدلالات معجميّة متعدّدة، اختلف أهل اللّغة في تحديدها، وقد عدّها الصّبّان في خمسة معان [1].

- القصد : يقال:نحوت نحوه ،أي:قصدت جهته .
- الجهة : مثل: توجّهت نحو البيت،أي جهته.
- المثل : نحو:مررت برجل نحوك، أي:مثلك.
- المقدار : نحو:عندي نحو ألف،أي:مقدار ألف.
- النّوع : نحو:هي على أربعة أنحاء ،أي :أنواع .

وقد وسّعها الإمام الدّاودي لتشمل سبع دلالات حين قال[2] :

لِلنَّحْوِ سَبْعُ مَعَانٍ قَدْ أَتَتْ لُغَةً جَمَعْتُهَا ضِمْنَ بَيْتٍ مُفْرَدًا كَمُلاَ

قَصْدٌ وَمِثْلٌ وَمِـــقْدَارٌ وَنَاحِيَةٌ نَوْعٌ وَبَعْضٌ حَرْفٌ فَاحْفَظِ المَثَلاَ

وقد اقتصر النّحاة على معنى القصد ليشتق منه المعنى الاصطلاحي، ليبرز الرّابط بين المعنيين أكثر وضوحا في تفسير مصطلح النّحو .

1.1. النّحو تسميات متعدّدة :

لقد أُطلقت على النّحو تسميّات كثيرة فأوّل تسميّة له هي "علم العربيّة "، قال ابن سلاّم في معرض حديثه عن جهود أبي الأسود الدؤلي:"وكان أوّل من استنّ العربيّة وفتح بابها، وأنهج

(1) الصّبان:حاشية الصّبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك في النّحو ، دار الفكر، بيروت، (د-ت)، ج1، ص06.

(2) الإمام الدّاودي :حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على الألفيّة ،دار إحياء الكتب العربيّة،عيسى الباي الحلبي وشركاؤه، ج1، ص20.

سبلها ووضع قياسها، وذلك حين اضطرب كلام العرب، وصار سراة النّاس ووجوههم يلحنون، فوضع باب الفاعل،والمفعول به، والمضاف وحروف النّصب والرّفع والجرّ والجزم "[1].

ثمّ تغيّرت التّسمية إلى إطلاق مصطلح النّحو على هذا النّوع من العلم، والقضيّة في ذلك مشهورة وقد نسبت إلى الخليفة علي كرّم الله وجهه، وهذا ما أشار إليه الدّكتور محمد الطّنطاوي عند حديثه عن هذه النّشأة حيث قال : "... وقد سلف أنّ أبا الأسود لمّا عرض على الإمام ما وضعه فأقرّه بقوله : " ما أحسن هذا النّحو الذي قد نحوت " فآثر العلماء بتسمية هذا العلم باسم النّحو استبقاء لكلمة الإمام التي كان يراد بها أحد معاني النّحو اللّغوية والمناسبة بين المعنيين : اللّغوي والاصطلاحي" [2].

ثمّ توالت التّسميّات فيما بعد عند اللّغويّين، فنجد أشهر تعريف له ما جاء به ابن جنّي في كتاب الخصائص، حيث يقول : " هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره، كالتّثنية، والجمع، والتّحقير، والتّكسير، والإضافة والنّسب، والتّركيب وغير ذلك؛ ليلحق من ليس من أهل العربيّة بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها رُدّ به إليها " [3].

ويظهر من هذا التّعريف أنّ النّحو كان شاملا لكلّ علوم العربية المعروفة، وتعلّمه هو اتّباع لسنن العرب في كلامها من غير زيادة أو نقصان، وأيّ خروج عن هذا الخطّ ينعت صاحبه باللّحن وبالتّالي يردّ إلى جادّة الصّواب باتّباع القواعد المعروفة.

وقد حدّه ابن السّرّاج بقوله :"النّحو علم استخرجه المتقدّمون من استقراء كلام العرب"[4].

---

(1) الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن : طبقات النّحويين واللّغويين، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر، ط2، (د ت) ، ص32 .

(2) الطّنطاوي محمّد :نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، (د ت) ،ص33 .

(3) ابن جنيّ أبو الفتح عثمان : الخصائص ، تح: محمد علي النّجار ، دار الهدى ، بيروت ، ط2 ، 1372ه/1952م، ج1،ص34.

(4) ابن السّراج محمّد سهل: الأصول في النّحو، تح : عبد المحسن الفتلي، مؤسّسة الرّسالة ،بيروت ، لبنان،1998، ج1، ص35 .

وبعد هذا التّعريف بدأ النّحو يتجه من الشّمول إلى نوع من التخصّص وخاصة بعدما استقلت العلوم وصار لكلّ علم منهجه، فصار النّحو يهتمّ بأواخر الكلمات إعرابا وبناء، ومنه قال ابن عصفور في المقرّب : النّحو علم يستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف منها "[1] .

نلاحظ من خلال هذه التّسميات أنّ كتب النّحو في بدايتها كانت تشمل الجانب الصّرفي ولهذا جاءت التّعريفات لتشملهما معا.

أمّا التّعريفات اللاّحقة فجاءت لتركّز على الجانب النّحويّ كون الجانب الصّرفيّ قد استقلّ بنفسه. فغاية النّحو في هذه الحالة بيان الإعراب وتفصيل أحكامه حتّى سمّاه بعضهم علم الإعراب.

2.1. أهميّة النّحـــــو :

أجلّ ما يمكن أن يقال في النّحو ما أُثر عمّن أدرك فوائده، فقد قيل : الإعراب حلية الكلام ووشيه، وقيل أيضا : النّحو في العلم بمنزلة الملح في القدر، والرّامك في الطّيب. وقال إسحاق بن خلف النّهرواني :

النَّحْوُ يَبْسُطُ مِن لِّسَانِ الأَلْكَنِ وَالمَـرْءُ تُـكْرِمُـهُ إِذَا لَمْ يَـلْحَـنِ

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ العُلُومِ أَجَلَّــهَــا فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مُقِيــمُ الأَلْسُــنِ [2]

يطرح الزّجاجي سؤالا حتّى يقف على فائدة النّحو ويعرّفها فيقول : " فإن قال قائل : فما الفائدة في تعلّم النّحو، وأكثر النّاس يتكلّمون بغير إعراب ولا معرفة منهم به، فيفهمون ويُفهمون غيرهم مثل ذلك ؟ فالجواب أن يقال له : الفائدة فيه الوصول إلى التكلّم بكلام العرب على الحقيقة صوابا غير مبدّل ولا مغيّر، وتقويم كتاب الله عزّ وجلّ الّذي هو أصل الدّين والدّنيا والمعتمد، ومعرفة أخبار النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإقامة معانيها على الحقيقة، لأنّه لا تفهم

(1) ابن عصفور الإشبيلي: شرح المقرّب ، تح : علي محمّد فاخر ،ط1 ، 1414هـ/ 1994م ، الرّياض ، السّعوديّة ،ص17 .

(2) الطّنطاوي محمّد : نشأة النّحو و تاريخ أشهر النّحاة ، ص9 .

معانيها على صحّة إلاّ بتوفيتها حقوقها من الإعراب، ثمّ يقول فأدب العرب وديوانها هو الشّعر، ولن يتمكّن أحد من المولّدين إقامته إلاّ بمعرفة النّحو إلى أن يقول : فأمّا من تكلّم من العامّة بالعربيّة بغير إعراب فيفهم عنه فإنّما ذلك في المتعارف المشهور، والمستعمل المألوف بالدّراية، ولو التجأ أحد إلى الإيضاح عن معنى ملتبس بغير فهمه بالإعراب لم يمكنه ذلك" [1].

ويقول السّيوطيّ : " الإعراب من العلوم الجليلة التي اختصّ بها العرب، إذ هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللّفظ. وبه يُعرف الخبر الّذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميّز فاعل من مفعول ولا مُضاف ولا منعوت ولا تعجّب من استفهام..." [2]. ويُضيف متحدّثا عن دوره فيقول : "فأمّا الإعراب فبه تميّز المعاني ويوقف على أغراض المتكلّمين وذلك أنّ قائلا لو قال : ما أحسن زيد غير معرب،لم يوقف على مراده، فإذا قال :ما أحسن زيدًا أو ما أحسن زيدٍ أو ما أحسن زيدُ، أبان بالإعراب عن المعنى الّذي أراده، وللعرب في ذلك ما ليس لغيرهم فهم يفرقون بالحركات وغيرها من المعاني"[3].

لهذا تجد كثيرا من النّحاة حاولوا أن يحدّوه بحدود وتعاريف تكون له جامعة مانعة، فهـذا ابن يعيش يعرّفه: "والإعراب الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم لتعاقب العوامل في أوّلها"[4].

كما يعرّفه ابن جنّي في الخصائص بأنّه : "الإبانة عن المعاني بالألفاظ" [5]. فكلّ هذه الحدود والتّعريفات تتّفق على أنّ الإعراب هدفه الإبانة عن المعاني، وما الإعراب إلاّ أثر ظاهر في آخر المعرب نتيجة دخول العوامل عليه.

وقد تحدّث عبد القاهر الجرجاني عن مقدرة النّحو في الكشف عن المعاني الكامنة في الألفاظ، وبذلك يفهم الكلام وتبلى سرائره فيقول : " إنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتّى يكون الإعراب هو الّذي يفتحها، وأنّ الأغراض كامنة فيها حتّى يكون هو المستخرج لها، وأنّه المعيار

(1) الزّجاجي أبو القاسم : الإيضاح في علل النّحو، تح: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط3، 1399هـ/1979م، ص95،96.

(2) السّيوطي جلال الدّين عبد الرّحمان : المزهر في علوم اللّغة ، دار الفكر ، بيروت ، (د ت) ، ج 1 ، ص 322 ـ 323.

(3) المرجع نفسه ، ص 329 .

(4) ابن يعيش : شرح المفصّل ، إدارة الطباعة المنيريّة ، مصر ،(د ت)، ج 1 ، ص 72 .

(5) ابن جنّي : الخصائص ، ج 1 ، ص 35 .

الّذي يتبيّن نقصان كلام ورجحانه حتّى يعرض عليه، والمقياس الّذي لا يعرف صحيح من سقيم حتّى يرجع إليه، ولا ينكر ذلك إلاّ من نكر حسّه وإلاّ من غالط في الحقائق نفسه" [1].

والأمر لا يقف عند هذا الحدّ، فالفرق بين المعاني أمر لا يستهان به، فبه يفهم كلام من كلام، وبه يعرف ما وقع وما لم يقع كالنّص الذي أورده في كتاب (تأويل مشكل القرآن) إذ يقول: "وللعرب الإعراب الّذي جعله الله وشيا لكلامها، وحلية لنظامها، وفارقا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين، والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول، لا يفرّق بينهما إذا ساوت حالهما في إمكان الفعل أن يكون لكلّ واحد منهما إلاّ بالإعراب. ولو أنّ قائلا قال : هذا قاتل أخي بالتّنوين. وقال آخر : هذا قاتل أخي بالإضافة لدلّ بالتّنوين على أنّه لم يقتله، ودلّ حذف التّنوين على أنّه قد قتله " [2].

نختم هذه الحدود بما ورد عن ابن خلدون في هذا الشّأن، وكيف كان العرب يتكلّمون سليقة إلى أن خالطهم العجم ففسدت تلك اللّغة وخافوا على القرآن والسّنة من الاضمحلال فاستنبطوا هذه القواعد وجعلوها ميزانا للعربيّة، فبها تقوّم الألسنة، وبها يردّ كلّ من زاغ عن أصل اللّغة إلى الطّريق القويم، يقول ابن خلدون : "... وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا، ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطّردة شبه الكلّيات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه.

مثل أنّ الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع، ثمّ رأوا تغيّر الدّلالة بتغيّر حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا.وتسمية الموجب لذلك التغيّر عاملا وأمثال ذلك، وصارت كلّها اصطلاحات خاصة بهم فقدّروها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها (بعلم النحو)"[3]. ومن هذا النّص نستطيع أن نستشف جملة من الأمور نوردها فيما يلي :

(1) الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، مطبعة المنار ، 1331 هـ، ص 23 .

(2) عبد العال سالم مكرم : تطبيقات نحوية وبلاغية ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ، ط 2 ، 1413 هـ/1992 م ، ج 1 ،ص 07 .

(3) ابن خلدون : المقدّمة ، تح : عبد الله محمد الدّرويش ، دار يعرب ، ط 1 ، 1425 هـ/ 2004 م ، ج 2 ، ص367وما بعدها .

أوّلا : إنّ العرب في لغتها كانت تجري على السّليقة لقوّة ملكتها فكانت تعتمد على السّمع فتحفظ ولا يجاريها في هذا أمّة من الأمم، فهم يقولون ويعربون دون حاجة إلى قواعد.

ثانيا : ما لجأ العرب (النّحاة) إلى وضع قواعد اللّغة إلاّ بعد أن بدأت معالم الفساد تهدّد الملكة اللّسانيّة المعتمدة على السّمع والحفظ،بل صارت آيات القرآن مهدّدة بالتّحريف والتّصحيف.

ثالثا : ما ظهر فساد الملكة إلاّ بعد أن خالط العرب العجم،وخرجوا من جزيرتهم ناشرين للإسلام وتوسيعا لحدود الدّولة الإسلاميّة، فكان دخول النّاس من مختلف الأعراق والألوان خطرا يهدّد العربيّة في عقر دارها.

رابعا: وضعت هذه القواعد لصون اللّسان العربيّ من الفساد المسمّى باللّحن وعونا لغير العرب.

خامسا: ما وضعت القواعد إلاّ لتيسير فهم القرآن أساسا والحديث النّبوي لأنّهما باللّسان العربيّ.

3.1. الغاية من نشأة النّحو :

علم النّحو جليل القدر يقدّم على كثير من العلوم، حيث لا يمكن إدراك هذه العلوم والإحاطة بها ولا بكنهها إلاّ إذا كان طالبها على قدر من علم النّحو إذ هو كالآلة في يد صاحبها تعينه وتسنده فيما هو عازم عليه. ولغاية النّحو العظيمة ولجلال قدره يقدّم على كثير من العلوم، بل هو الوسيلة المثلى لتعلّمها وإتقانها وفهمها وسبر أغوارها.

يذكر ابن خلدون في مقدّمته : "أنّ علوم اللّسان العربيّ أربعة وهي : اللّغة والنّحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضروريّة على أهل الشّريعة، حيث أنّ مأخذ الأحكام الشّرعية من مصدري القرآن والسّنة وهي بلغة العرب. ونقلتها من الصّحابة والتّابعين عرب،فشرح العويص والمشكّل في لغتهم، فلا بدّ من معرفة العلوم المتعلّقة بهذا اللّسان لمن أراد علوم الشّريعة والمقدّم من هذه العلوم هو **النّحو**، إذ يتبيّن به أصول المقاصد بالدّلالة فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة والجهل به إخلال بالتّفاهم.[1]

(1) ابن خلدون : المقدّمة ، ص 597 ــ 598 .

والمقصود إجمالا أنّ النّحو ما نشأ ولا وضع إلاّ من أجل العلوم الإسلاميّة فطالب الفقه وأصوله، والقرآن وتفسيره، لا بدّ أن يكون على قدر معقول من كلام العرب، وكيف يجري في سننه، خاصة أنّ القرآن نزل بلسان عربيّ مبين، فلا يمكن إدراك جزئيّات هذا الدّين وكليّاته، إلاّ بالوقوف على تفاصيل هذا النّحو من إعراب وعوامل ومعمولات، وحروف معانٍ وغيرها.

ومن الأدلّة الواضحة على أنّ العلماء عدّوه من مقتضيات الشّريعة. يقول ابن تيمية في اقتضاء الصّراط المستقيم : "فإنّ الله لمّا أنزل كتابه باللّسان العربيّ، وجعل رسوله مبلّغا عنه للكتاب والحكمة بلسانه العربيّ، وجعل السّابقين إلى هذا الدّين متكلّمين به، لم يكن سبيل إلى ضبط الدّين ومعرفته إلاّ بضبط اللّسان، وصارت معرفته من الدّين،وصار اعتبار التّكلّم به أسهل على أهل الدّين في معرفة دين الله "[1].

وفي هذا المعنى أيضا ما ورد على لسان الدّكتور محمد الحبّاس إذ يقول : "كان علماء الإسلام يعتبرون أنّ النّحو العربيّ أداة أساسيّة لكّل عالم في مختلف التّخصّصات،لأنّ العلوم الإسلاميّة مستنبطة من الكتاب والسّنة، وهما باللّسان العربيّ، فوجب حينئذ معرفة العلوم اللّغويّة من باب ما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب "[2].

وقال حمّاد بن سلمة : " من طلب الحديث، ولم يتعلّم النّحو، فهو مثل الحمار، يعلّق عليه مخلاة ليس فيها شعـير "[3] .

يقول الدّكتور محمّد الحبّاس أيضا : "وانطلاقا من هذا المقام، قام العلماء بدراسة العلوم اللّغوية من نحو وصرف ولغة **حتّى اشترطوا في القراءة الصّحيحة أن تكون موافقة لوجه من**

(1) أحمد بن جاد الله بن أحمد الصلاحي الزّهراني : اتجاهات تجديد النّحو عند المحدثين دراسة وتقويم ، الرسالة العلمية، جامعة أم القرى ، (د ت) ، ص5 .

(2) الحبّاس محمد : النحو العربي والعلوم الإسلامية ، رسالة دكتوراه ، جامعة الجزائر ، 1420 هـ/ 1999 م ، ص 81 .

(3) السّعدي عبد الرزاق عبد الرّحمان أسعد :ابن فلاح النحوي (حياته و آراؤه ومذهبه، الجزء الأوّل من كتابه المغني) ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، 1404 هـ / 1984 م ، ج 1 ، ص9 .

الوجوه العربية ولو احتمالا، واشترطوا في المجتهد والفقيه أن يكون على دراية بعلوم اللّسان العربيّ "[1].

وعلوم اللّسان هي علوم العربيّة، ذكرها الخضريّ بقوله :"كان في الأصل يعمّ اثني عشر علما:اللّغة والصّرف والاشتقاق والنّحو و المعاني والبيان والخط، والعروض والقافية وقرض الشّعر، والإنشاء والتّاريخ ومنه المحاضرات ".[2]

ويمكن ذكرها في هذين البيتين :

نَحْوٌ وَصَرْفٌ عَرُوضٌ ثُمَّ قَافِيَةٌ وَبَعْدَهَا لُغَةٌ قَرْضٌ وَإِنشَاءُ

خَطٌّ بَيَانُ مَعَانٍ مَعْ مُحَاضَـرَةٍ وَالاشْتِقَاقُ لَهَا الآدَابُ أَسْمَاءُ

ومن هنا نعلم ويعلم الكثير أنّه كان مطلبا عامّا، لأنّه الضّابط للّسان نطقا وكتابة ولهذا تجد أشراف العرب تحرص على الفصاحة والبيان، وتتخوّف التّصدّر للكلام مخافة اللّحن والخطأ، فهذا الخليفة عبد الملك بن مروان حينما قيل له : "قد عجّل عليك الشّيب، فقـال : شيّبني ارتقاء المنابر وتوقّع اللّحن" [3]. كما قال أيضا : "الإعراب جمال للوضيع، واللّحن هجنة للشّريف"[4].

ومن هذا المقام ندرك المكانة العالية التي كان يتبوّأها النّحو العربيّ، والمقدار الّذي كان يتنافس فيه النّاس يوم ذاك، والمرتبة التي كان يطمح إليها كلّ فصيح، أو يتمثّلون بأن بلغوا الفصاحة تلقيّا من أهلها في البوادي والقفار دون تلقين أو تعليم، وهذا ما يفسّره قول أعرابيّ :

وَلَسْتُ بِنَحْوِيٍّ يَلُوكُ لِسَانَهُ وَلَكِنْ سَلِيقِيٌّ أَقُولُ فَأُعْرِبُ

(1) السّعدي عبد الرزاق: ابن فلاح النحوي ، ص8 .

(2) الطنطاوي محمد : نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، ص9 .

(3) الأندلسي أحمد بن محمد عبد ربّه : العقد الفريد ، تح : مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1404ه/1983م، ج 2 ، ص 308.

(4) المرجع نفسه ، ص 308 .

مما دفع النّاس بعد ذلك إلى طلب العربيّة وخاصّة النّحو واللّغة لينالوا بهما قربا عند الخلفاء والأمراء، فقد تقربّوا به أو طلبوا لأجله فصاروا مؤدّبين لأولادهم كالكسّائي والفرّاء وغيرهما.

فالنّحو وسيلة المستعرب، وسلاح اللّغوي وعماد البلاغيّ، وأداة المشرّع والمجتهد، والمدخل إلى العلوم العربيّة والإسلاميّة جميعا. فليس عيبا أن يصفه الأعلام السّابقون بأنّه ميزان العربيّة والقانون الّذي تحكم به كلّ صورة من صورها [1].

4.1. نشأته ومراحل تطوّره :

لقد ذكرنا آنفا أنّ النّحو مكانته جليلة، ذو أهمية عظيمة عند العرب والمسلمين، إذ هو الميزان الذي يضبط مستعمل اللّغة، تخصّص له أولو العلم تقعيدا وتنظيرا وتأليفا خدمة للنّص القرآني أوّلا وللّغة العربيّة ثانيا، خاصّة أنّ القرآن العظيم نزل بلسان عربيّ مبين. لهذا كانت نشأته مبكّرة جدّا والسّر في هذا هو الإسلام الذي غيّر حياة العرب والعالمين جذريّا دينا وتعليما.

فكان الإقبال عليه كبيرا من شتّى الأجناس والأمم والأعراق. قال الله تعالى:﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ [2].

ومن هنا كان لزاما على أهل العلم والنّهى، التجنّد لتعليم من هم بحاجة إلى تعلّم العربية من عرب وغيرهم حتّى يفهموا هذا الدّين ويقرأوا القرآن بوجوهه الصّحيحة، ولن ينجح هذا التّعليم إلاّ بإنشاء قواعد وأدوات تسهّل هذا الطريق.

(1) عبّاس حسن : النحو الوافي ، دار المعارف، مصر ، ط 3 ، 1974 ، ص2.

(2) سورة النصر.

5.1. واضعـــه :

تختلف الرّوايات التي تتحدّث عن نشأة النّحو العربيّ، فهي تربو عن السّبع عشرة رواية، ومع اختلاف صيغها ورواتها تتّفق في نسبة الفضل في وضع علم النّحو إلى عدد محدود من الأشخاص وهم : أبو الأسود الدّؤلي، وعبد الرّحمن بن هرمز، ونصر بن عاصم، وعبد الله بن أبي إسحاق ويحي بن عمر، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عبّاس، وعمر بن الخطّاب وزياد بن أبيه.

فأمّا الخلفاء فتنسب إليهم الرّوايات الشّروع بأنفسهم في وضع علم النّحو،وحينا آخر الاكتفاء بإصدار الأوامر بإنشائه، وأمّا الآخرون ـ غير الخلفاء ـ فتنسب إليهم الشّروع الفعليّ في وضع بنوده وقوانينه.

ويمكن تقسيم الرّوايات التي تتحدّث عن نشأة النّحو إلى أربعة أقسام [1] :

1 ـ ما يسند الوضع إلى الإمام عليّ أو إلى أبي الأسود بتوجيه من عليّ كرّم الله وجهه.

2 ـ ما يسند الوضع إلى أبي الأسود بتوجيه من عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه.

3 ـ ما يسند الوضع لأبي الأسود بتوجيه بن زياد بن أبيه أو ابنه عبيد الله.

4 ـ ما يسند الوضع إلى أبي الأسود ودون توجيه من أحد.

ولا نريد في هذا المقام أن نعدد الرّوايات، أو نفاضل بينها، أو نرجّح إحداها على الأخرى لأنّ هذا من شأنه أن يجعل البحث يحيد عن مساره. فقط أذكر ما أجمع عليه المحقّقون وما وصل إلينا دون الخوض في الأسباب السّياسيّة والقومية.

يقول عبد الرّحمن الحاج صالح معيبا على من أنكر مساهمة أبي الأسود للنّحو فيقول في هذا الشّأن :"...وينكر أن يكون أبو الأسود وأتباعه ممّن ساهم في وضع النّحو مع اعترافه واعتراف غيره أنّه أوّل من نقّط المصحف، وهذا تناقض صارخ، فكيف يمكن أن توضع النّقط

(1) ينظر: صلاح روّاي : النّحو العربي ، نشأته ، تطوّره ، مدارسه ، رجاله ، دار غريب ، القاهرة ، 2003 ، ص 35 وما بعدها .

التي تميّز بين الرّفع والنّصب والجرّ، وبالتّالي يميّز بين الفاعل والمفعول به والمضاف إليه، دون أيّ وعي، وأيّ شعور، ولو بسيط بهذه المفاهيم النّحوية "[1].

في شرحنا لقول الدّكتور عبد الرّحمن الحاج صالح نلحظ قضيتين مهمّتين هما :

ـ **الأولى** : فيمن شكّك في وضع أبي الأسود للنّحو وأنّها بداية مبكّرة، وهي إشارة إلى استحالة وضع العرب للنّحو، وأنّهم قد أخذوا هذا العلم من غيرهم أي من السريان واليونان.

ـ **الثّانية** : قضية إعجام أبي الأسود للقرآن، أو ما يسمّى نقط الإعجام، وقد اتفق النّحاة والمؤرّخون على أنّ أبا الأسود هو واضعها، وما الإعجام إلاّ حسّ نحويّ يمتاز به أبو الأسود فكيف ينكرون عليه وضع النّحو ؟ .

6.1. سبب وضع النحو :

لقد ألمحنا فيما سبق أنّ اللّحن كان هو الدّاعي إلى وضع علم النّحو حيث تذكر رواية من الرّوايات أنّ أبا الأسود دخل يوما على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فوجده مطرقا مفكرّا فسأله عن السبب فقال له : " إنّي رأيت النّاس قد فسد كلامهم بمخالطة هذه الحمراء ـ الأعاجم ـ فأردت أن أضع لهم ما يرجعون إليه ويعتمدون عليه في كلامهم.

فقال أبو الأسود : لئن فعلت فقد أحييتنا، ثمّ ألقى إليه رقعة مكتوبا عليها : الكلام كلّه اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبئ به والحرف ما جاء لمعنى. ثمّ قال له : انحُ هذا النّحو، وأضف إليه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أنّ الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر، وإنّما يتفاضل النّاس فيما ليس بظاهر ولا مضمر وأراد المبهم.

وبعد لَأْيٍ من الزّمن عاد ومعه ما وضعه من إنّ وأخواتها وأهمل لكنّ، فقال له عليّ رضي الله عنه : أين لكنّ ؟ فقال : ما حسبتها منها، فقال : بلى هي منها، ثمّ قال الإمام : ما أحسن هذا النّحو الّذي نحوت !"[2].

(1) عبد الرّحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية ، موفم للنشر ، الجزائر، 2007 ،ج 1 ، ص 17 .

(2) القفطي جمال الدّين : إنباه الرّواة على أنباه النّحاة ، دار الفكر العربي ، مصر ، ط 1 ، (د ت) ، ج 1 ، ص86.

وقال أبو العبّاس محمد بن يزيد :" سئل أبو الأسود الدّؤلي عمّن فتح له الطريق إلى وضع النّحو، وأرشده إليه، فقال : تلقيته من عليّ بن أبي طالب رحمه الله، وفي حديث آخر قال : ألقى إليّ عليٌّ أصولا احتذيت عليها "[1] .

وروي أنّ الذي أوجب عليه الوضع في النّحو، أنّ ابنته قعدت معه في يوم قائظ، شديد الحرّ، فأرادت التعجّب من شدّة الحرّ، فقالت :" ما أشدّ الحرّ " فقال أبوها : القيظ، وهو ما نحن فيه يا بنيّة، جوابا عن كلامها لأنّه استفهام، فتحيّرت وظهر لها خطأها، فعلم أبو الأسود أنّها أرادت التّعجّب، فقال لها : قولي يا بنيّة : "ما أشدّ الحرّ !" فعمل باب التعجّب، وباب الفاعل، والمفعول به وغيرها من الأبواب "[2].

ومن أسباب وضع النّحو ما قاله أبو الطيّب : " واعلم أنّ أوّل ما اختّل من كلام العرب وأحوج إلى التعلّم : الإعراب، لأنّ اللّحن ظهر في كلام الموالي والمتعرّبين من عهد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقد روينا أنّ رجلا لحن بحضرته فقال : " أرشدوا أخاكم فقد ضلّ ".

وقال أبو بكر : " لأن أقرأ فأسقط أحبّ إليّ من أنّ أقرأ فألحن "[3] .

مهما يكن من أمر في أسباب ودوافع نشأة النّحو العربيّ، يمكن تلخيصها في عوامل ثلاثة أشار إليها الدّكتور تمام حسّان في كتابه الأصول حيث قال : "ربّما كانت هناك ثلاثة من العوامل المؤثّرة في نشأة النّحو والدّافعة إلى دراسة اللّغة العربيّة دراسة منظّمة لاستخراج قواعدها، أي دراسة مضبوطة بالمعنى الذي أفاد الضّبط عند الكلام في خصائص العلم"[4].

ويمكن أن نشير إلى تلك العوامل مع شيء من الشّرح والتّفصيل كالتّالي :

(1) الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن : طبقات النّحويين واللّغويين ، ص23.

(2) المرجع نفسه ، ص 23 .

(3) السّيوطي جلال الدّين عبد الرحمن : المزهر في علوم اللغة ، ص 289 .

(4) تمام حسّان :كتاب الأصول -ابستمولوجية الفكر اللّغوي عند العرب- (النّحو،فقه اللّغة،البلاغة) أميرة للطباعة ، 1420ه/2000 م ، ص23ـ25 .

أ ـ العامل الدّيني [1] : ويقصد به الخوف على القرآن الكريم من اللّحن الذي أضحى يتسرّب إليه نتيجة اختلاط العرب بغيرهم من الأجناس الأخرى التي دخلت الإسلام طواعيّة أو كرها، أو التّحريف والذي قد يأتي من تفاضل قرّاء الأمصار بقراءاتهم إذ يقول كلّ منهم للآخر: "قراءتي خير من قراءتك "، الأمر الذي دفع عثمان بن عفّان رضي الله تعالى عنه إلى جمع ما تفرّق من صحف وعظام ولحاف وسعف النّخل عند المسلمين في مصحف واحد سمّي باسمه فيما بعد.

ب ـ العامل القومي [2] : والقصد منه قوامة العرب على غيرهم من الوافدين الجدد أصحاب الحضارات العريقة كالفرس والرّوم و القبط والهند وبقايا اليهود وغيرهم، فكان لزاما على العرب المسلمين تعليم هؤلاء أمور دينهم وتقاليد قرآنهم وهذا ليس بالأمر الهيّن.

ج ـ العامل السّياسي [3] :وهذا لا يقصد به تعدد المدارس النّحوية- حسب رأي تمام حسّان- بل يقصد به تحوّل الخلافة الإسلاميّة إلى دولة العرب بعد انقضاء خلافة الرّاشدين، فلجأ حكّامها من أمويّين وعبّاسيّين إلى التّفرقة بين القبائل بالعصبيّة والتّفريق بين المسلمين بحسب الأعراق. فالعربيّ بيده لغة القرآن والدّولة وهي عدّة للتّسلّط والتّفوّق وهي بالنّسبة للموالي حاجز مانع من الوصول إلى المراتب العليا فكان لزاما عليهم أن يجدّوا ويجتهدوا حتّى يصلوا إلى مصافّ الكبار.

يقول تمّام حسّان :" ومن هنا لم يكد أبو الأسود وأصحابه من رجال الطّبقة الأولى ينفضون أيديهم من بعض التّصنيفات النّحوية الأوّلية،كأقسام الكلام وحركات الإعراب ونحوها حتّى وجد الموالي ضالّتهم المنشودة، التي تمكّنوا بواسطتها من تعلّم لغة الدّين والدّولة والمجتمع جميعا. وهكذا انتزع الموالي الرّاية النّحوية من أيدي العرب، فكانت جمهرة النّحاة منهم، ونشأ النّحو على أيديهم وصنع على أعينهم..." [4].

(1) تمام حسّان : الأصول ، ص 23.

(2) المرجع نفسه ، ص 25.

(3) المرجع نفسه ، ص 27.

(4) المرجع نفسه ، ص 27 .

والسّؤال الّذي يتبادر إلى ذهن كلّ واحد منّا، هل يمكن أن ينتظر العرب في الزّمن الأوّل زمن الرّسول صلى الله عليه وسلم وهم حملة الرّسالة اختارهم الله لتلّقيها، وهم كما يعرف الجميع يمتازون بالذكاء والفطنة،وقد تخصّص هذا بالغريب والآخر بالأسباب، والآخر بالبلاغة، أي أنّهم كانوا على دراية من الأوّل بكلّ ما يجري ومنذ النبيّ عليه الصّلاة والسّلام. قلت : هل ينتظرون حتّى يظهر اللّحن وحينئذ يفكّرون في هذا العلم ؟

وعليه يمكن القول أنّ هذه الرّوايات ما هي إلاّ روايات ثانويّة أمام الدّافع الأهمّ ألا وهو الاجتهاد والبحث الذي تمتّعت به هذه الطّبقة من الصّحابة وهم برفقة النّبيّ صلى الله عليه وسلّم، يتلقّون الوحي ويسمعون تفسيره من الرّسول الكريم، ويدركون الأخطار التي تهدّد لغتهم ومكامن الخطر. وقد تكلّم بلغات القبائل المختلفة وأظهر بذلك اختلافاتها مع لغة قريش،كتكلّمه صلى الله عليه وسلم بلغة حمير حين قال : "ليس من امبرّ امصيام في امسفر "[1].

والحميريّون يستبدلون لام " ال " التعريف ميما.وهذا على سبيل المثال لا الحصر إذ النّصوص التي تشير إلى ذلك كثيرة ومتنوّعة وتكاد كلّها تؤدي بك إلى نفس الشكوك،كما قرأ عليه الصلاة والسّلام القرآن الكريم برواياته المتعدّدة، وهي كلّها إشارات لأصحابه والباحثين منهم والمجتهدين إلى البحث ومعرفة هذه الاختلافات والتي قد تشكّل تحدّيا بالنّسبة إليهم.

وبما أنّ العربيّة مفتاح لتعلّم وفهم القرآن، فدراستها وفهمها واجب باعتبار أنّ ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب، كما سبق ونقلنا عن الدّكتور محمد الحبّاس. ويمكن أن نعتبر الآية التّالية دليلا لما كان القرآن يدفع به المؤمنين ليجتهدوا ويتفقهوا في الدّين وما العربية إلاّ وسيلة لتعلّمه. قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[2].

(1) ابن هشام جمال الدّين : شرح قطر النّدى وبل الصّدى ، تح : محمد محي الدّين عبد الحميد ، مطبعة مصطفى محمد ، مصر، 1937 م ، ص 111 .

(2) سورة التوبة، الآية 122.

فهذه الآية -في اعتقادنا- إشارة إلى المؤمنين وإلى العلماء منهم خاصّة للاجتهاد وابتغاء العلم من مصادره، حتّى يفيدوا أقوامهم إذا عادوا إليهم، و لا نحسب اللّغة إلاّ رافدا من روافد الدّين. وفي النّصوص إشارات لما كان العرب يقومون به حينما تستغلق عليهم الألفاظ فقد كانوا يشدّون الرّحال إلى القبائل العربيّة بحثا عن أيّ تفسير وشرح لها .

2. تعليميّة النّحو العربيّ قديما وحديثا :

لقد وقفنا سابقا على أنّ النّحو نشأ لعلّة تعليميّة صرفة، ألا وهي إصلاح الخلل واللّحن الّذي أصاب الألسنة غداة اختلاط العرب بغيرهم ممن دخلوا في الدّين طوعا أو كرها، وراح هذا العلم ينمو ويكبر ويشبّ ويتشعّب مع مرور الوقت ودعوة الحاجة إليه. فقد نشأ ضعيفا في بيئة عربيّة تربّت على السّليقة لينمو شيئا فشيئا حسب ما يحيط به من ظروف تدفعه يمينا وشمالا ليزدهر ويترعرع ويشتدّ عوده، ويقوى ساعده في وجود علماء بذلوا جهودا مضنيّة في سبيل أن يحصل هذا المولود على الصّورة الكاملة.

وقد عبّر عبّاس حسن عن هذه النّشأة بتعبير هذا نصّه : " بَيْدَ أنّ النّحو كبقيّة العلوم تنشأ ضعيفة، ثمّ تأخذ طريقها إلى النّمو والقوّة،والاستكمال بخطى وئيدة أو سريعة، على حسب ما يحيط بها من صروف وشؤون، ثمّ يتناولها الزّمان بأحداثه، فيدفعها إلى التقدّم والنّموّ والتّشكّل بما يلائم البيئة، فتظلّ الحاجة إليها شديدة، والرّغبة فيها قويّة، وقد يعوقها ويحول بينها وبين التّطوّر، فيضعف الميل إليها وتفتر الرّغبة فيها، وقد يشتطّ في مقاومتها، فيرمى بها إلى الوراء، فتصبح في عداد المهملات أو تكاد، وقد خضع النّحو العربيّ لهذا النّاموس الطّبيعيّ فولد في القرن الأوّل الهجريّ ضعيفا، وحبا وئيدا أوّل القرن الثاني، وشبّ بالرّغم من شوائب خالطته، وبلغ الفتاء آخر ذلك القرن،وسنوات من الثّالث.فلمع من أئمته نجوم زاهرة، كعبد الله بن أبي إسحاق والخليل،وأبي زيد، وسبيويه، والكسائي و الفرّاء ونظرائهم من الأعلام..." [1].

(1) عبّاس حسن : النّحو الوافي ، ص 4،3 .

وكأنّ الدّكتور يشير إلى حقيقة حتميّة يسير عليها كلّ مولود من الميلاد إلى الوفاة، والعلوم واحدة منها. وبما أنّ النّحو من هذه العلوم، فمن الطّبيعي أن يتعرّض لهذه الهزّات وتلتصق به الشّوائب والعوالق وبالتّالي صقلها ونقدها والتعرّض لها لا ينقص شيئا من قيمتها.

وقبل أن نمضي قدما في قضية تعليم النّحو لا بدّ من الوقوف عند بعض الأسس التي شدّد عليها الدّكتور علي أبو المكارم في كتابه تعليم النّحو العربيّ قبل تحليل الموضوع، حتّى نلقي نظرة شاملة على القضيّة لنتبيّن موقعها وحجمها من البحث وأهميتها، والاتجاهات والأهداف التي يجب تحرّيها في تناولنا لها، وهي أسس سبعة نوردها كما يلي [1] :

أوّلا : لا بدّ من تحديد وظيفة النّحو وغاياته [2].

ومعنى ذلك أنّ النّحو وسيلة لغاية أسمى وهي تعلّم اللّغة والتفقّه فيها، ونحن إذ نشير إلى هذه الحقيقة لا لشيء إلاّ لأنّها تعدّ من الأسباب التي أدّت إلى تدهور اللّغة العربيّة كون النّحو صار يدرّس لذاته بعيدا عن اللّغة. والمعلوم لدينا أنّ الهدف العام من تعلّم النّحو هو حذق كلام العرب حتى ننتج متكلّما شبيها بالعربي الفصيح وليصبح هذا النّاتج الجديد قادرا على تحقيق الغاية الكبرى التي من أجلها درست اللّغة واستنبطت القواعد ألا وهي التّفقه في كتاب الله قراءة ودراسة وفهما وتفسيرا. وعليه فهذا الأساس يؤدّي بنا إلى الأساس الآخر وهو :

ثانيا : العلاقة بين النّحو واللّغة[3].

وكما أرّقت قضية تعليم النّحو العلماء والنّحاة والقائمين على شؤون النّاس قديما،ألقت بضلالها على المنشغلين بهموم اللّغة حديثا بما يكتسيه هذا الموضوع من أهمية وخطورة.

فالنّحو بالنسبة للّغة العربية ، كالعمود الفقري بالنسب للجسد، أو كالقلب بالنسبة لبقية الأعضاء، فبه تتطوّر وتزدهر، وبدونه تفقد نضارتها ورونقها وقوّتها، ولذلك يعدّه

(1) علي أبو المكارم : تعليم النّحو العربي عرض وتحليل ،المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1،1428هـ/2007م، ص13-25.

(2) المرجع نفسه ، ص 13 .

(3) المرجع نفسه، ص19 .

الكثيرون من الأسباب الرّئيسة في الكثرة التي شهدها التّأليف النّحويّ، من المتقدّمين والمتأخّرين. يقول علي أبو المكارم في هذا الشّأن:"وحسبنا أن نرجع إلى قوائم المصنّفات النّحوية،ونلّم بطرف من تاريخها، ونقف على أسباب تأليفها، وعوامل تصنيفها، لندرك أنّ تعليم النّحو كـان أحد العوامل الرّئيسة في تعدّدها وتنوّعها،إن لم يكن العامل الأشدّ تأثيرا فيها" [1].

وهي قضية أخرى ينبغي التوقّف عندها، وإعطاؤها حقّها من الشّرح فالعلاقة الموجودة بين النّحو واللّغة وطيدة و الرّابط بينهما متين، و العلّة من معرفة هذا الأساس هو معرفة المنهجيّة الصّحيحة في عملية تعليم النّحو، إذ الأسئلة التي تطرح كثيرة ومتنوّعة، ومنها : هل نحن بصدد تعليم اللّغة أو النّحو ؟ وهل تعليم النّحو هو السّبيل الوحيد لتعلّم اللّغة، أم هناك طرق أخرى لتعلّمها ؟ وبعبارة أخرى هل تعليم النّحو غاية في حدّ ذاته ؟ أم هو وسيلة للوصول إلى غاية أسمى وهي حذق كلام العرب ؟

وعليه يمكننا القول أنّ تعليم النّحو يضطلع به معلّمو النّحو، أمّا تعليم اللّغة فهي مهمّة الجميع، أي المجتمع كلّه وبجميع مؤسّساته. وفي هذا السّياق يقول أبو المكارم :"... إنّ تعليم النّحو قد يكون من بعض الجوانب أيسر من تعليم اللّغة بحكم أنّ هدف النّحو المباشر منح نوع من المقدرة على التّحليل، أمّا الغاية من تعليم اللّغة فاكتساب المقدرة على التّركيب، بما يعنيه ذلك من إطلاق لقدرات المتعلّم في إبداع ما يريد من أشكال التّركيب... " [2].

أمّا ابن خلدون فقد حاول أن يعالج هذه القضيّة بالتّفريق بين الملكة والصّنعة فقال : " والسّبب في ذلك أنّ صناعة العربيّة إنّما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصّة، فهي علم بكيفيّة لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة، إنّما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصّنائع علما ولا يحكمها عملا(.....) ولو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه، وهذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها، فإنّ العلم بقوانين الإعراب إنّما هو علم بكيفيّة

(1) علي أبو المكارم : تعليم النّحو العربي عرض وتحليل ، ص 9 .

(2) المرجع نفسه، ص 20 .

العمل، وليس هو نفس العمل، ولهذا نجد كثيرا من جهابذة النّحاة والمهرة في صناعة العربيّة المحيطين علما بتلك القوانين،إذا سئل في كتابة سطرين لأخيه، أو ذي مودّته، أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده، أخطأ فيها عن الصّواب، وأكثر من اللّحن، ولم يجد تأليف الكلام لذلك "[1] .

فالنّحو عنده ـ أعني ابن خلدون ـ مجرّد بعض من أحكام اللّسان أي أنّ هناك جوانب أخرى في إفادة المعنى لا تقل أهمية عنه. وبهذا فالإعراب وسيلة من بين وسائل عدّة توصلنا إلى معرفة كلام العرب. إذن كما هو معروف عند العام والخاصّ أنّ النّحو مستنبط من استقراء كلام العرب الفصحاء فهو كما تمّ تعريفه عند ابن جنيّ سابقا بأنّه انتحاء سمت كلام العرب، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها.

فالنّحو كان موجودا ضمنيّا في كلام العرب، توصّل إليه أهل اللّغة والنّحو غداة جمع المادّة اللّغوية من أهل الفصاحة بعد تحديدها مكانيّا و زمانيّا، حيث طفقوا يصنّفون هذه المادّة حسب درجات الاستعمال والاطّراد والشّذوذ باستعمال أساليب متنوعة كالسّماع والقياس، ليتوصّلوا إلى إبداع تلك القواعد التي جعلوها فيما بعد قوالب يخضعون لها كلام النّاس، أهو من دائرة كلام العرب أم خارج عنها ؟

لقد أشار حسن عون في معرض حديثه عن إشكالية اللّغة وعلاقتها بالنّحو قائلا:"وممّا لاشكّ فيه أنّ النّحو العربيّ كغيره من سائر العلوم الأخرى، قد ينشأ فنّا قبل أن يكون علما، أي أنّ هذه الطرق الخاصّة للأداء في اللّغة العربيّة، قد التزمت باطّراد في تراكيبها وأساليبها، ومرّنت عليها ألسنة العرب وتمكّنت من طبائعهم قبل أن توضع لها القواعد النّحويّة المجردّة وضعا علميّا، وتدرس دراسة مستقلّة لتعرف و تحتذى" [2] .

ومن هنا نتبيّن أنّ اللّغة أسبق في تكوينها من علم النّحو، وهي عبارة عن أداء لمجموعة من التّراكيب و الأساليب والاشتقاقات مع وجود ضوابط وعلاقات بين المفردات وتلك

(1) ابن خلدون : المقدّمة ، ص 435 ــ 436 .

(2) حسن عون : اللّغة والنّحو ، دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة ، مطبعة روايال ، ط 1 ، 1952 ، ص 87 .

التّراكيب. فالتزام أساليب اللّغة في طرق أدائها ينبثق عنه مجموع الملاحظات والقواعد والتي بدورها تشكل اللّغة، وعليه فمعرفة القوانين المتعلّقة باللّغة ليس بإمكانها وبمفردها أن تجعل من متعلّم أن يتمكّن من اللّغة فهما وأداء فمعرفة القوانين شيء وحذق اللّغة شيء آخر فهي علم بكيفيّة لا نفس كيفيّة كما قال ابن خلدون.

وإشارتنا إلى هذه النّقطة ليست مقحمة إقحاما، بل هناك بعض الآراء المتضاربة حول تدريس القواعد في مدارسنا اليوم، هذا للأسباب نفسها التي ذكرناها سابقا، فمنهم من يرفض تدريسهاجملة، ومنهم من يدعو إلى اعتمادها والتّمسك بها، وقد انقسم الجمع في ذلك إلى فريقين متضادين [1] :

الفريق الأوّل : يرى أنّه بالإمكان الاستغناء عن تدريس النّحو مادامت اللّغة ممكنة بدون هذه القواعد، والاكتفاء بكثرة التّدريب ومحاكاة النّماذج اللّغوية الكثيرة من شأنه أن يصقل الألسنة ويهذب اللّغة وقد استندوا في رأيهم إلى ما يلي :

- أنّ أعراب البادية قد تعرّفوا على اللّغة دون معرفة قواعدها.
- أنّ الأطفال يكتسبون لغتهم عن طريق المحاكاة دون حاجة إلى شرح كلمات أو الرّجوع إلى المعجمات ومن هنا إمكانية تعلّم اللّغة دون قواعد.
- أنّ هذه القواعد جافة ومنفّرة تنتابها الفلسفة والمنطق.
- أنّ هذه القواعد لا تفيد كثيرا في صون اللّسان من الخطأ واللّحن.

وهم بهذا يشيرون إلى معرفة نحوية معروفة بالنّحو الضّمني ؟،يعرّفه نصر الدّين بوحساين في كتابه مدخل إلى اللّسانيات التّطبيقية بقوله: " المقصود بالمعرفة النّحوية الضّمنية ما

(1) عبد الفتاح حسن البجّة : أصول تدريس العربية بين النظرية والممارسة ، دار الفكر ، عمان ، ط 1 ، 1420 هـ/ 1999م ، ص 245 .

يكتسبه المتعلّم من قواعد نحويّة حينما يحتكّ مباشرة بالنّظام اللّغويّ الهدف دون واسطة منهجية علميّة " [1].

الفريق الثّاني : وهو الفريق الّذي ينتصر لتدريس القواعد النّحويّة الصّريحة أو ما يطلق عليه مصطلح النّحو الصّريح، والّذي عرّفه نصر الدّين بوحساين بقوله : ".... المعرفة النّحوية الصّريحة فهي : جملة القواعد التي تمّ انتقاؤها من مدوّنة النّحو العلميّ وفقا لمعطيات ترتبط بعناصر المجال الذي يتفاعل داخله المتعلّم من جهة، فخصوصيّات المنهج الّذي نعزم على تطبيقه من جهة ثانية والتي يسهر على تبليغها المعلّم داخل وسط تعليميّ وفوج دراسيّ بأعلى مردود ممكن بحيث يتمكّن في آخر المطاف ــ نظريّا على الأقل ــ أن يكون في داخل المتعلّم القدرات اللّغويّة والمهارات المرتبطة التي تمنح له مكنة استغلال اللّغة الهدف بالكيفيّة التي يشبه فيها المتكلّمين الأصليّين " [2].

يرى هذا الفريق أنّ تدريس النّحو أمر لا مفرّ منه لأنّ اللّغة مجموعة من البنى المتماسكة والمحكومة بقوانين ضابطة تمنعها من التّلاشي والتّفكّك، زيادة على وجود أسباب موضوعيّة على الأقلّ بالنّسبة إلى هذا الفريق والتي نوردها كما يلي :

- أنّ القواعد وسيلة للكشف عن الخطأ ومن ثمّ تجنّبه نطقا وكتابة.
- أنّ المحاكاة في وقتنا الحالي أمر غير متوافر في ظلّ انهيار الفصحى.
- تعوّد القواعد المتعلّمين القدرة على الاستنباط والتّعليل ودقة الملاحظة والموازنة بين المتشابهات والمختلفات من التّراكيب.
- تؤمّن هذه القواعد الأسس الدّقيقة والمضبوطة للمحاكاة والتّقليد.

يقول حسن عون في هذا الصدد : " والنّحو بالنسبة للّغة هو عبارة عن مجموع الملاحظات والقواعد التي تلتزمها أساليب اللّغة في طرق أدائها للمعاني، فالتزام الرّفع في كلّ من

(1) نصر الدّين بو حساين : مدخل إلى اللّسانيات التّطبيقية ، الأمل للطّباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، (د ت) ،ص 143 .
(2) المرجع نفسه ، ص151.

يصدر عنه الفعل أو الحدث، والتزام النّصب في كلّ من يقع عليه الحدث، والتزام الجرّ في كلّ حالة من حالات الإضافة، وفي كلّ اسم مسبوق بحرف من حروف الجر، والتزام الجزم في الفعل المضارع إذا أسند إلى نون النّسوة، أو سبق بحرف من حروف الجزم، نقول : إنّ التزام حالة من حالات الإعراب المختلفة لكلّ حالة من حالات الكلمة بالنّسبة لموضعها من الجملة، إن هو إلاّ طريق من طرق الأداء في اللّغة العربيّة. أمّا ملاحظة ذلك للسّير على نهجه فهو من النّحو "[1] .

لتستقرّ الآراء على رأي ثالث يدعو إلى تأجيل تدريسها إلى سنوات لاحقة مع الاكتفاء بتدريس النّماذج اللّغويّة على شكل محاكاة في السّنوات الأولى من الدّراسة.

ثالثا : **التّفريق بين تعليم النّحو والبحث فيه** [2].

لقد اقتضت الضّرورة التّعليميّة منذ القدم إلى يومنا هذا، التّفريق بين النّحو الّذي يصلح أن يكون نموذجا لتعليم النّاشئة، أو الرّاغبين في تعلّم العربيّة، والذّي أطلق عليه النّحو التّعليميّ، والنّحو العلميّ الّذي يكثر فيه التّجريد والتّحليل والاستشهاد والتّعليل.

فالمشتغلون في ميداني اللّغة والنّحو أشاروا إلى هذا التّقسيم، وأقرّوا بوجود نحوين،واحد تعليميّ وآخر علميّ.

لأنّ غاية البحث النّحوي كما يقول أبو المكارم : " رصد لكافّة الظّواهر النّاتجة عن تركيب الكلمات والمركّبات في الجملة من خلال تحليل استقرائي لنصوص اللّغة المقصود وضع القواعد النّحوية لها مع ما يتطلّب ذلك من تصنيف وتفسير.وأمّا التّعليميّ فأمره مختلف، إذ أنّ مهمّته تحدّد في تمكين المتعلّم من إدراك الظّواهر اللّغوية المطّردة الوجوه النّاتجة عن تركيب الجملة العربيّة والوعي بضوابطها، ثمّ التمرّس باستعمال هذه الضّوابط في تحديد ما بداخلها من علاقات"[3].

(1) حسن عون : اللّغة والنحو ، دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة ، ص 52 .

(2) المرجع نفسه ، ص 21 .

(3) علي أبو المكارم : تعليم النّحو العربي ، ص 21 .

إذا تتبّعنا رأي القدماء نجد أنّهم لم يفرّقوا بينهما صراحة، بل يظهر ذلك من خلال الملاحظات والتّوجيهات التي كانت تقدّم، والمؤلّفات النّحوية التي توالى تأليفها من أجل قضّية واحدة وهي تيسير النّحو العربيّ لدارسيه.

أمّا المحدثون فقد فرّقوا بينهما صراحة، فأعطوا لكلّ منهما تعريفه. فالنّحو التعليميّ (Grammaire pédagogique) عندهم:"..... يمثّل المستوى الوظيفيّ النّافع لتقويم اللّسان، وسلامة الخطاب، وأداء الغرض، وترجمة الحاجة، فهو يركّز على ما يحتاجه المتعلّم، يختار المادة المناسبة، من مـجموع ما يقدّمه النّحـو العلميّ، مع تكييفها تكييفا محكما طبقا لأهـداف التّعليم، وظروف العمليّة التّعليميّة [1] .

أمّا النّحو العلميّ التّحليليّ (Grammaire scientifique analytique) :" فيقوم على نظريّة لغويّة تنشد الدّقة في الوصف والتّفسير،وتتّخذ لتحقيق هذا الهدف أدّق المناهج، فهو نحو تخصّصيّ ينبغي أن يكون عميقا مجرّدا، يدرس لذاته، وتلك طبيعته "[2] .

في نفس الموضوع أدلى الكثيرون بآرائهم حول طبيعة كلّ نحو وهدفه وطريقة تقديمه، فهذا الخوري يوسف داوود الموصلي يقول :" واعلم أنّ النّحو صناعة وعلم، فمن كونه صناعة يكسب صاحبه ملكة الصّواب في التكلّم، ومن حيث هو علم يوقفه على معرفة حقيقة قواعد النّحو وضوابطه، ونظامها المنطقيّ، وما بين بعضها بعض من النّسبة والعلاقة، فعلم النّحو نظريّ، وصناعة النّحو عمليّة. وعلم النّحو خاصّ بالعلماء قد تستغني عنه العامّة، وأمّا صناعة النّحو فلا يمكن أن يستغني عنها أحد "[3].

فالموصلي يظهر العلاقة بين النّحوين ،كون الأوّل عبارة عن مجموعة من القواعد المستقاة أو المختارة من مدوّنة النّحو العام، والتي تصلح أن تشكّل قاعدة صلبة لعمليّة تعليميّة تربويّة.

(1) محمّد صاري : تيسير النّحو موضة أم ضرورة ، مجلّة الدّراسات اللّغويّة ، مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة ، المجلّد الثّالث ، العدد الثّاني ، جويلية ، سبتمبر ، 2001 .

(2) المرجع نفسه ، الصّفحة نفسها .

(3) الخوري يوسف داود الموصلي : التمرنة في الأصول النحوية ، دير الآباء الدومنيكيين ،ط 1 ، 1875 ، ج 1 ، ص 26 .

وقد صرّح عبد الرّحمن الحاج صالح بهذا التّعريف والّذي يصّب في نفس المصّب ليلفت انتباهنا إلى حقيقة مفادها التّفريق بين النّحوين إذ يقول :" ينبغي أن نميّز بين هذا النّحو العلميّ الّذي يكثر فيه التّجريد والتّحليل، والنّحو التّعليميّ الّذي لا يراد منه إلاّ الاستعانة به على تحصيل الملكة اللّغوية، إلاّ أنّ هذا النّحو هو نتيجة عن استثمار ما حقّقه النّحو العلميّ من جهة وعلم تدريس اللّغات من جهة أخرى "[1] .

في نفـس السّياق يستكمل حسن عون شرحه لهـذه القضيّة المتعلّقة بالفروق الموجودة بين اللّغة باعتبارها الوعاء الّذي نشأ فيه النّحو وهذا الأخير(النحو) ما هو إلاّ مكوّن من مكوّناتها فيقول: "وإذن فنحن أمام نحوين ـ إن صحّ هذا التّعبيرـ نحو فنيّ ونحو علميّ، أمّا النّحو الفنيّ فهو جزء من اللّغة وعنصر أساسيّ من عناصر تكوينها كلغة راقية مهذّبة، وهو في نشأته في اللّغة يكاد يكون فطريّا و إن كان الأساس في وجوده هو المجهود العقليّ. فإنّ اللّغة بعد أن تتجاوز مرحلة الطّفولة ويبدأ العقل يتصرّف فيها من حيث الاشتقاق، والنّحت والتّصريف، ثمّ من حيث التّراكيب ووضع الضّوابط المميّزة بين هذه التراكيب بالنّسبة لأدائها للمعاني، تجد نفسها مضطرّة بحكم مسايرتها لظروف المجتمع إلى التزام بعض الضّوابط لتمييز بعض التّراكيب عن بعضها، ولمعرفة وظيفة كلّ لفظ بالنّسبة لموقعه من الجملة، هذه الضّوابط في صورتها الأولى هي عبارة عن النّحو الفنيّ، وهو كسائر الفنون يسبق النّحو العلميّ ؛ ففنّ الهندسة أو الهندسة العمليّة وجدت قبل أن يوجد علم الهندسة، وفنّ النّحت وجد قبل أن توجد النّظريات العلميّة له، وفنّ الموسيقى وجد قبل أن تسجّل نظريّاتها العلميّة....." [2].

رابعا :**تحديد اللّغة** :

الّذي ينبغي الانتباه إليه، هو تحديد اللّغة التي ينهض النّحو بدراسة مستوى من مستوياتها ـ حسب رأي علي أبي المكارم ـ إذ لا بدّ من التّفريق بين الفصحى واللّغات واللّهجات

(1) عبد الرّحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية ، ج 2 ،ص 43

(2) الخوري يوسف داود الموصلي : التمرنة في الأصول النّحوية ، ص 87 .

المعاصرة كون اللّغة التّراثية أصابها كثير من التّغيير والتّبديل[1]، لأنّ اللّغة كالكائن الحيّ تعرف نفس المراحل التي يسير عليها هذا الكائن،بحيث تكون جنينا ثمّ تنمو شيئا فشيئا فتشبّ وتهرم وقد تعمّر طويلا أو تتلاشى وتندثر حسب درجة الاستعمال. واللّغة العربيّة كما نقلنا عن عبّاس حسن، تعرّضت إلى نفس النّاموس، فكثير من مفرداتها تلاشت،كما عرفت انحصارا كبيرا من طرف لغات دخيلة سواء نتيجة الاستعمار الّذي عرفته البلاد العربيّة أو نتيجة البعثات العلميّة أو نتيجة العلاقات التي تعرفها الميادين المختلفة.

خامسا : **الفصل بين الصّعوبات الجوهريّة والعرضيّة في العمليّة** [2] :

إذ لابدّ من تحديد تلك الصّعوبات التي تعيق تعلّم المادّة النّحويّة وتصنيفها لمعرفة المتسبّب فيها إن كان المتعلّم أو المعلّم، أو المناهج المتّبعة، أو الظّروف المحيطة بالعمليّة التّعليميّة / التّعلّميّة أو صعوبات متعلّقة بالمادّة النّحويّة نفسها.

سادسا: **الأخذ في تعليم النّحو بمبدأي : فصل المجالات وتكامل المستويات** [3] :

أي لا بدّ من رعاية الفروق الأساسيّة التي ترافق المتعلّم في كلّ مستوى، سواء من ناحية الاختلاف في اللّغة الأم أو التّفاوت في الخبرة من حيث الكمّ و النّوع، فلكلّ مستوى منهجه والمحتوى الّذي يناسبه، زيادة على أنّ كلّ مرحلة لابدّ أن تخدم المرحلة التي تليها وتدعمها بمعنى أنّ كلّ مستوى يكون قاعدة متينة لما بعده.

سابعا : **التّفرقة بين تعليم النّحو للمتخصّصين وتعليمه لغير المتخصّصين** [4] :

وهذا الأمر يقودنا إلى نوع التّعليم المقدّم فكلّما توغّلنا في التّخصّص اختلفت المناهج وطرق وأساليب تقديم هذه المادّة النّحويّة،فالغايات والأهداف التي ينشدها الباحث المتخصّص تختلف كلّ الاختلاف عمّا يطلبه غير المتخصّص.

(1) علي أبو المكارم : تعليم النّحو العربي ، ص 15 .
(2) المرجع نفسه ، ص 22 .
(3) المرجع نفسه ، ص 24 .
(4) المرجع نفسه ، ص 25 .

1.2. النظرة إلى النّحو التّعليمي قديما :

ما كاد النّحو العربيّ يكتمل وتظهر صورته الأخيرة واضحة جليّة على أيدي علماء أجلاّء كالخليل بن أحمد وسيبويه، حتّى تعالت الأصوات، وارتفعت الصّيحات مطالبة بتيسير النّحو العربيّ وتبسيطه ليتمكّن طالبو العربيّة من الالتحاق بها، والناشئة من فهمها وسبر أغوارها. فمسالكه قد تشعبّت، وحقله قد توسّع بكثرة تحليلاته وتعليلاته واستشهاداته، لدرجة أنّ أهل الحنكة و الدّراية من الباحثين والعلماء قد أبدوا ملاحظاتهم، حول صعوبة وقفوا عندها، أو تطويل لا فائدة تطال منه.

فإشكاليّة تعليم اللّغة العربيّةاستمرّت في الوجود رغم كلّ الجهود التي بذلت، وهذا التّراجع لم يوقفه أحد حتّى و إن خفّفوا سرعته، فالبلدان التي فتحها الإسلام طالت المغرب والمشرق، والمسلمون الجدد قد أصبحوا أكثريّة، زيادة على هذا وذاك، فالنّحو لم يعد باستطاعته تدارك المشكلة لصعوبة المادّة ـ حسب رأيهم ـ و تراجع الإقبال على تعلّمه.

فالجاحظ من أولئك الّذين قدّموا نقدهم للنّحاة كونهم يغربون في كتبهم حتى يفيدوا نفعا مادّيا زائلا، فها هو يوجّه نقده إلى شيخ من شيوخ النّحاة، وهو أبو الحسن الأخفش قائلا:"...قلت لأبي الحسن الأخفش : أنت أعلم النّاس بالنّحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلّها؟ وما لنا نفهم بعضها، ولا نفهم أكثرها ؟ وما بالك تقدّم بعض العويص، وتؤخّر بعض المفهوم ؟ فقال : أنا رجل لم أضع كتبي هذه للّه، وليست هي من كتب الدّين، ولو وضعتها هذا الوضع الّذي تدعوني إليه قلّت حاجتهم إليّ فيها....وإنّما كسبت في هذا التّدبير، إذ كنت إلى التّكسّب ذهبت "[1].

فالنّحاة ـ في رأي الجاحظ ـ كانوا يتعمّدون طرح الصّعب من مسائلهم حتّى تكثر الحاجة إليهم، وبذلك يزيد كسبهم، وهذا ما زاد من تعقّد الإشكاليّة.

(1) صابر بكر أبو السّعود : في نقد النّحو العربيّ ، دار الثقافة للنّشر والتّوزيع ، 1988 ، ص11 .

فتغيّر الزّمان وانصراف النّاس إلى طلب الدّنيا، وابتعادهم عن طلب العلم لا يمكن أن يواجه بمسائل غريبة أو نصوص شائكة، بل لا بدّ من تقديم هذا العلم بشكل دروس سهلة ميسّرة حتّى تعمّ الفائدة.

فالتقعّر في الكلام، والغرابة في الألفاظ والنّصوص جعلت أهل العربيّة يثورون، فابن قتيبة من الذين حدّدوا المشكلة قديما، و قد عاب على أهل العلم تعقيدهم للأمر محاولا لفت أنظارهم إلى تقديم نصوص سهلة المنال مشجّعة على العلم، فها هو يصف نصّا لعيسى ابن عمر بقوله : " فهذا وأشباهه كان يستثقل و الأدب غضّ والزّمان زمان، وأهله يتحلّون فيه بالفصاحة، ويتنافسون في العلم، فكيف به اليوم مع انقلاب الحال؟ "[1].

ولم يقف الأمر عند ابن قتيبة أو الجاحظ فغيرهما كثير عبر مراحل لاحقة و أزمنة متعاقبة ممّن أدركوا أنّ الهوّة بين النّاس واللّغة تزداد اتسّاعا،واللّحن يزداد استفحالا،حتّى أصبح هذا الأخير مقدّما ـ في كثير من الأحيان ـ على الفصحى.

ملاحظة أخرى من ابن منظور (ت 711 ه) في مقدّمة لسان العرب يقول :"لمّا رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتّى أصبح اللّحن من الكلام يعدّ لحنا مردودا، وصار النّطق بالعربيّة من المعايب محدودا، وتفاصح النّاس بغير العربيّة، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفتخرون، وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون".[2]

ولو رجعنا إلى الملاحظات التي ما فتئ الجاحظ يقدّمها في هذا الشّأن، لوجدناه قد دعا صراحة إلى تبسيط النّحو للنّاشئة، وانتقاء ما يلائم هذه الطّبقة من المتعلّمين ـ إن صحّ التّعبير ـ وكأنّي به يشير إلى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار مسألة المستويات التّعليميّة، وينظر إليها نظرة مستبصرة واعية.فتعليم الصّبي يحتاج إلى نوع من النّحو يختلف عمّا يقدّم إلى الطّبقات العليا.

---

(1) ابن قتيبة عبد الله بن مسلم : أدب الكاتب ، تح : محمد محي الدّين عبد الحميد ، مطبعة السّعادة ، ط 4 ،(د ت) ، ص 13 .

(2) ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف ، تح : عبد الله الكبير وآخرون ، القاهرة ، (د ت) ، ج 1 ، ص 8 .

والنّص الّذي سنورده الآن يظهر هذه المسألة، يقول الجاحظ :" أمّا الصّبي فلا تشغل قلبه إلاّ بقدر ما يؤدّي به إلى السّلامة من فاحش اللّحن، ومن مقدار جهل العوامّ في كتاب إن كتب، وشعر إن أنشد، وشيء إن وصف، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عمّا هو أولى به، ومذهل عمّا هو أردّ عليه منه من رواية المثل والشّاهد والخبر الصّادق، والتّعبير البارع ".[1]

فالحال لم يقتصر على إبداء الملاحظات ونقد طرق عرض المسائل النّحوية، وما يعتريها من صعوبات وغموض، بل موازاة مع ذلك طفق النّحاة يؤلّفون المختصرات النّحويّة بغية تقريب القواعد النّحويّة من النّاشئة تيسيرا للعمليّة التّعليميّة.

ومن هذه المختصرات على سبيل المثال لا الحصر ما أورده علي أبو المكارم في كتابه تعليم النّحو العربيّ عرض وتحليل في فصله الأوّل الموسوم " مصنّفات النّحو التعليميّ (من منتصف القرن الثّاني حتى منتصف القرن التّاسع) : " المختصر، جامع النّحو الصّغير،المدخل في النّحو، المهذّب في النّحو، الموفقي في النّحو، المنمّق في النّحو، الموجز في النّحو، الجمل في النّحو، رياضة الألسنة في إعراب القرآن ومعانيه، الإقناع في النّحو، المقدّمة في النّحو، الواضح في النّحو،الإيجاز في النّحو،مختصر العربية، اللّمع، المدخل الصّغير في النّحو، المسائل المنثورة في النّحو، الحقير النّافع في النّحو، المقدّمة النّحوية، العوامل المائة في النّحو، الجمل،الإيضاح، التّلقين في النّحو، مختصر إبراهيم، ملحة الإعراب، النّموذج في النّحو، التّرشيح في النّحو،النّموذج في النّحو، الأحاجي النّحوية، المنتظم في سلوك الأدوات، تقويم اللّسان في النّحو، الرّياضة في النّكت النّحوية، الوجيز في التّصريف.....إلخ "[2].

أردنا من ذكر هذه المختصرات أن نشير إلى تعدّد العناوين وإن كانت العناوين باسم المختصر كثيرة جدّا، وكذا المقدّمة، والمدخل...، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على شعور أولئك النّحويّين بأهميّة تقريب المسألة النّحوية من شداتها.

(1) الجاحظ : كتاب المعلم (مجموعة رسائل الجاحظ) ، مطبعة التقدّم ، مصر ، ط 1 ، (د ت) ، ج 3 ، ص 88 .

(2) علي أبو المكارم: تعليم النحو العربي ، ص 31 -43.

لكن كثرة التّآليف قد يراها البعض مؤشّرا إيجابّيا على اهتمام النّاس بمسألة تعليم النّحو، وعلى تطوّر الحركة التّعليميّة بصفة عامّة، إلاّ أنّ هناك من يبدي تحفّظه من هذه الكثرة ذاكرا بعض المساوئ و العيوب.

فابن خلدون له رأي واضح في كثرة التّآليف وطريقته في النّحو وغيره، وعلاقة ذلك بالتّعليم، فقد تحدّث في أكثر من فصل في مقدّمته عن ذلك، وقد خصّص فصلا في ذلك موضوعه " أنّ كثرة التآليف في العلوم عائقة في التّحصيل ".[1]

يقول ابن خلدون في هذا الشّأن :" اعلم أنّه ممّا أضرّ بالنّاس في تحصيل العلم، والوقوف على غاياته كثرة التّآليف، واختلاف الإصلاحات في التّعليم وتعددّ طرقها ". [2]

ولا يتوقف الأمر عند كثرة التآليف والتي عدّوها عيبا في حدّ ذاتها بل تعدّاها إلى السّلبيات التي تعزى إلى الاختصارات، فضرّها أكثر من نفعها، والسّبب يعود إلى الضغط الّذي تسبّبه للمتعلّم نتيجة الخلط على المبتدئين خاصّة، وحشو المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وقلّة الأمثلة والتّكرار والإحالة المفيدة في التّعليم.

وابن خلدون يشير إلى أنّ المتأخّرين هم الّذين يعمدون إلى ذلك فيقول :" وهو فساد في التّعليم وفيه إخلال بالتّحصيل، وذلك لأنّ فيه تخليطا على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعدّ لقبولها وهو من سوء التّعليم كما سيأتي، ثمّ فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلّم بتتبّع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأنّ ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظّ صالح من الوقت.ثمّ بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التّعليم من تلك المختصرات إذا تمّ على سداده ولم

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، ج 2، ص 344 .

(2) المرجع نفسه ، ص 344 .

تعقبه آفة، فهي ملكة قاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطوّلة لكثرة ما يقع في تلك من التّكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التّامة ".[1]

وقد ضرب أمثلة كثيرة في هذا الفصل من كتب الفقه والنّحو ترى فيها كثيرا من الخلاف بين المذاهب والطّرق، وعديدا من الشّروح على الكتاب الواحد، واتّساعا في الفروع والاستدلالات، وكثرة بمرور الزّمن وتعدّد المشتغلين بالعلم وهي كما قال :" متكرّرة والمعنى واحد، والمتعلّم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينها، والعمر ينقضي في واحد منها.ولو اقتصر المعلّمون بالمتعلّمين على المسائل المذهبّية فقط، لكان الأمر دون ذلك بكثير، وكان التّعليم سهلا، ومأخذه قريبا.ولكنّه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه "[2] .

و لا ينبغي أن ننهي هذا الموضوع (النّحو التّعليميّ قديما) دون التّطرّق إلى الزّوبعة التي أثارها ابن مضاء القرطبيّ، ودعوته إلى إعادة هيكلة النّحو العربيّ.

فقد دعا صراحة إلى إلغاء وهدم أهمّ ركيزة من ركائز النّحو العربيّ، ألا وهي نظريّة العامل، إيمانا منه بأنّها لا تفيد النّحو شيئا،يقول في هذا الشّأن :" قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النّحو ما يستغني النّحويّ عنه، وأنبّه على ما أجمعوا على الخطأ فيه، فمن ذلك ادّعاؤهم أنّ النّصب والخفض والجزم لا يكون إلاّ بعامل لفظيّ، وأنّ الرّفع منها يكون بعامل لفظيّ وبعامل معنوي، عبّروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا:(ضرب زيد عمرا) أنّ الرّفع الذي في زيد والنّصب في عمر، إنّما أحدثه (ضرب) وذلك بيّن الفساد ".[3]

وقد استدّل ابن مضاء على فساد نظريّة العامل- حسب زعمه- حين قسّموا العوامل المحذوفة إلى ثلاثة أقسام[4]:

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، ج 2، ص 346 .

(2) المرجع نفسه ، ص 344 .

(3) ابن مضاء القرطبي : الرّد على النّحاة ، تح : شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ، (د ت) ،ص 24 .

(4) المرجع نفسه ، ص 26 .

القسم الأوّل : حذف لعلم المخاطب به، كقوله تعالى :﴿ وقيل للّذين اتقّوا ماذا أنزل ربّكم، قالوا خيرا ﴾ [1]. يعني أنزل خيرا.

القسم الثّاني : حذف والكلام لا يفتقر إليه، مثل (أزيدا ضربته ؟)، فإنّ النّحاة يقدّرون عاملا محذوفا عمل النّصب في (زيدا) وهو عامل يفسّره الفعل المذكور على نحو ما هو معروف في باب الاشتغال، ويحمل ابن مضاء على هذا التّأويل الذي لا يمكن أن يكون المتكلّم قد قصد إليه، ويرى أنّ الّذي دعا النّحاة إلى ذلك هو قاعدتهم التي وضعوها في باب العامل،وهي أنّ كلّ منصوب لا بدّ له من ناصب.

القسم الثّالث : وهو أكثر عنتا من القسم الثّاني، إذ نرى النّحاة يقدرون عوامل محذوفة في عبارات، أو أنّها أظهرت لتغيير مدلول الكلام، كتقديرهم في باب النّداء، أنّ النّداء في مثل(يا عبد الله) مفعول به لفعل محذوف تقديره (أدعو) ولو قال المتكلّم (أدعو عبد الله) لتغيّر مدلول الكلام وأصبح خبرا بعد أن كان إنشاء.

ولم يقف ابن مضاء عند إلغاء نظريّة العامل بل دعا إلى إلغاء العلل الثّواني والثّوالث. وهو ثاني أساس، ليريح ـ في نظره ـ النّاس من هذه التّعقيدات.

يقول ابن مضاء في هذا الشّأن :" وممّا يجب أن يسقط من النّحو، العلل الثواني والثّوالث، وذلك مثل سؤال السّائل عن (زيد) من قولنا (قام زيد) لم رفع ؟.

فيقال : لأنّه فاعل وكلّ فاعل مرفوع، فيقول : ولم رفع الفاعل ؟ فالصّواب أن يقال له : كذا نطقت به العرب(....)ولو أجبت السّائل عن سؤاله بأن نقول له : الفرق بين الفاعل والمفعول، فلم يقنعه، وقال : فلم لم تعكس القضيّة بنصب الفاعل ورفع المفعول ؟ قلنا له : لأنّ الفاعل قليل، فلا يكون للفعل إلاّ فعل واحد، والمفعولات كثيرة، فأعطي الأثقل الّذي هو الرّفع للفاعل،وأعطي الأخفّ الّذي هو النّصب للمفعول، ليقلّ في كلامهم ما يستثقلون، ويكثر

(1) سورة النحل، الآية 30.

في كلامهم ما يستخفّون، فلا يزيدنا ذلك علما بأنّ الفاعل مرفوع، ولو جهلنا ذلك لم يضرّنا جهله، إذ صحّ عندنا رفع الفاعل الّذي هو مطلوبنا باستقراء المتواتر الّذي يرفع العلم ".[1]

قدّم ابن مضاء أمثلة عن التّعليلات وتعقيداتها والتي لا تقدّم حسب رأيه في معرفة المسائل النّحوية شيئا، وعليه فإلغاؤها واجب.

والأساس الثّالث الّذي طالب بهدمه هو القياس، يذكر شوقي ضيف أنّ ابن مضاء دعا إلى إلغاء هذا الرّكن وقد وقف عند أمثلة له ليبيّن فساده، وبدأ بتعليلهم لإعراب الفعل المضارع، فإنّهم يذهبون إلى أنّه أعرب لشبهه بالاسم أو بعبارة أدقّ كقياسه على الاسم، فالأصل في الاسم الإعراب، والفعل فرع، وهي فرعيّة يأخذها الفعل لعلّتين : الأولى أنّه يكون شائعا فيتخصّص مثل الأسماء،فإنّ كلمة (رجل) تصلح لجميع الرّجال،فإذا قلت(الرّجل) اختصّ الاسم بعد أن كان شائعا وهذا نفسه نراه في الفعل المضارع.

فإنّ كلمة (يذهب) تصلح للحال والاستقبال، فإذا قلنا (سوف يذهب).اختص الفعل بالمستقبل بعد أن كان شائعا.

والعلّة الثّانية هو لام الابتداء، إذ تدخل على المضارع كما تدخل على الاسم، فتقول :(إنّ زيدا ليقوم)، كما تقول : (إنّ زيدا لقائم)، وهاتان العلّتان تتيحان أن يأخذ حكم الاسم في الإعراب" [2] .

أمر آخر طالب ابن مضاء بإلغائه كنتيجة حتميّة لما سبق وأن دعا إلى حذفه، ألا وهو إلغاء التّمارين غير العمليّة.

يقول شوقي ضيف مؤيّدا ابن مضاء :" وإذا كان من الواجب أن نلغي العلل و الأقيسة من النّحو حتّى نخلّصه من كلّ ما يعوق مسيره وانطلاقه، فكذلك يجب أن نلغي منه كلّ المسائل التي لا تفسّر صيغا نطق العرب بها، وعلى رأس هذه المسائل مسألة التّمارين غير العمليّة، ثمّ ساق

(1) ابن مضاء القرطبي : الردّ على النّحاة ، ص 36 .

(2) المرجع نفسه ، ص 37 ـ 38 .

المثال الّذي أورده ابن مضاء لهذه المسائل، وهو قول النّحاة : ابن من البيع على مثـال (فُعْل) فيقول قائـل :(بوع) أصله (بيع)فيبدل من الياء واوا لانضمام ما قبلها: لأنّ النّطق بها ثقيل، كما قالت العرب : موقن وموسر ومن الممكن أن يقول شخص آخر (بيع) محتجّا بأنّ الياء سكّنت وضمّ ما قبلها فقلبت الضمّة كسرة قياسا على (بيض وعين) في (بيضاء وعيناء).

ويقف ابن مضاء فيورد حجة لكلّ من القولين، ويبيّن أنّ هذه التّمارين شغلت النّحاة والنّحو بوجوه علل لا حاجة لنا بها سوى التّمرين فيما لا فائدة فيه، و أيّ فائدة نفيدها من صيغة (بوع أو بيع) التي لم تأت بها العرب.[1]

وعلى كلّ حال فدعوة ابن مضاء لم يكتب لها النّجاح ولم تلق آذانا صاغية إلى أن جاء شوقي ضيف و أراد أن ينفخ فيها الحياة علّها تجد من يأخذ بيدها ويطبّقها في عصرنا الحديث.

وختاما لما قلناه يمكن القول أنّ القدامى نظروا إلى مسألة تسيير النّحو نظرة مستبصرة، فلم يطالبوا بإلغاء أجزاء من النّحو، أو اختصار أبوابها، بل دعوا إلى حسن اختيار الموضوعات النّحويّة بما يعود على المتعلّم بالفائدة بأسرع وقت وأيسر طريقة، باستثناء ابن مضاء الّذي شرحنا دعوته قبل قليل.

يعبّر الدّكتور محمد صاري عن اتّجاه القدامى في عملية التّيسير قائلا :" إنّ تصوّر القدماء لموضوع التّسيير يختلف تماما عن تصوّر المحدثين، فالقدماء لم تكن بينهم خصومة تذكر حول هذا الموضوع، والتّبسيط في نظرهم وأعمالهم قائم على الانتقاء من جملة النّحو العلميّ، وتجنّب الإطالة والتعمّق في ذكر القواعد، والاستعانة على توضيحها بالأمثلة، والتّقليل من الشّواهد، والوقوف عند حدود العلّـة الأولى، وتجنّب الشاذّ والنّادر، والتّـمييز بين المستويـات العلميّة..."[2] .

(1) ابن مضاء القرطبي : الردّ على النّحاة ، ص 43 وما بعدها .

(2) محمد صاري : محاولات تيسير تعليم النّحو قديما و حديثا – دراسة تقويميّة في ضوء علم تدريس اللّغات – رسالة دكتوراه ، جامعة عنّابة ، 2003 .

ومن هنا ندرك أنّ اتّجاهات القدماء في تعليم النّحو الميسّر قد سلكت عدّة طرق من بينهـا :

1 ـ ازدراؤهم التّطويل وتشعيب المسائل النّحويّة، وكذا التّحليلات والتّعليلات المعمّقة وكثرة الاستشهادات.

2ـ انتقاء الموضوعات الصّالحة للتّعليم من مدوّنة النّحو العلميّ.

3 ـ التّوجه إلى التّأليف المختصر.

4ـ الدّعوة إلى التّفريق بين ما هو صناعة وما هو ملكة.

2.2. النّحو التّعليميّ من منظور المحدثين :

بعد أن تتبّعنا نظرة القدماء إلى النّحو وإشكاليّة تعليمه وتخليصه من التّعقيدات والتّحليلات التي لا تفيد في إيصاله إلى متعلّميه شيئا - حسب رأيهم- ، وبعد أن تتبّعنا الحركة التيّسيرية القديمة وكيف أنّها بدأت بالملاحظات لتتبع بتأليف المختصرات والمنظومات والأراجيز سوف نلقي نظرة على ما أسفرت عنه في بدايات العصر الحديث.

إذ لم تتوقف تلك المحاولات عند هذا الحدّ، بل تعدّدت واشتعلت بضراوة في بداية القرن العشرين على يد ثلّة من المنشغلين بالشّأن اللّغويّ، فالمتتّبع لواقع اللّغة في الأقطار العربيّة يلمس تدنّيا في الأداء على كل الأصعدة، لا من حيث الحديث والتّعبيرفقط بل من حيث الكتابة والتّحرير. فالنّاشئة لم تعد تتعاطى مع هذه اللّغة بشكل يسمح لها بتقديم نموذج لغويّ مقبول رغم كلّ الجهود التي بذلت سابقا ولاحقا، فالأسباب كثيرة بلا شك والهمّ واحد. وقد حاول المتخصّصون في هذا الشّأن أن يشخّصوا الدّاء ويذكروا الأسباب، وكانت محاولاتهم متفاوتة وآراؤهم مختلفة والتي بإمكاننا الإشارة إليها كما يلي :

1 ـ المعلّم : فهو الحلقة التي لولاها لما استطاع الطّالب أن يتفاعـل مع الدّرس النّحـويّ، فهذا العنصر يحمّلونه تارة المسؤوليّة الكاملة عن تردّي أوضـاع النّحـو، باعتباره لم يواكب التّطوّرات الحاصلة في حقل التّعليميّة، وكونه يفتقر إلى المنهجيّة الملائمة للتّعليم.

بل يعيبون عليه عدم قدرتـه وعدم كفاءته في هذا المجال باعتبار أنّ جلّ المعلّمين-على الأقلّ في الوقت الرّاهـن- هـم من الطّبقـة التي لم تواصـل تعليمها الأكاديميّ ومن الذين لم يتلقّوا تكوينا متخصّصا، وبالتّالي تبنّيها العمل في هذا المجال لا ينمّ عن رغبة وحبّ في هذا النّشاط، بل دفعهم إلى ذلك صعوبة الظّروف المعيشيّة وهكذا تنطبق عليهم المقولة : " فاقد الشّيء لا يعطيه ".

2 ـ المتعلّم : وهو الحلقة الثّانية وهي المعـوّل عليهـــا في تلقّي هـذا العلـم، واستعماله ونقله إلى الأجيال القادمة. فهذا المتلقّي غير قادر أو غير مهتمّ بهذا النّوع من التّعليم لعدّة أسباب: كصعوبة المادّة وعدم فهمها، أو أنّ النّحو لا يشكّل حافزا بالنّسبة إليه، فالعصر عصر تكنولوجيا وتقـدّم علميّ، ولغات هذه العلوم هي الانجليزية مثلا فما الفائدة من تعلّم العربيّة؟ أو هذا ما يحاول أن يقنع به نفسه.

3 ـ المجتمع العربي : الأقطار العربيّة تعرّضت إلى كلّ أنواع القهر والاضطهـاد، من طرف احتلال أوروبيّ غاشم لقرون عدّة، حاول من خلالها القضاء على كلّ ما يدعم الهويّة الإسلاميّة العربيّة، كنشر المسيحيّة وغلق المساجد والمدارس وتشجيع اللّغة الأجنبيّة لذلك المستعمر، بل تعدّت محاولاته إلى أبعد من ذلك وهو القضاء على كلّ ما يمتّ بصلة إلى الإسلام والعروبة.

فكلّ هذا الاستبداد انعكس سلبا على المجتمعات العربيّة بتأخّرها بقرون عديدة عن ركب الحضارات، و كذا انحطاط لغتها، إذ أصبحت عبارة عن مزيج من اللّغات واللّهجات الرّكيكة أقل ما يقال عنها أنّها لا تستطيع أن تبني حضارة أو علما.

والأخطر من ذلك أنّ هذا الغرب الظّالم قد أنتج لنا جيلا تابعا يدافع عن لغة الاستعمار، بكلّ ما أوتي من قوة وعزم داعيا إلى الثّورة على كلّ ما هو قديم، والتمسّك بكلّ آت من وراء البحار باعتباره التقدّم والتطوّر والازدهار.

4 ـ الحكومات العربية : باعتبارها المسؤول الأوّل عن حاضر الأمّة ومستقبلها، فبيدها أن تدعم هذا الملفّ وتدافع عنه بكلّ قوّة،وتقدّم له كلّ دعم، حتى ينمو ويترعرع في بيئة صالحة تثمر جيلا محّبا للغته،مستعملا إيّاها في كلّ المناسبات،مؤمنا بقدرة اللّغة العربيّة على منافسة كلّ اللّغات، وكيف لاوقد كانت عماد الحضارة العربيّة الإسلامية لقرون، وأداة للطّب والهندسة والفنّ والفلسفة وغيرها من العلوم. فالمجهود الّذي يقدّمه الحاكم هو الفيصل، لأنّه يغيّر بالسّلطان ما لايغيّر بالقرآن، فالاهتمام باللّغة العربيّة في المدارس والمؤسّسات وتشجيع لغة العلوم كفيل بأن يعيد لها رونقها وجمالها وقوتّها.

فلا يمكن أن تستعمل اللّغة في المجال التّربويّ دون غيره من المجالات، حتىّ إذا خرج الطّالب أو المتعلّم ـ بصفة عامّة ـ إلى أيّ مكان آخر تلاشت تلك القواعد والاستعمالات لأنّها لم تجد البيئة التي تحتضنها فتنمو وتزدهر.

إنّ اللّغة العربيّة في بيئتها الأصلية أيّام نشأة الّنحو،كانت توفر شروط الحياة ـ إن صح التّعبير ـ لأيّ متعلّم، وكفيلة بأن تعيد إلى حضنها كلّ شاذّ عنها، و بالتّالي يستطيع أن يصقل لغته ويصطفّ مع الآخرين، بدون أدنى جهد يبذل ؛أمّا اليوم فتلك البيئة قد تدهورت واللّغة قد أصابها الهوان نتيجة تعرّضها لمعاول الهدم من العدوّ والصّديق.

وفي الأخير يمكننا القول أنّ النّظرة إلى النّحو تختلف اختلافا رهيبا بين القدامى والمحدثين، فأسلافنا كانوا يجلّون العربيّة ويدافعون عنها ويفخرون بها، لأنّها لغة القرآن وبها نزل وإن اختلفت طرائقهم في تقديمهم لشتّى العلوم.

أمّا في العصر الّذي نعيشه، فالعربيّة تقاوم بشتّى الأسلحة وتجابه بكلّ الطّرق، وهو ما حال دون بلوغها المرتبة التي نريد، لأنّ السّياسات العربيّة لا تؤمن بالعربيّة كلغة تطوّر وعلوم، وحتّى الشّعوب العربيّة تنظر إليها نظرة ريب، إذ هي لغة التّخلّف والتّقهقر، وغيرها لغات التّطوّر،وعليه لا يهم إن تخلّينا عن تراثنا وتسابقنا لكسب ودّ تراث غيرنا، فالمهمّ أنّ التّواصل موجود، سواء أتكلّمنا بالعربيّة أو العامّيّة. والاستنتاج الّذي توصّل إليه الدّكتور محمد صاري مفاده : "... أنّ أسلافنا نظروا إلى مشكلة الضّعف النّحويّ نظرة واعية أدّت بهم إلى النّتائج المرضيّة، وقد ساعدهم في ذلك مستواهم العلميّ المقبول، وواقعهم الحيّ من حيث السّليقة، وطريقة معالجتهم للّصعوبات التي وقفت ضدّهم،أمّا المعاصرون فقد اختلفوا في المنهج ونظروا إلى المشكلة من مناح عدّة وهذا هو سبب ضعفهم وعدم قدرتهم على إيجاد الحلّ المناسب"[1].

لذلك لا يمكن للعربيّة أن يكون لها شأن، إلاّ إذا استعملها الطّبيب والمهندس والصّحفي والوزير والرّئيس والمرؤوس وغيرهم، في كلّ المؤسّسات وفي كلّ المجالات، دون استثناء فيحدث ما يسمّى بالانغماس الكليّ.

5 ـ النّحو في حدّ ذاته : وهو مشكل لابدّ من بسط القول فيه لأنّ هناك من يرى أنّ النّحو بصيغته الحاليّة يقف حجر عثرة في سبيل تعلّمه وتلّقيه، لأنّه مليء بالفلسفات والتّعليلات والشّوائب التي لا تضيف في تعلّمه شيئا، وإنّ حذفها خير من تركها حتّى يسهل وتقبل عليه النّاشئة،هذا فريق، أمّا فريق آخر فيرى أنّ هذا الإجراء لا يغيّر الأمر ولا يذلّل الصّعوبات، فلا بدّ من خطوات جريئة تمس الهيكل العامّ للنّحو حتّى يستعيد نضارته وحيويته. ومن هنا وقع الخلاف وكثرت الفروق وارتفع الجدل واللّغط دون الوصول إلى نتيجة ملموسة.

(1) ينظر : محمد صاري : إصلاح النّحو ترف أم ضرورة (الملخّص) ، ص07.

إنّ المنادين بتيسير النّحو المعاصر لم يتّفقوا على تعريف واحد للتّيسير، فقد تشعّبت مذاهبهم وانقسموا شيعا وطرائق قددا،وبذلك استطاعوا أن يجدوا لأنفسهم مجالا للاختلافات كما كان لغيرهم سابقا،السّبب الذي دفعهم إلى المطالبة بإعادة النّظر في النّحو ومشكلاته، حتّى الاصطلاحات تنوّعت واختلفت، فمن التّيسير إلى الإصلاح إلى التّجديد إلى التّبسيط إلى التّقريب إلى غير ذلك من المصطلحات التي صاحبت حركة التّيسير وتوجّهات الفرق.و لاشكّ أنّ الهدف واحد، وهو تقريب النّحو من مريديه بكلّ طريقة يرونها تخدم العمليّة، سواء بإعادة النّظر في القواعد النّحوية القديمة وطرحها بأسلوب تعليميّ بسيط، أو تخليص النّحو من كلّ شائبة قد تعوق عمليّة التّعليم، أو إخضاع النّحو للنّظريات التّربويّة الحديثة التي ظهرت في ظلّ البحوث اللّسانية من عهد دي سوسير إلى اليوم.

من هذه المنطلقات راح هؤلاء المطالبون بالتّيسير في عصرنا الحديث يبحثون عن خطوات جريئة لحلّ هذه المعضلة- حسب اعتقادهم- وانقسموا في ذلك فرقا كثيرة، كلّ فرح بما لديه، يصف المشكلة من وجهة نظره ويدافع عنها بالحجج والبراهين التي يراها مناسبة وتخدم نظريّته.

ويمكن القول أنّ المحاولات المعاصرة لتيسير النّحو العربي انقسمت إلى ثلاثة أقسام سنحاول التّعليق عليها حتّى يتبيّن الخطّ الأبيض من الأسود [1].

ـ **الفريق الأوّل** : يعترف بوجود مشاكل تقف في طريق تلقّي النّحو، لكنّه لا يسمح بالمساس ولو جزئيا بهيكل النّحو، إذ هو عموده الفقريّ وأي زحزحة لأيّ فقرة من فقراته يتصدّع ويتهاوى. فالمشكلة حسبه لا يمكن حلّها بهذا الإجراء، فالأعباء يتحمّلها المعلّمون والمتعلّمون على حدّ سواء، وفي اعتقاده يأتي الحلّ من خلال التّمسّك أكثر بالنّصوص القديمة والإقبال عليها إقبال

(1) ينظر : عبد الله عويقل السّلمي:محاولات التيسير النّحوي (دراسة تاريخية نقدية)،مجلة جامعة الملك عبد العزيز للآداب والعلوم الإنسانية، جدة ، 1430 هـ/ 2009 م ، م ج 17 .ص 328 .

النّحل عـلى الزّهر. فمعالجة المشكلة يتّم من داخل اللّغة نفسهـا لا بحذف شيء منهـا أو المساس بحدودها أو التّفريط بقاعدة واحدة من قواعدها[1] .

يرى ابن خلدون هذا الرّأي حيث يقول : "ووجه التّعليم لمن يبتغي هذه الملكة، ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن، والحديث وكـــلام السّلـف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المولّدين أيضا في سائر فنونهم، حتّى يتنزّل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم، ولقنّ العبارة عن المقاصد منهم، ثمّ يتصرّف بعد ذلك في التّعبير عمّا في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم، وما وعـــاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمـــال ويزداد بكثرتها رسوخا وقوّة ".[2]

فمن خلال رأي ابن خلدون نستشفّ الأسلوب الأمثل في تعلّم العربيّة ممثلة في نحوها ـ فحسبه ـ لا يتأتّى لنا ذلك إلاّ تشرّب النّصوص التّراثيّة. من مخاطبات وأشعار وأسجاع، وغيرهـــا من الأداءات اللّغويّة حتّى الثّمالة، لتصبح لدينا فيّما بعد القدرة على التّعبير حسب المنهاج الّذي ساروا عليه.

يقول الرّافعي : " إنّ الإصلاح اللّغويّ يكون بترتيب الموضوعات، لا بحذفها و لا بنقص شـيء منها، بل وتركها على ما هي عليه من الأحكام والأوضاع والتّراكيب والاتّساع للمفردات ولو أقبلت كأعناق السّيل، وإنّما ينقصها فقط رجال يعملون ويحسنون إذا عملوا ".[3]

إنّ هذا الفريق ينظر إلى اللّغة على أنّها "مملكة، وأي مساس بقواعدها أو حديث عنها، أو إعادة نظر في أبوابها، أو حذف شيء من مسائل النّحو وأبوابه هو فتح باب الإفساد، بمثابة منح

(1) عبد الله عويقل السّلمي:محاولات التيسير النّحوي ، ص 331 .

(2) ابن خلدون : المقدّمة ، ج 2، ص 435 .

(3) الرّافعي مصطفى صادق : تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط 7 ، (د ت) ،ص 59 .

قاعدة استعماريّة تبتدئ بالتّسامح للمستعمر بأخذ الشّيء القليل،ثمّ تنتهي بالسّيطرة على كلّ شيء ".[1]

والخلاصة أنّ اتخاذ التّراث اللّغويّ نموذجا يحتذى به، هو السّبيل الوحيد لإعادة هيبة النّحو ومصداقيّته في النّفوس، فهو يربط حاضر ومستقبل الأجيال بماضيها وجذورها.

أمّا **الفريق الثاني** : وهو الفريق الّذي تتراوح أفكاره بين الأصالـــة والتّجديد فهو يرى أنّ الحل ليس بتبنيّ الجديد جملة وتفصيلا، والتمرّد على كلّ ما هو قديم تراثيّ، بل لا بدّ ـ حسب رأي أصحابه ـ من النّظر إلى العوامل المحيطة، والأنساق الثّقافية والمعرفيّة المعاصرة، فالحل يكمن في الرّبط بين التّراث والمعاصرة، يقول الدّكتور كمال بشر في حديثه عن الإصلاح اللّغوي: " إنّ هناك وسيلتين تستطيعان إصلاح حالنا اللغّويّ، أمّا الوسيلة الأولى : فتتمثّل في العودة إلى الفصحى، وأخذها منطلقا وأساسا للبناء، والاهتمام بالفصحى لا يعني تلقين قواعدها منعزلة عن مادّتها، وإنّما يعني الاعتناء بالعوامل المحرّكة لها، والوسيلة الثّانية، النّظر في بنائها الثّقافي بالعمل على تجويده... ".[2]

وهذا الفريق أيضا يرى أنّ النّحو بحاجة إلى تبسيط وتيسير فنادى أن تحذف بعض الأبواب التي تبدو صعبة ويعسر استيعابها، واقترح آخرون بالتخلّص من الإعراب بتسكين أواخر الكلمات، ونادى آخرون بالتخلّص من العوامل أو التّقليل من العلل.

ينقل لنا عبد الله عويقل السّلمي قولا لمحمد محمد حسين في بحثه : قواعد تطوير اللّغة العربيّة، إذ يقول في هذا الشّأن : " تكلّم النّاس في صعوبة الإعراب الّذي يلحق أواخر الكلمات، فاقترح بعضهم التّخلّص منه جملة بتسكين أواخر الكلمات، واقترح بعضهم اختصاره بإسقاط

(1) عبد الله عويقل السلمي : محاولات التيسير النّحوي ، ص 338 .

(2) بشر كمال : علم اللغة الاجتماعي ، دار غريب ، القاهرة ، ط 3 ، 1997 م ، المدخل .

بعـض أبـواب اعتبروها غير أساسيّـة، وقـال آخرون : إنّ الصّعوبة ليست من الإعراب نفسـه، ولكنّها في القواعد التي تضبطه، ودعوا إلى إعادة النّظر في تبويب النّحو والصّرف.... "[1].

إذن هذا الفريق يتوسّط الحلقتين فهو لا يحبّذ التّمسّك بالقديم والمحافظة على التّراث بل يدعو إلى غربلته بحذف بعض الأبواب التي يراها غير مفيدة في العمليّة التّعليميّة وكذا إعادة ترتيبها وإجراء بعض التّغييرات الشّكليّة دون المساس بجوهر النّحو.

أمّا **الفريق الثّالث**: فقد نادى بإلغاء الإعراب والعوامل صراحة، كونها تناسب حقبة زمنّية تجاوزها الزّمن، وبالتّالي لم تعد تواكب الواقع الحضاريّ المعاصر، ولا تتكيّف مع البيئة الحديثة ومتطلّباتها. ويكمن الحل من منظورهم في اقتلاع المشكلة من جذورها والمتمثلّة أساسا في قواعد اللّغة العربية، بل ربّما شطّ بعضهم و نادى بإلغاء الفصحى جملة وتفصيلا.

ويعدّ هذا الفريق أكثر الفرق رفعا للصّوت، فقد نادى أصحابه صراحة بطرح نظريّة العامل والتّخلّص من الإعراب، وقد أطلق عليهم مصطلح الإحيائيّين باعتبار أنّهم راموا إحياء النّحو بعدما كان ميّتا أو هذا ما أرادوه. و هذه لم تكن من بنات أفكارهم فقد استمدّوها من دعوة ابن مضاء القرطبي التي أشرنا إليها سابــقا، لأنّ هنــاك من يرجع الأسباب الرّئيسيّة التي دفعت المطالبين بالتّيسير،إلى ظهور كتاب الردّ على النّحاة، كونه السّند الّذي اتّكأ عليه هؤلاء للإعلان عن نواياهم في تيسير النّحو [2].

فالمقصود بالاتّجاه الأحيائي تلك الدّعوات التي نادت بتيسير النّحو وتسهيله، واتّخذت من نقد التّراث وسيلة لاستخلاص مرتكزات نحويّة جديدة، مدّعية أنّ النّحو القديم اقتصر على أواخر الكلمات مهملا المعاني تماما، زيادة على كثرة أبوابه وتشعّب تقسيماته، فلا مانع عندهم من دمج أبواب وإلغاء أخرى.

(1) عبد الله عويقل السلمي : محاولات التيسير النّحوي ، ص 338 .

(2) المرجع نفسه ، ص 344 .

ولعّل أوّل المحاولات في هذا الشّأن مثلّها إبراهيم مصطفى في كتابه (إحياء النحو) سنة 1937، إذ عدّت المحرّك الأساسيّ للعمليّة؛ توالت بعدها المحاولات، إذ شهدت السّنوات التّالية له عدّة خطوات"كمحاولة وزارة المعارف المصرية(1937م)، ومحاولة أمين الخولي(1943م)، وشوقي ضيف(1945م) وعبد المتعال الصعيدي(1947م)،وعبد الرحمان أيوب، وغيرهم " [1].

ولعّل من الأنسب لهذا البحث أن يتعرّض لبعض الملاحظات أو الأفكار التي أرادها (إبراهيم مصطفى) في كتابه إحياء النّحو. فلفظ (الإحياء) دلالة على أنّ النّحو قد أصابه الموات، وعليه جاء هذا الكتاب لإصلاحه وتيسيره، بعدما ابتعد النّاس عنه لصعوبته، وضجرهم من قواعده، وعدم قدرتهم على تحصيله، وبالتّالي استبدال الأصول الأولى بأصول بديلة سهلة ميسّرة وتغييـر منهج البحث النّحويّ للّغة العربيّة.

ورأى أنّ ربط الإعراب بالمعنى، طريق يهتدي به المتكلّم في كلامه إلى وجـه مـن الإعــراب للمعنى. وسبب الخلاف بين النّحاة عدم تصوير حركات الإعراب للمعنى،فالنّحاة – حسبه- قد قصّروا النّحو على أواخر الكلمات فيكونون قد ضيّقوا من حدوده الواسعة.يصف إبراهيم مصطفى مسعاه هذا من خلال مقدّمة كتابه، إذ يرجع الدّافع الّذي أدّى به إلى سلوك هذا المسلك، والهدف الّذي يريد الوصول إليه إلى صعوبة هذا النّحو، فيقول : " كان السّبيل موحشا شاقّا، وكان الإيغـال فيه ينقض قواي نقضــا ويزيدني من النّاس بعدا، ومن التقلّب في هذه الدّنيا حرمانا. ولكـنّ أملا كان يزجيني ويحدو بي في هذه السّبيل الموحشة، أطمع أن أغيّر منهج البحث النّحويّ للّغة العربيّة، وأن أرفع عن المتعلّميــن إصر هذا النّحو، وأبدّلهم منه أصولا سهلة

(1) عبد الوارث مبروك : في إصلاح النّحو العربي ، دراسة نقدية ، الكويت ، ط 1 ، 1406 هـ /1985 م ، ص 87 .

ميسّرة، تقرّبهم من العربيّة، وتهديهم إلى حظّ من الفقه بأساليبها" [1]. وقد لخّص أسس نظريته لتحديد معاني الإعراب في مقدّمة كتابه، وجعلها في الأصول التالية :[2]

أوّلا : إنّ الرّفع علم الإسناد، ودليل أنّ الكلمة يتحدّث عنها.

ثانيا : إنّ الجرّ علم الإضافة، سواء كانت بحرف أو بغير حرف.

ثالثا : إنّ الفتحة ليست بعلم على الإعراب، ولكنّها الحركة الخفيفة المستحبّة التي يحبّ العرب أن يختموا بها كلماتهم ما لم يلفتهم عنها لافت، فهي بمنزلة السّكون في اللّغة الدّارجة.

رابعا : إنكار تعدّد أوجه الإعراب في اللّفظ الواحد.

خامسا : العلم لا ينوّن.

سادسا : إنكار العلامات الفرعية.

ويمكن أن نلخص فكرته في الكلّيات التّالية [3] :

1 ـ الثّورة على العامل، وإرجاع التّأثير في حركات الإعراب للمتكلّم.

2 ـ ضمّ الأبواب النّحويّة ذات العلاقة تحت باب واحد.

3 ـ إعادة تنظيم التّوابع حيث ألغى بعضها وأضاف بعضا، يقول : " وباب العطف إذ ليس له إعراب خاص، وليس جديرا أن يعدّ من التّوابع، ولا أن يفرد بباب لدرسه "[4].

ومن الّذين كان لهم الباع الأكبر، والصّوت المرفوع ونادوا بملء فيهم بتيسير النّحو في بدايات القرن العشرين الدّكتور (شوقي ضيف)، فقد تعدّدت محاولاته وتنوّعت.

(1) إبراهيم مصطفى : إحياء النّحو ،دار الفكر، القاهرة ، ط 2 ، 1413 هـ/ 1992 م ، مقدمة المؤلف.
(2) المرجع نفسه ، المقدمة.
(3) المرجع نفسه ، المقدمة.
(4) المرجع نفسه ، ص 116 .

فنشره لكتاب (الردّ على النحاة) لابن مضاء القرطبيّ سنة 1947، وما يحمله من أفكار، كان الشّرارة التي فتحت باب الدّعاوى التّيسيرية -حسب رأي البعض- ومايحمله هذا الكتاب من أفكار كإلغاء نظريّة العامل وكلّ ما ترتّب عنها من صياغات وتقديرات، وأبواب وعلل وأقيسة وتمارين افتراضية، مهّد الطّريق أمام ظهور فرق تتجرّأ على النّحو تارة وعلى روّاده تارة أخرى، وإلى إلغاء النّحو في كثير من الأحيان، والاكتفاء بالعاميّة ما دام التّواصل ممكنا، أو إلى إعادة ترتيب وتنسيق أبواب النّحو على أقلّ تقدير.

ونظرة سريعة في مدخل هذا الكتاب تبيّن الأسس التي أرادها شوقي ضيف، فقد قدّم عدّة مقترحات- حسب رأيه- لتيسير النّحو العربيّ يمكن أن نجملها في ثلاثة أسس :" إعادة تنسيق أبواب النّحو، وإلغاء الإعرابين التّقديريّ والمحلّي، وأن لا تعرب كلمة لا يفيد إعرابها شيئا في تصحيح النّطق بها ".[1]

ولم يتوقف الأمر عند هذه المحاولة، بل قدّم مشروعا آخر سنة 1977 إلى مجمع اللّغة العربيّة، وأضاف إلى الأسس الثّلاثة السّابقة، أساسا رابعا ألا وهو: " وضع تعريفات وضوابط دقيقة لأبواب النّحو العسرة ".[2]

كما أضاف سنة 1981 أثناء إلقائه محاضرة عامّة بمؤتمر المجمع أساسين جديدين وهما : "حذف زوائد كثيرة في النّحو التّعليميّ بشروط وقواعد عقدة، وبإعرابات افتراضيّة مصنوعة، وزيادة نواقص ضروريّة في النّحو التّعليميّ، حتّى تتعرّف النّاشئة بوضوح على صحّة النّطق بالحروف والكلمات، وحتّى تحيط بتصاريف الأفعال مع الضمائر، وبدقائق كثيرة في أبنية الأسماء سوى ما ينبغي أن تقف عليه من تقاليد العربيّة في الذّكر والحذف، والتّقديم والتّأخير وصياغات الجملة الاسميّة والفعليّة وأنواع الجمل مستقلّة، وخاضعة غير مستقلّة ".[3]

وكانت له محاولات أخرى من خلال كتابه (تجديد النّحو)، إضافة إلى الأسس الستّة السّالفة الذّكر حتّى يتخذ كأصل لتعليم النّاشئة - حسب زعمه-.

(1) ينظر: شوقي ضيف : تيسير النّحو التّعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده ،دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ،(د ت) ، ص 5 .
(2) المرجع نفسه ، ص5 .
(3) المرجع نفسه ، ص 5 .

وفيه ألغى ثمانيـــة عشـــر بابا فرعيّا، ردّت أمثلتهـــا إلى الأبـــواب الأساسيّـــة، كإلغاء باب كاد وأخواتها، وإلغاء باب ما ولا ولات العاملات عمل ليس، وإلغاء باب الاشتغال والتّنازع وهذا على سبيل الذكر لا الحصر.

ومن محاولاته أيضا إصداره لكتاب (تيسير النّحو التّعليميّ قديما وحديثـــا مع نهج تجديده) فهو يقول في هذا المجال : " ورأيت دعما له وأداء لحقه ـ أن أؤلف هذا الكتاب الجديد لأزوّده بحشـــد من الدّراســـات والأدّلة المستقصية والمستأنية حتّى يستبين نهجي غاية الاستبانة، فيما رسمته فيه للنّحو التّعليميّ من تجديد وتيسير ".[1]

هذا ما أمكننا تلخيصه عن محاولات الفريق الثّالث مركزّين عن علمين من أعلامه كونهمـــا رائدين من روّاد المنهج الإحيائي.

وتجدر الإشارة إلى وجود فريق رابع لا هو مجددّ ولا بمحافظ، بل شذّ عن هذه الطـــرق وسلك طريقا مختصرة، شعاره فيها إلغاء الفصحى، ولسان حاله يقول : ما فائدة الفصحى، إذا كان التّواصـــل بالعامّيّة يفي بالغرض والغاية من اللّغة هي التّبليغ على كلّ حال.

وإذا كان لا بدّ من الردّ على هؤلاء فلا نجد أحسن من آراء بعض كتاب الغرب عن العربيّة الفصحى، فقد نقل لنا أنور الجندي في كتابه "الفصحى لغة القرآن" آراء بعض الكتّاب الأجانب عن اللّغة العربيّة الفصحى ومن بينهم الكـــاتب الفرنسي جاك بيرك (JACK BIRK) قوله : " **إنّ أقـــوى القـــوى التي قـــاومت الاستعمار الفرنسيّ في المغرب هي اللّغة العربيّة، بل اللّغة العربيّة الكلاسيكيّة الفصحى بالذّات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا، إنّ الكلاسيكيّة العربيّة هي التي بلورت الأصالة الجزائريـــة،وقد كانت هذه الكلاسيكيّة العربيّة عاملا قويّا في بقاء الشّعوب العربيّة** ".[2]

فالاعتراف بفضل العربيّة عندما يأتيـــك مـــن أجنبي مصنّف في قائمة أعداء العروبة محسوب على المستعمر، لا شكّ أنّه اعتراف موضوعيّ ينبع من نفس صادقة تدافع عن الحقّ أينما

(1) شوقي ضيف : تيسير النّحو التّعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده، ص6 .

(2) أنور الجندي : الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الموسوعة الإسلامية العربية ، العدد 10 ، (د ت)، ص304.

كان موضعه وقديما قالوا:الحقّ ما شهدت به الأعداء. كما أنّ الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ بل هناك من دعا إلى الدّفـــاع عنها، والوقـوف في وجـه المنادين بهدمها كونهم استسلموا إلى قوى الاستعمار، ونواياهم لا شكّ خبيثة.

يقول فتيجو : "على العرب أن يقاومـــوا الدّعايـــة المؤلمـة التي تطالبهم بالتخلّي عن شرفهـم وتقاليدهـم،وإبائهـــم، وأن يستسلمـوا إلى القـــوى المستعمرة ورؤوس أموال البنوك، وأن يخضعوا طريقتهم في التّفكير والعمل إلى تلك المدنية الزّائفة التي لا تؤمن بالله، وتطمح إلى إخضاع العالـم لجو من المختارات الأمريكيـة المكتوبـة بلغة إنكليزية سقيمة (.....) وليقاوم العرب ويثابروا فالعالم في حاجة إليهم، **وعلى العرب أن يتمسّكوا بلغتهم، تلك الأداة الخالصة من كلّ شائبة والتي نقلت الإنتاج الفكريّ العالميّ من غير محاولة نَقْصِه أو خَفْضِه ".**[1]

والسّؤال الّذي نطرحه في الأخير هو : هل حقّقت الحركة التّيسيريّة أهدافها ؟ والجواب حتما سيكون بالسّلب، والأسباب لا شكّ كثيرة ومن بينها :

انطلاق هؤلاء الدّارسين من رؤى مختلفة وتصوّرات قاصرة، فكلّ طرف يرى التّيسير من زاوية ضيّقة يراها هو دون غيره، وعليه فالبدائل التي قدّموها تبدو مشوّهة لا ترقى إلى المستوى المطلوب، والّذي أوقع أولئك في مثل هذه الأخطاء كما يرى الدّكتور محمد صاري هو اعتمادهم على المختصرات النّحويّة المتأخرة، وهذه المختصرات تعتريها بعض العيوب كما سَلَفَ وأنْ نَقَلْنَا عن ابن خلدون، وعـــدم الإفادة من البحوث التي أجريت في حقل اللّسانيات وعلم تدريس اللّغات، وبالتّالي لم يظهـــر فـي أعمال هؤلاء أدنى أثر لتلك الاختصاصات الحيويّة الحديثة، ممّا جعلهم يحصرون مجال دراستهم في الجانب النّحويّ المحض، ويصبّون جامّ غضبهم على النّحو دون غيره من العوامل التي قد تكـون أسبابا لا يستخف بها في التأخّر النّحويّ كعدم ملاءمة الطّريقة مثلا. فمحاولة الحذف العشوائيّ لبعض الأبواب وإلغاء بعض الأعمدة التي بني عليها النّحو، تشكّل انتحارا قد ينجّر عنـه ظهـور مسخ نحويّ إن صحّ التّعبير [2].

(1) أنور الجندي : الفصحى لغة القرآن ، ص 307 .

(2) ينظر : محمّد صاري : محاولات تيسير تعليم النحو قديما وحديثا ، ص 4 .

فأزمة تعليم النّحو في عيون النّظريّة الخليليّة الحديثة كما نقل عن عبد الرّحمن الحاج صالح: " لا تكمن في النّحو ذاته من حيث هو علم، وإنّما تجاهل المناهج المدرسيّة للطّرق الحديثة، في الانتقاء، والتّخطيط، والعرض والتّرسيخ وإهمال التمرّس اللّغويّ، والجانب التّرسيخي المنظّم في تعليم العربيّة، واقتصار المربّين والمعلّمين على الأنواع القليلة جدّا من التّمارين لاسيما التّحليلية (التي تخصّ الإعراب)، وفوق ذلك كلّه، اتخاذ النّحو والصّرف في صورتيهما النّظرية البحتة وسيلة مجرّدة من كلّ تكييف لإكساب المتعلّمين الملكة اللّغويّة، وإعطاء هذا الجانب من القواعد النّظريّة، والتّعليق عليها حصة الأسد"[1].

وكخلاصة لما قدّمناه يمكن أن نستنتج ما يلي :

1 ـ إنّ النّحو العربيّ وجد لغاية جليلة وهي تعليم العرب وغيرهم بعد انتشار اللّحن عقب الفتوحات الإسلاميّة، وبالتّالي حماية القرآن والسّنة من اللّحن والزّلل.

2 ـ لا بدّ من التّفريق بين ما هو نحو علميّ يعزى إلى المتخصّصين، وما هو نحو تعليميّ هدفه تعليم النّاشئة.

3 ـ ضرورة التّفريق بين اللّغة والنّحو، حتى نعي ما نعلّم، كون النّحو وسيلة مثلى لتعلّم اللّغة وحصول الملكة، دون إغفال الوسائل الأخرى.

4 ـ إنّ القدامى نظروا إلى إشكاليّة التّعقيد والتّطويل في النّحو نظرة موضوعية فلم ينادوا بحذفه أو هدمه، بل طالبوا بتحديد المستويات، وتأخير الصّعب وتقديم السّهل.

5 ـ اختلفت النّظرة إلى إشكاليّة النّحو بين محافظ، ومطالب بإعادة النّظر في هيكل النّحو وداع إلى هدم هذا الصّرح.

6 ـ لم تكن الدّعوات التّيسيريّة مصيبة في طرحها كونها لم تقدّم منهجا واضحا يمكن جعله منطلقا لإعادة النّظر في النّحو، بل نستطيع القول إنّهم استبدلوا جدلا بجدل آخر، فما كان يعاب على القدامى من اختلافات، أعادوه لنا في أشكال أخرى أدهى وأمرّ.

(1) ينظر : محمّد صاري : محاولات تيسير تعليم النحو قديما وحديثا ، ص5 .

الفصل الثاني : مظاهر النّحو التّعليمي في كتاب سيبويه

تمهيد :

بعد النّظرة التي ألقيناها على تاريخ ووقائع النّحو جملة من خلال ظروف نشأته والغاية من تعلّمه، ونظرة القدماء والمحدثين إليه. كون الأوّلين راموا إصلاحه بالطّرائق المتوفّرة لديهم، والتي لاحظوا بأنّها كفيلة بإعادة المتعلم العربي وغيره ممّن دخلوا في كنف الدّولة الإسلامية إلى حضن اللغة العربية بتقريب متبادل بين النّحو و هؤلاء. هذه الطرق كانت تتمثل أساسا في التخلّي عن كلّ ما هو صعب وتقديم السّهل ،وتأليف المختصرات والمنظومات النّحوية،والإكثار من الشّروح والحواشي، اعتقادا منهم أنّها السّبيل القويم والطريقة الموجزة لتعلّم كلام العرب وفقهه، في ظلّ انهيار متواصل للفصحى أمام تطوّر متنام للّحن .

بالمقابل أراد المحدثون تيسيره وتبسيطه بإعادة النظر فيه،سواء بحذف بعض أبوابه أو بعض أركانه، أو بالمحافظة على كيانه، والإبقاء على هيكله مع تكثيف نصوصه والسّير على خطى الأقدمين حفاظا على هذا الموروث الحضاريّ،أو بعرض هذا الصّرح على النّظريات اللّسانيّة الحديثة، للاستفادة من البحوث التّربويّة المنجزة في هذا المجال .

بعد هذا وذاك نحاول أن ننتقل إلى صلب موضوعنا، والمتعلّق أساسا بالنّحو التّعليميّ في كتاب سيبويه، ولكن قبل التّوغّل في بحر الكتاب لتتبّع اللّمسات التّعليميّة فيه؛ بدا لنا الخوض في جنَبات الموضوع متلمّسا بعض ما قيل في سيبويه ونحوه، كونه المعلّم والمتعلّم، والإشارة إلى تعليمه ولومن بعيد، أو الحديث عن نحوه من حيث هو تعليميّ أو علميّ أو هما معا، لنمرّ في الأخير إلى تتبّع الموضوعات التي نرى أنّها تعليميّة في صفحات الكتاب .

1. سيبويه ونشاطه العلميّ :

سيبويه فارسيّ الأصل، تلقى علومه الأولى بشيراز، وواصل ثقافته الدّينيّة بالبصرة حيث التحق بحلقات الفقهاء والمحدّثين وهو لا يزال فتى غضّا، فكان الحديث والفقه أوّل ما يدرس العلماء، وكان يستملي الحديث على حمّاد بن سلمة، قال القفطي:"وكان شديد الأخذ،فبينما هو يستملي قول النّبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ « ليس أصحابي إلاّ من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدّرداء» فقال سيبويه:" ليس أبو الدّرداء" وظنّه اسم ليس . فقال حمّاد : لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت ، وإنّما (ليس) هاهنا استثناء . فقال : لا جرم ، سأطلب علما لا تلحّنني فيه، فلزم الخليل فبرع " [1].

استطاع سيبويه أن يجمع أقوال من تقدّمه من العلماء الذين عاصرهم وأخذ عنهم كالأخفش والخليل ويونس وغيرهم..... فيما كان يدور من علم النّحو في الكتاب، إذ هو عبارة عن مناقشات ومحاورات ومناظرات تدور في مجالس العلماء وبلاط الحكّام والمساجد تخصّ الشّعر والأصوات واللّغة والنّحو. فالكتاب الذي ألّفه على غير مثال سابق يضمّ أبوابا في النّحو والصّرف والصّوتيات ومخارج الحروف، فهو دائرة معارف في اللّغة العربية.

إنّ الكتاب في هذه الحالة يعبّر عن نبع صاف يجد فيه البلاغيّ ضالّته من خلال تقسيم الكلام إلى : " مستقيم حسن، ومحال ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب"[2] كما يجد فيه الحديث عن الإيجاز والحذف وغيرها من الأبواب البلاغيّة .

زيادة على أنّه مورد الشّعراء والنقّاد من خلال تعرّفهم على الضّرورات الشّعرية كصرف ما لا ينصرف [3] ، وإشباع الحركة ليستقيم الوزن ، أو فك المدغم أو تضعيف الحرف إلى غير ذلك.

(1) سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر:الكتاب، تح:عبد السّلام محمد هارون،دار التّاريخ، بيروت ،ط 6،(د ت)،ج1،ص8.
(2) المرجع نفسه ، ص 49 .
(3) المرجع نفسه ، ص07-13 .

وهو مصدر للّغويين أيضا ليتعرّفوا على عدد الحروف في العربيّة ومخارجها والمهموس منها والمجهور، شديدها ورخوها ، وأحوال كلّ منها وإظهار الإطباق فيها ، " فقد وزّع سيبويه حروف العربيّة إلى ستة عشر مخرجا ، وتعرّض للهمز والإمالة وماله صلة بلهجات العرب ونحو ذلك .

وللقرّاء ضالّتهم أيضا ففيه أصول أحكام التّجويد والقراءة، كما يقدّم للنّحويّ أضخم مادّة علميّة في فنّ النّحو، حتّى إنّه لم تتح للمتأخّرين فرصة الزّيادة فيه إلاّ فيما ليس له خطرا"[1].

قال عنه صاعد الأندلسيّ :" لا أعرف كتابا ألّف في علم من العلوم قديمها وحديثها ، فاشتمل على جميع ذلك العلم ، وأحاط بأجزاء ذلك الفنّ غير ثلاثة كتب : أحدها المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك ، والثّاني أرسطاليس في علم المنطق ، والثّالث كتاب سيبويه البصريّ النّحوي، فإنّ كلّ واحد من هذه لم يشذّ عنه من أصول فيه شيء إلاّ من نظر له"[2].

لقد شغل سيبويه النّاس لفترة طويلة من الزّمن وفي قطاع جغرافيّ واسع ،فأسال علمه حبرا كثيرا ولا يزال إلى يومنا هذا ، وقيل عنه وعن نحوه الكلام الكثير ، فقد شبّهوا نحوه بالبحر، فكان يقال لكلّ من يريد نحو سيبويه هل ركبت البّحر ؟كناية عن صعوبته ،كما أطلقوا عليه مصطلح قرآن النّحو باعتباره لم يترك شاردة و لا واردة إلاّ سجّلها وناقشها بأسلوب علميّ راقٍ أعجز كلّ من عاصره .

قال عنه محمد بن يزيد :"لم يعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه، وذلك أنّ الكتب المصنّفة في العلوم مضطرّة إلى غيرها ،وكتاب سيبويه لا يحتاج في فهمه إلى غيره" [3].

(1) عوض حمد القوزي : المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن 3 هـ ، عمادة شؤون المكتبات ، الرياض ، ط 1 ، 1401 هـ/1981 م ، ص 124 .

(2) سيبويه : الكتاب ، ج 1، ص21 .

(3) المرجع نفسه ، ص 32 .

وقد لقّبوه بإمام النّحاة رغم حداثة سنّه ، يقول عنه الزّجاجي :" إذا تأمّلت الأمثلة من كتاب سيبويه تبيّنت أنّه أعلم النّاس باللّغة [1] ".

يقول أبو حيّان الأندلسي مثنيا على كتاب سيبويه، في مقدّمة تفسيره البحر المحيط ذاكرا حاجة المفسّرين إليه وكيف أنّ أهل الأندلس برعوا فيه :"وممّا برعوا فيه علم الكتاب، انفردوا بإقرائه منذ أعصار دون غيرهم من ذوي الآداب ،أثاروا كنوزه ،وفكّوا رموزه ،وقرّبوا قاصيه، وراضوا عاصيه، وفتحوا مقفله، وأوضحوا مشكله، وأنهجوا شعابه، وذلّلوا صعابه ،وأبدوا معانيه، في صورة التّمثيل، وأبدعوه بالتّركيب والتّحليل، فالكتاب هو المرقاة إلى فهم الكتاب ؛ إذ هو المطلع على علم الإعراب، والمبدي من معالمه ما درس ،والمنطق من لسانه ما خرس، والمحيي من رفاقه ما رمس، والرّاد من نظائره ما طمس، فجدير لمن تاقت نفسه إلى علم التّفسير وترقّت إلى التّحقيق فيه والتّحرير، أن يعتكف على كتاب سيبويه ،فهو في هذا الفنّ المعوّل عليه، والمستند إلى حلّ المشكلات إليه" [2].

كوّن سيبويه كتابه الضّخم من أقوال من سبقه من العلماء وممّا استنبطه هو بنفسه، فهو يعرض الآراء ويناقشها مبديا رأيه فيها بكل صراحة وحنكة فيقبل رأيا ويسنده ويؤيّده، ويرفض آخر مضعّفا إيّاه بالدّلائل والشّواهد والبراهين المستقاة من أقوال العرب وأشعارهم.

يقول **عبد العال سالم مكرم** عند حديثه عن مسيرة النّحو قبل سيبويه وكيف أفاد هذا الأخير منها: " وبهذه الدّراسات الضّخمة انتفع سيبويه ، فأفاد منها ، وألفّ كتابه الذي يعتبر بحقّ الكتاب العملاق في تاريخ النّحو العربيّ ، أعجز من قبله ، وعزّ على من بعده بما قدّم من دراسات حافلة في هذا المجال، وأصبح الكتاب نبراسا ينير الطّريق للدّارسين والباحثين، وعلى هديه تكوّنت مدارس النّحو. وعلى الأسس التي وضعها سيبويه لبناء النّحو العربي أقام النّحاة

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1، ص 34 .

(2) بدر بن ناصر البدر :اختيارات أبي حيّان النّحويّة في البحر المحيط ،مكتبة الرّشيد ،الرّياض ،1420/2000،ج1، ص869.

بناءهم الشّامخ وصروحهم الضّخمة ، ففاضت الكتب النّحويّة بهذا السّيل الذي لا ينقطع من الدّراسات والخلافات والتّعليلات والتّوجيهات ....." [1].

وكان سيبويه ينقل أقوال من سبقه بكلّ أمانة وصدق ،فلا تكاد تمرّ صفحة من صفحات الكتاب إلاّ وذكر هذه الآراء وما أكثرها .

فنجده ينقل أقوال أستاذه الخليل في مواضع كثيرة فيقول مثلا : " وزعم الخليل رحمه الله أنّهم يقولون : مطرنا الزّرع والضّرع " [2]. ويقول أيضا :" وزعم الخليل رحمه الله أنّ رجلا لو قال : أتميميّ ، يريد :" أنت" ويضمرها لأصاب " [3]. وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

كما يروي عن يونس وأبي الخطّاب وعيسى وغيرهم ، فيذكر قول يونس : " وزعم يونس أنّ من العرب من يقول : عائذ بالله ، يريد ، أنا عائذ بالله ، كأنّه أمر قد وقع ، بمنزلة الحمد لله وما أشبهه" [4]. وكذا في كثير من صفحات الكتاب .

2. موقع نحو سيبويه بالنسبة للدّارسين :

اختلف الدّارسون حول الزّاوية التي يشغلها نحو سيبويه ـ إن صحّ التّعبير ـ أي هل هو نحو علميّ أو تعليميّ أو يحمل من هذا وذاك ويتوسّط الحلقتين .ولا شك أنّ الكثير من الباحثين وقفوا عند هذه النّقطة وطرحوا هذا السّؤال وحاولوا الإجابة عنه واختلفت الآراء في بعض الأحيان وتقاطعت في أخرى .

فإبراهيم عبادة يصنّف النّحو- حسب رأيه - إلى قسمين فيقول : "ونستطيع أن نقول إنّ التّصنيف في النّحو اتّسم بطابعين رئيسيّين " [5] .

(1) عبد العال سالم مكرم : تطبيقات نحوية وبلاغية ، ص 5.

(2) سيبويه :الكتاب ، ج 1 ، ص 154 .

(3) المرجع نفسه ، ص 291 .

(4) المرجع نفسه ، ص 291 .

(5) محمد إبراهيم عبادة : النحو التعليمي في التراث العربي ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، حزي وشركاؤه ،(د ت)، ص 15.

فيذكر القسمين محاولا شرح وتفصيل كلّ صنف بإبراز خصائصه ،وذكر بعض المؤلّفات التي أنتجت في هذا الشّأن فيقول : " الطّابع الأوّل : طابع تعليميّ وهو الغالب ، والغرض منه عرض مسائل النّحو وقضاياه ، حتّى يتسنّى للدّارسين الوقوف عليها ، أملا في استيعابها ومراعاتها عندما ينطقون أو يكتبون ، ولا نريد بالطّابع التّعليميّ كتب النّحو الخاصّة بتعليم المبتدئين؛ وإنّما نعني به ما صنّف لبيان الضّوابط التي تميّز الصّواب من الخطأ في التّراكيب وبنية المفردات، وما صنّف في تطبيق هذه الضّوابط على النّصوص سواء أكانت هذه المختصرات للمبتدئين ، أم كانت مفصّلة للشّادين أم مطوّلة للمتخصّصين ، فالغرض منها مختصرة أو مطوّلة تعليم النّحو وإن اختلفت المستويات التّعليمية " [1] .

ثمّ يعرض توصيفه للنّوع الثّاني من النّحو وأهمّ خصائص المؤلّفات التي صنّفت في هذا الشّأن فيقول:" والطّابع الثّاني : طابع نظريّ ، والغرض منه بيان ما يمكن أن يسمّى فلسفة النّحو كما بدت للنّحويّين ككتاب علل النّحو ، ونقض علل النّحو لأبي الحسن بن الوّراق، والإيضاح في علل النّحو للزّجاجيّ ، والإغراب في جدل الإعراب ، ولمع الأدلّة في النّحو لابن الأنباريّ، والخصائص لابن جنّي، والرّد على النّحاة لابن مضاء ، والأشباه والنّظائر النّحويّة للسّيوطي " [2] .

ثمّ يعقب على كلامه بتتمة مفادها تداخل الصّنفين وكأنّه يشير إلى صنف ثالث عنوانه مصنّفات النّحو التّعليميّ والعلميّ معا . فيقول في هذا الشّأن : " ولم تتبرّأ المصنّفات ذات الطّابع التّعليميّ من آثار الطّابع النّظريّ الفلسفيّ بل طعمت حواشيها ببعض تلك الآثار بدءا بكتاب سيبويه، وظلّت بصماتها على صفحات المصنّفين"[3]، وعليه فإبراهيم عبادة من الذين أقرّوا بأنّ

(1) محمد إبراهيم عبادة : النحو التعليمي في التراث العربي ، ص 15 .

(2) المرجع نفسه ، ص 15 .

(3) المرجع نفسه ، ص 15 .

كتاب سيبويه من الكتب التّعليميّة مع بعض التّحفّظات كونه يتميّز بالغموض وبعض آثار الفلسفة .

أ- الجانب العلميّ في كتاب سيبويه :

يرى الكثير من الدّارسين أنّ كتاب سيبويه يتميّز بدرجة كبيرة من التّعقيد والغموض، فهو في هذه الحالة كتاب علميّ بامتياز ، إذ لا بدّ أن يكون هناك فصل بينه وبين نحو من جاء بعده، لأنّه تفسيريّ يهتم بالتّنظير لظواهر اللّغة .

يقول **علي النّجدي ناصف** : "... وكثيرا ما استوقف نظري وأنا أدرس الكتاب مسائل مشتبهة تثير الاسترابة والتّأمّل وتدعو إلى التّساؤل والتماس التّأويل ... "[1] .

ويعطي بعض الأمثلة لما يقوم به سيبويه من طريقة في عرض المسائل ، حيث يجمل الجامع ثمّ يفرّق تلك المسائل ويفصّلها ثمّ يتتبّع ويستقصي حتّى يصل إلى الغاية .

ومن هذه الأمثلة التي يوردها (مجرى نعت المعرفة عليها) فيقول : " واعلم أنّ المعرفة لا توصف إلاّ بمعرفة ، كما أنّ النّكرة لا توصف إلاّ بنكرة ، واعلم أنّ الخاص من الأسماء لا يوصف إلاّ بثلاثة أشياء ، بالمضاف إلى مثله ، وبالألف واللاّم ، وبالأسماء المبهمة ... " [2] .

وقد ذكر هناك قاعدة جامعة تستوعب كلّ ما توصف به المعرفة لا يختلف فيه شيء ، ثمّ حصر الأنواع التي يوصف بها العلم مجملة أوّلا ومفصّلة أخرى ثمّ إلى الأنواع واحدا واحدا يخصّ كلاّ منها بحديث على التّرتيب .

تعليقا على هذه الأمثلة يقول علي النّجدي :"وهذا النّمط في الكتاب قليل ولا يبلغ مبلغ السّمة التي تميّزه على كلّ حال **وهو أو بعضه أحقّ أن يكون من تصنيع المنطق وتوجيه الفلسفة**"[3].

(1) ناصف علي النّجدي : سيبويه إمام النحاة ،عالم الكتب ، المطبعة العثمانية ، ط 2 ، 1979 ، ص 157 .

(2) سيبويه :الكتاب ، ج 2 ، ص 04 .

(3) ناصف علي النّجدي : سيبويه إمام النّحاة ، ص 157 .

وفي نفس الإطار يتحدّث الباحث عبد الرّحمن بودرع في كتابه الأساس المعرفي للّغويات العربيّة فيقول : "لقد كان النّحو العربيّ في بداياته الأولى كما تلقّى سيبويه موادّه الأولى عن شيوخه وصفيّا بسيطا مسلّما من النّظر والإيغال في التّعليل فيصبح معقولا من منقول أو قياسا متّبعا.... وهكذا فإنّ بعض المقدّمات التي انطلق منها النّحويّون **لتأسيس أنظارهم تتمثّل في مراعاة أخذ العلوم والمعارف** " [1] .

ثم يقول عن الكتاب : "أمّا موقع كتاب سيبويه من هذا التّطوّر ، فهو أنّ صاحبه كان رائد النّحويّين في التّأليف ، **وصدرهم في تأويل ظواهر اللّغة** ...لهذا الاعتبار يمكن اتّخاذ كتاب ضارب في القدم ككتاب سيبويه أنموذجا وأساسا معتمدا وقطبا تدور حوله المصنّفات الأخرى، به تفهم وتفسّر ، وذلك لما له من مزايا النّص المميّز أو النّص الأنموذج الذي تحكمه قوانين الصيّاغة ، حتّى استحقّ أن يكون متنا مقنعا يأتمّ به من خلف بعده من النّحويين، **لما تتميّز به من حرص على التّأمّل في موادّ اللّغة لاستخراج وجه القاعدة الضّابطة** "[2] .

ويقول مرّة أخرى :"ويعتبر كتاب سيبويه **دلالة في تاريخ النّظر النّحوي العربي القديم**"[3]. وهو يقصد بالنّظر النّحوي : "**مجموع التّأمّلات التي مارسها النّحاة على اللّغة والتّأويلات العقليّة التي أجروها على الوقائع ، والعلل التي استنبطوها من نظام اللّغة ، والمراد بالأصول** ، القواعد الكليّة التي ترتدّ إليها الجزئيّات الدّاخلة فيها وتبنى عليها " [4] .

من هذا المنطلق يتبيّن لنا أنّ نحو سيبويه مجال واسع في التّعليل والتّأصيل والتّأويل وهو بهذا نحو علميّ بلا شكّ.

(1) عبد الرّحمن بودرع : الأساس المعرفي للّغويّات العربيّة ، نادي الكتاب لكلّيّة الأدب ، تيطوان ، المغرب ، 2000 ، ص 24.
(2) المرجع نفسه ، ص 57 ، ص 76 .
(3) المرجع نفسه ، ص 24 .
(4) المرجع نفسه ، ص 19 .

وفي نصّ آخر للدّكتور أحمد بدوي تعليقا على كتاب سيبويه يقول : "إنّ كتاب سيبويه تطلّ منه شخصيّة واضحة فيما يأتي : **الاستنباط ، وحسن التّعليل، والبرهنة، والتّفريع**، وحظّ سيبويه من ذلك حظّ غير يسير، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب من استنباط يسوقه، أو تعليل يأتي به ، أو برهان يقدّمه ، أو تفريع يذكر أحكامه المختلفة "[1] . ثمّ يقدّم بعض الأمثلة من الكلام الذي جاء به سيبويه للتّمثيل دون أن يكون من كلام العرب.

يقول **بدوي** : "وأمّا قول النّحويّين قد أعطاهوك وأعطاهوني فإنّما هو شيء قاسوه لم تتكلّم به العرب، ووضعوا الكلام في غير موضعه ، وكان قياس هذا لو تكلّم به كان هيّنا "[2].

ويقدّم مثالا آخر في قول للخليل : "... لو كنت محقّرا هذه الأسماء لا أحذف منه شيئا كما قال بعض النّحويين لقلت : سفيرجل كما ترى حتّى يصير بزنة دنينير فهذا أقرب وإن لم يكن من كلام العرب "[3].

وعقّبت **وضحة عبد الكريم** على كلام بدوي بقولها : "فهو كما رأينا في هذين النّصّين يحكم على كلام النّحاة أنّهم يناقشون قضايا ويفسّرون كلاما لم تتكلّم به العرب أصلا ، والمفروض في الدّراسة أن تدرس ما هو موجود بالفعل ، فنحو اللّغة يدرس ما تكلّم به النّاس ومدى اطّراد قواعده ، والظّواهر المشتركة التي يمكن أن يدرس تحتها ، **أمّا أن تكون القواعد دراسة لأشياء في فكر النّحاة فقط ، وليس لها واقع حقيقيّ من كلام النّاس ، فهذا ما لا يمكن أن يطلق عليه أنّه تعليميّ "[4] .**

(1) أحمد أحمد بدوي : سيبويه حياته وكتابه ، مكتبة نهضة مصر ، ط 2 ، (د ت) ، ص 98.

(2) سيبويه :الكتاب ، ج 2 ، ص 263.

(3) المرجع نفسه ، ج 3 ، ص 322 .

(4) وضحة عبد الكريم الميعان :التّأليف النّحوي بين التّعليم والتّفسير، دار العروبة،الكويت،ط1،1428هـ/2007م، ص 181 .

زد على ذلك أنّ الكتاب يتحدّث **عن الأصول والفروع** ، مبيّنا ما هو أصل وما هو فرع عليه كقوله مثلا : "واعلم أنّ النّكرة أخفّ عليهم من المعرفة وهي أشدّ تمكّنا ، لأنّ النّكرة أوّل ثمّ يدخل عليها ما تعرّف به "[1] .

وعند حديثه عن التذكير والتأنيث يقول : " واعلم أنّ المذكّر أخفّ عليهم من المؤنث، لأنّ المذكّر أوّل وهو أشدّ تمكّنا ، وإنّما يخرج التّأنيث من التّذكير "[2] . وهذا غيض من فيض .

وفي السّياق ذاته يدعم **محمد سعيد صالح ربيع الغامدي** ـ في بحث له ـ هذا الطّرح، معتبرا نحو سيبويه يمتاز بالصّبغة العلميّة هذا نصّه : "...نصّ بعض الباحثين على أنّ من يتأمّل كتاب سيبويه يجد صورة جليّة أنّ قضاياه وطبيعة التّناول فيه لا تنمّ على أنّه كتاب قصد به مؤلّفه تعليم العربيّة من لا يعلمها ، **بل هو كتاب في (المعرفة اللّغوية)** بحسب اصطلاح شومسكي أي : تحليل معرفة المتكلّم لغته ، أو هو بحث في (النّظام الذّهني) اللّغوي عند الجماعة اللّغوية المتكلّمة بالعربيّة أي : أنّه بحث في اللّغة مقابل الكلام بحسب اصطلاح دي سوسير " [3].

يرمي من وراء هذا الكلام إلى ضرورة الفصل بين النّحو الذي يمثّله سيبويه والنّحو الذي جاء بعده .كون ملامح هذا الأخير كما جاء في كتب المتأخّرين كالمقدّمات النّحويّة والشّروح والمنظومات والحواشي والمختصرات والكتب المدرسية وشبه المدرسية المتأخّرة، تختلف عن ملامح النّحو في عصوره المبكّرة . وقد استند في أفكاره هذه إلى كتاب للمفكر الأمريكي (توماس كون) يحمل عنوان (بنية الثّورات العلميّة) والتي تعني القطائع المعرفيّة بين مرحلة ما من مراحل العلم وأخرى لاحقة .

(1) سيبويه :الكتاب ، ج 1 ، ص 46 .

(2) المرجع نفسه ، ص 22 .

(3) محمد سعيد صالح ربيع الغامدي : نحو سيبويه ونحو المتأخّرين ،بحث ألقي في مؤتمر النحو الدولي السادس المنعقد في قسم النحو والصرف والعروض، كلية العلوم ، جامعة القاهرة ، 08 ـ 09 مارس 2010 ، ص 5 ـ 6 .

وعليه يصل إلى النّتيجة التي مفادها أنّ النَّحْوَيْن عبارة عن نموذجين مختلفين لا ينبغي التّعامل معهما على أنّهما نموذج واحد ، **ليخلص إلى أنّ النّحو السّيبويهي إنّما هو نحو علميّ بدليل أنّ العصر الذي اكتمل فيه التّفكير النّحويّ على يدي الخليل وسيبويه لم يحتج فيه إلى تعلّم العربيّة وتعليمها** ،لأنّه ببساطة ينتمي إلى عصر الاحتجاج وبالتّالي عصر الملكة اللّسانيّة ، على عكس العصور اللاّحقة فقد جدّ ما يجعلهم يبحثون عن نماذج من تعلّم العربيّة وتعليمها تختلف لا محالة عن نموذج قديم (نموذج سيبويه والخليل) [1] .

ب ــ الجانب التّعليميّ في كتاب سيبويه :

وبعد كلّ ما قلناه عن علميّة نحو سيبويه وعن منهجه الذي سلكه في تأليفه بدءا من الأبواب، إلى الأقيسة، إلى العلل ، وحتّى المصطلحات ، تبقى الإشارات التّعليميّة تنبثق منها. حيث نجد أنّ هناك من يضفي الصّبغة التّعليميّة على التّعليلات والتّقديرات لكثير ممّا جاء به سيبويه لشرح نظام اللّغة وتفسيرها . فها هو **أحمد ياقوت** يؤيّد هذه الفكرة بقوله : " إنّ الحديث عن الزّيادة والحذف والتّقدير والتّأويل والعوض كلّها أمور **نتجت عن النّظرة التّعليميّة في الكتاب ...** فهذا التّقدير وما جرى مجراه من حذف وزيادة وتأويل ، عوارض الإعراب التّعليميّ لا يستقيم إلاّ بها . بل إنّ القواعد التّقنينيّة وهي قواعد تعليميّة ـ بلا شكّ ـ من أنّ لكلّ عامل معمولا، وأنّه لا يجتمع عاملان على معمول واحد ، وأنّ المعمول لا يتقدّم على عامله، هذه القواعد ما كان لها أن تستقيم وتصبح مفهومة لدى التّلاميذ ، إلاّ بتلك العوارض الإعرابيّة "[2].

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل نجد الكثير من المهتمّين بالشّأن النّحويّ قد أضفوا الصّبغة التّعليميّة على نحوه، ورجّحوا الكفّة للجانب التّعليمي، ورأوا أنّ طريقته هي المثلى في تعلّم

(1) محمد سعيد صالح ربيع الغامدي : نحو سيبويه ونحو المتأخّرين ، ص 09 .

(2) أحمد سليمان ياقوت : ظاهرة الإعراب في النّحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم ،دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، 1994 ، ص 89 ــ 90 .

العربيّة رغم ما يعتريها من غموض وصعوبات ، وقد حاولنا أن نجد عذرا لهذا الغموض ، وكيف أنّه كان يقصد به تعليم النّحو للنّاشئة رغم اختلاف المستويات والمحتويات . فالمصنّفات النّحويّة التي ألّفت آنذاك على اختلافها قد وضعت لتعليم النّحو وهذا ما عبّر عنه علي أبو المكارم بقوله : " إنّ المصنّفات النّحوية على اختلافها قد وضعت لتعليم النّحو يستوي في ذلك ما طال منها وما قصر ، يلتقي في هذه الغاية ما عنى منها بأدقّ ما فيه من قضايا وما اقتصر منها على ذكر الضّروريّ الذي يوشك أن يكون بديهيّا منه ، فلقد تختلف المصنّفات في كمّ المادّة العلميّة أو في منهج تحليل هذه المادّة ، أو في الشّكل الذي تقدّمها فيه ، ولكنّها في النّهاية تتفقّ في أنّها على اختلافها قد صنّفت بغية تعليم النّحو للدّارسين على تعددّ اهتماماتهم واختلاف مستوياتهم .... وإذا كان من الثّابت أنّ كتاب سيبويه بكلّ ما يمثّله كمّا وكيفا كان من الكتب التي تعلّم للدّارسين.." [1] .

فطريقة تحليل المادّة النّحوية أو تقديمها أو الاحتجاج عليها لم يكن الجانب التّطبيقيّ منها قد انفصل عن الجانب النّظريّ فقد كان الجانبان يمشيان جنبا إلى جنب ، فكان النّحويّ يستقرئ النّصوص ويستنتج القاعدة ويطبّقها ويعلّمها لتلامذته دون فواصل تذكر .

يقول فخر الدّين قباوة وهو يتحدّث عن التّحليل النّحوي أصوله وأدلّته : "...خلال هذه المصنّفات ، وتلك المجالس العلميّة المذكورة ، كانت تنتشر نصوص كثيرة من كلام العرب شعرا ونثرا، للتّفسير والتّوضيح والاحتجاج ، مع بيان لأحكام التّعبير والتّركيب ، وضوابط للبيان العربيّ الرّفيع، وتوضيح للوظائف الخاصّة لبعض المفردات والتّعابير. وبذلك تشابكت الموضوعات النّحويّة المطروقة ، من تأصيل وتفريع وإعراب وتصريف وتحديد لمعاني الأدوات في النّص القرآني وما يتصل به من التراث العربي. وعلى هذا فإنّ نشأة الدّرس النّحويّ في العربيّة بخلاف ما تعرفه مسيرة العلوم بين الأمم والجماعات، **لم تكن ذات حدود بين التّنظير**

(1) علي أبو المكارم : تعليم النّحو العربي، ص 120 .

والتّطبيق . إذ لم تتضح بعد معالم الحدود الفاصلة بين الجانبين ، لقد انثالت التّجارب والأحكام والتّطبيقات في حيّز واحد من النّشاط اللّغويّ " [1].

ثمّ يواصل فكرته وكيف أنّ الهدف من التّحليل النّحويّ الجانب التّطبيقيّ التّعليميّ منذ نشأة النّحو إلى الآن ، وليس العكس إذ يقول : "أمّا التّحليل النّحويّ ، فقد جرت صوره المختلفة بمستويات متفاوتة ، منذ نشأة التّفسيرات اللّغوية ، **إذ كانت الغاية من تلك الممارسات تطبيقيّة عمليّة أكثر منها نظريّة تقعيديّة "** [2] .

ولم يجد مؤلّف تمّ تأليفه سابقا أو لاحقا من الإجماع والتّأييد ما لقيه كتاب سيبويه ، فهو كتاب العربيّة الأوّل وإمامها . وهو قطب الرّحى الذي تدور حوله المصنّفات والمؤلّفات ، فمنه تستمدّ **مادّتها سواء في مجال البحث والتّنظير أو التّطبيق والتّعليم** ، فقد قيل حوله الكثير؛ من العدوّ والصّديق.تقول عنه **خديجة الحديثي** : "وقد جمع سيبويه في كتابه هذا موضوعات النّحو التي نعرفها نحن اليوم ، ومع كثرة من كتبوا قبل ما صنعه سيبويه ، فهو إمام العربيّة، وكتابه معيارها ودليلها، وشاهدها علمه .وما ألّف بعده من كتب، جميعها مستمدّة منه ومعتمدة عليه، ولم يزد من جاء بعده إلاّ تعاليل ومخالفات ومناقشات لا تسمن ولا تغني من جوع " [3].

فقد تأكّد لنا - من خلال هذا الكلام - أنّ سيبويه قد أتمّ مسيرة النّحو على يديه ورسم معالمه الكبرى ، وأَحْكَمَ بناءه ، فلم يترك لمن جاء بعده إلاّ فضل التّفسير وبعض التّعليل وإصلاح ما يرونه نقصا، فالكلّ معتمد عليه آخذ عنه .

وقد تحدّث **نهاد الموسى** عن طريقة سيبويه في بناء المادّة اللّغوية وفي تحليل التّراكيب ووصف المواقف الاجتماعية مركّزا على أحوال كلّ من المخاطب و المتكلّم.

(1) فخر الدّين قباوة : التّحليل النّحوي أصوله وأدلّته ،لونجمان ، ديرنوبار للطباعة ، ط 1 ، 2002 ، ص 12 .

(2) المرجع نفسه ، ص 13 .

(3) خديجة الحديثي : الشّاهد وأصول النّحو في كتاب سيبويه، مطبوعات جامعة الكويت ،الكويت ، 1394هـ/1974 م ،ص19.

فيقول في هذا الصّدد : " إنّ سيبويه يفزع إلى السّياق والملابسات الخارجيّة وعناصر المقام ليردّ ما يعرض من بناء المادّة اللّغويّة من ظواهر مخالفة إلى أصول النّظام النّحويّ طلبا للاطّراد المحكم ... إنّه يتّسع في تحليل التّراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعيّة التي تستعمل فيها ، وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطب وحال المتكلّم وموضوع الكلام ...وقد هداه هذا الاتّساع إلى استكناه البنية الجوّانيّة للتّركيب النّحويّ ، **ورسم خطوط هادية في تعلّم العربيّة تعلّما يضع كلّ تركيب موضعه ويعرف لكلّ مقال مقامه فهو ـ كما يراه نهاد الموسى ـ كتاب تعليميّ لا يكتفي بشرح عناصر الجملة المنطوقة فقط ، إنّما يردّها إلى عنصر المقام ، ومراعاة السّياق لطرد الباب على وتيرة واحدة وأنّه يحلّل التّراكيب ويراعي حال المخاطب والمتكلّم..** " [1] .

ثمّ يقدّم نهاد الموسى أمثلة من الكتاب تشرح ما جاء به من أفكار وكيف أنّ سيبويه يراعي الأحوال التي قيل فيها الكلام فيذكر : " قال سيبويه في تفسير قولهم : أتميميّا مرّة و قيسيّا أخرى؟ وإنّما هذا أنّك رأيت رجلا في حال تلوّن وتنقّل ، فقلت : أتميميّا مرّة وقيسيّا أخرى كأنّك قلت: أتحوّل تميميّا مرّة وقيسيّا أخرى ، فأنت في هذا الحال تعمل في تثبيت هذا له وهو عندك في تلك الحال في تلوّن وتنقّل ، وليس يسأله مسترشدا عن أمر هو جاهل به ليفهمه إيّاه ويخبره عنه ، ولكنّه وبّخه لذلك " [2] . ومثل ذلك كثير لمن تصفّح الكتاب ودرس أسلوب سيبويه في طرح القضايا اللّغوية فيه .

رأي آخر لـ**علي ناصف النّجدي** يؤيّد فيه النّظرة التّعليميّة للكتاب ويبعد فيه كلّ ما قيل فيه عن كلام الفلسفة والنّظر فالنّحو عند سيبويه -كما نشأ- بريء من الجدل وغايته واضحة وضوح الشّمس لا غبار عليها، وهي تعليم العربيّة لمن شذّ عنها من العرب ، وإلحاق من ليس من أهلها بها .

(1) نهاد الموسى : نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، دار البشير، الأردن ، ط 2 ، 1984 ، ص 88.
(2) سيبويه:الكتاب ، ج 1 ، ص 288 .

يقول في هذا الصّدد : " وكان النّحو كما نراه في كتاب سيبويه ، وكما يؤخذ من مجالس القدماء ومناظراتهم دراسة لغة وأساليب ، قوامها أنماط من الأمثلة والعبارات المأثورة يبيّن فيها المراد بها وأوجه الخلاف أو المشابهة بينها وطرائق إعرابها ومقتضيات هذه الطّرائق وتلك الأوجه من المعنى والاستعمال ، ثمّ عرض نصوص من القرآن أو الشّعر أو الرّجز للاستشهاد بها والقياس عليها والاستنباط منها . فهي دراسة تقول النّحو نثارا مفرّقا، وتأتي به مزاجا مختلطا **لا تستخلصه ولا تفلسفه . ولا يرجى أن يكون النّحو لذلك العهد على خلاف ما ذكرنا** ، فقد كان لا يزال ناشئا ينمو، وغضّا يقوى ، ثمّ هو وضع لعلاج اللّحن و اتّقاء خطره ، وكانت نظرته للّحن أوسع وأشمل ، كما يفهم من كلامهم عنه وتمثيلهم لهم . فهو في رأيهم كلّ ما يصيب الكلمة، فيحرّفها عن صحتها في الإعراب أو الاستعمال، أو طريقة النّطق أو ضبط الحروف " [1].

وفي نفس السّياق يتحدّث **حسن عون** عن كيفيّة عرض سيبويه لموضوع النّحو ، وطريقة استنتاج القاعدة النّحويّة وشرحها والتّطبيق عليها لتكون قانونا نهائيّا تلتزم به الجماعة اللّغوية ثمّ التّدريب عليها لتصير مستساغة سهلة لدى المتعلّمين .

يقول حسن عون : " إنّ سيبويه يغرق القارئ في بحر من النّماذج اللّغويّة مبيّنا له طرق الاستعمال العربيّ ووجه إعرابها ورأي النّحاة فيها .وطريقة سيبويه في استخلاص القاعدة النّحويّة هي الطّريقة الاستنتاجيّة، بمعنى أنّه يعرض في كلّ موضوع يعالجه عددا من التّعابير والشّواهد اللّغويّة ذات الصّلة بالموضوع ، ثمّ يستنتج من ذلك ما يمكن أن يكون ضابطا أو قاعدة يمكن تطبيقها على كلّ ما ينتج تحتها من أمثلة تدخل في إطارها العام . وقد يلجأ سيبويه إلى عرض النّماذج وتحليلها مهيّئا للقارئ أو الدّارس وسائل الاستنتاج وتاركا له الفرصة لكي يقوم بنفسه بالعمليّة الاستنتاجيّة الأخيرة " [2] .

(1) ناصف علي النّجدي : سيبويه إمام النّحاة ، ص 31 .

(2) ينظر : حسن عون: تطوّر الدّرس النّحوي ، معهد البحوث والدّراسات اللّغوية ، 1970 ، ص 38 وما بعدها .

فهو في هذه الحالة يجعل من المتعلّم شريكا ، يحلّل ويمثّل ويطبّق مبديا رأيه ، وهذا ما تطلبه الدّراسات الحديثة التي تجعل من المتعلّم محور العمليّة التّعليميّة/ التّعلميّة ، وليس مجرّد وعاء يستقبل المعلومات ويخزّنها دون أن تكون له فرصة إبداء الرّأي .

وبهذا ينتهي حسن عون إلى الحكم على أسلوب سيبويه وطريقته في الدّرس النّحويّ بأنّها: " **تتماشى مع أحدث الطّرق التّربويّة في العصر الحديث** " [1] .

ولا يقتصر الأمر على الطّريقة أو التّمثيل أو الاستشهاد ، بل يتعدّى ذلك إلى أمور منهجيّة أخرى كالتّبويب والتّرتيب مثلا ، وسنشير لاحقا إلى طريقته في وضع الأبواب وعرض المادّة النّحويّة، إذ التّبويب في حدّ ذاته يعتبر طريقة تعليميّة، فبه يقرّب المادّة من طالبيها دون عناء، فيتكوّن لدى المتعلّم تصوّر شامل لما سيدرسه .

يقول محمد كاظم البكّاء عن طريقة سيبويه في التّبويب : " ... وقد بنى سيبويه الكتاب على الأبواب، وعقد كلّ باب على أبواب العرب التي تمثّل أمثلة استخدام اللّغة العربيّة لدى فصحائهم ، وقد دأب في تصنيف الأبواب على أنواع الإسناد فهو ينظر في تحليلها ويفاضل بينها، فحفظ لنا وجوه تأليف الكلام في اللّغة العربيّة يصنّفها ويقوّمها ، ولم يكن الكتاب مقتصرا على بيان الأحكام النّحويّة لكلام العرب فقط ، بل عني بالنّظر في أمثلة كلّ باب من حيث الخطأ والصّواب وتفاوتها من حيث الجودة والرّداءة ،...**فالكتاب بهذا الوصف كتاب تعليميّ أبوابه مرتّبة ومباحثه متسّقة ، بصورة لا نجدها في غيرها ، وله غرض تعليميّ ، وأبوابه وقواعده قائمة على كلام العرب الفصحاء ، وأنّه بناه على الإسناد النّحوي وبيان الخطأ والصّواب في التّراكيب العربيّة** " .[2]

(1) حسن عون: تطوّر الدّرس النّحوي ، ص 39 .

(2) محمد كاظم البكّاء : منهج سيبويه في التّقويم النّحوي ، بغداد ، 1983 ، ص 19 .

في نفس الاتّجاه يدلي **محمد حماسة عبد اللّطيف** بدلوه حول الغاية العظمى لكتاب سيبويه، وكيف أنّه كتاب شامل لا يستغني عنه نحويّ أو بلاغيّ أو أيّ مشتغل بأيّ علم كان فهو المعين الذي لا ينضب والمورد الذي لا يجف .

يقول **حماسة** : " إنّ الباحث في النّحو العربيّ دائما يجد نفسه مدفوعا إلى النّظر والتّفتيش في كتاب سيبويه بوصفه أوّل أثر نحويّ باق يمثّل جهود المرحلة الأولى ، بل نضج الفهم النّحويّ الرّاشد الذي يعنى بتمييز التّراكيب وكشف خصائصها وتواؤمها مع ملابساتها .. ثمّ يقدّم كلاما للشّاطبي فيقول : " وإن تكلّم في النّحو فقد نبّه في كلامه على مقاصد العرب، وأنحاء تصرّفاتها في ألفاظها ومعانيها ، ولم يقتصر فيه على بيان أنّ الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ونحو ذلك ، بل هو يبيّن في كلّ باب ما يليق به حتّى إنّه احتوى على علمي المعاني والبيان ووجوه تصرّفات الألفاظ والمعاني " [1] .

فالبلاغة لها نصيبها في كتاب سيبويه ، كيف لا وهو يدعو إلى مجاراة كلام العرب في كلّ المواقف، وفي نفس السّياق ونحن بصدد الحديث عن إفادة البلاغة من نحو سيبويه. يقول عبد القاهر الجرجاني -وهو يتحدّث عن الأساليب البيانيّة التي كان سيبويه يستعملها في تحليله للنّظام النّحويّ العربيّ- : " وواضح من تلك الأساليب وما يحمله هذا التّحليل من دقّة الحسّ بأساليب اللّغة ، واستعمالاتها ودلالاتها ، **ومن هنا فإنّ سيبويه لا يعلم العربيّة وقواعدها فحسب بل يعلّم أساليبها ودقائقها التّعبيريّة** ، ويعرض لبعض الخصائص الأسلوبيّة التي عنى بها فيما بعد ـ علم المعاني ـ مثل : التّقديم والتّأخير ، والتّعريف والتّنكير والحذف ، كما يعرض لبعض المعاني المختلفة لبعض الأدوات " [2].

(1) عبد اللطيف محمد حماسة : النّحو والدّلالة (مدخل لدراسة المعنى النّحوي الدّلالي) ، دار الشروق ، القاهرة ، ط 1 ، 1420 هـ/2000 م ، ص 26 .

(2) عبد الفتّاح لاشين : التّراكيب النّحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر ، دار المريخ ، الرياض ، ص19 .

إنّ الحديث عن نحو سيبويه من النّاحيّة التّعليميّة ، ومن ناحية إفادة العلوم من هذا المنبع لا يكاد ينتهي، ومحاولة رصدها وتتبّع هذه الأقوال في الكتب النّحويّة والبلاغيّة لاشكّ أنّه يستهلك وقتا و فضاء كبيرين، لذا سنحاول الإشارة إلى بعض الظّواهر التّعليميّة في ثنايا الكتاب والتي لازلنا نتعامل معها في مدارسنا وجامعاتنا إلى اليوم والمقصود بها تلك القواعد النّحوية التي ورثناها كابر عن كابر وجيل عن جيل دون أن يمسّها زيف رغم طول العهد وبعد المسافة وما صاحبها من أساليب في التّدريس وفي ترتيب المادّة اللّغويّة وكذا الخطابات التّعليميّة المختلفة .

3. مظاهر النّحو التّعليمي في الكتاب :

إنّ أيّ حديث عن المظاهر التّعليميّة في الكتاب لهو اعتراف صريح بوجود النيّة التّعليميّة عند سيبويه فطريقة تدريسه، وأسلوب عرضه للمادّة النّحويّة، وتعليله للظّواهر اللّغويّة، يوحي بما لا يدع مجالا للشّك أنّ الرّجل معلّم مقتدر، وما جعلنا نتجرّأ وندلي بهذا الكلام هو أنّ كتاب سيبويه قد نقل الطّريقة كما نقل الموضوعات إلى من جاء بعده دون أن يضيفوا إليها شيئا، حتى وصلت إلينا نتعلّمها ونعلّمها .

أولا:الموضوعات التّعليميّة :

لقد وصف شوقي ضيف القواعد النّحويّة والصّرفيّة الموروثة عن سيبويه، بالنّجوم القطبيّة باعتبارها الأكثر لمعانا وثباتا وهي التي كان الأقدمون يهتدون بها في ظلمات البرّ والبحر.

يقول شوقي ضيف : "وقد تحوّل ما ذكره من قواعد النّحو والصّرف إلى ما يشبه نجوما قطبيّة ثابتة، ظلّ النّحاة بعده إلى اليوم يهتدون بأضوائها في مباحثهم ومصنّفاتهم، ويمكن أن نقول- بصفة عامّة- **إنّ الكثرة من المصطلحات النّحويّة والصّرفيّة التي لا تزال شائعة على كلّ**

لسان في عصرنا ، كان لكتابه الفضل الأوّل في إشاعتها وإذاعتها طوال العصور ، وكأنّه لم يترك للنّحاة من بعده إلاّ ما لا خطر له ...كأن يميّزوا بعض المصطلحات أو يضيفوا مصطلحات جديدة لغرض الدّقة في التّوضيح " [1] .

فالحديث عن الموضوعات النّحويّة(القواعد)وما صاحبها من أساليب، وطرائق، وتعليلات تعليمية، التي يحتاجها المتعلّم ليشقّ عباب اللّغة ويسبر أغوارها، وكذا طرائق تبويب وترتيب المادة النّحوية، و غير ذلك من الأمثلة والخطابات التي تسهم في بناء المادة التّعليمية، لهي من الظواهر التّعليمية كما أنّ هذه القواعد التي ابتكرها النّحاة، هي –بدون شك - المعيار الذي به يقبل الكلام أو يردّ وهي مرتبطة أساسا بالجانب الاستعمالي.

يقول تمّام حسّان في هذا الشّأن :" إنّ الغاية التي نشأ النّحو العربيّ من أجلها هي ضبط اللّغة وإيجاد الأداة التي تعصم اللّاحنين من الخطأ ، **فرضت على النّحو أن يتّسم في جملته بسمة النّحو التّعليميّ لا النّحو العلميّ**أو بعبارة أخرى أن يكون في عمومه نحوا معياريّا لا نحوا وصفيّا ، ولعلّ أحسن تلخيص لموقف النّحو العربيّ من هذه النّاحيّة المعياريّة هو قول محمّد بن مالك في ألفيته" فما أبيح افعل ودع ما لم يبح " ولقد تعلّقت الإباحة وعدمها بقواعد معياريّة تفرض نفسها على الاستعمال وعلى المسموع ....." [2]

وإلى نفس الاتّجاه ذهب عبد القادر المهيري في كتابه نظرات في التّراث اللّغويّ العربي، حين يمايز بين التّأصيل والتّقعيد فيقول : "...أمّا التّقعيد فتلك الضّوابط التي يستنبطها النّحويّ من استعمالات النّاس للغتهم، بحصر الثّوابت فيها، وغضّ الطّرف عمّا هو عرضيّ ظرفيّ ليس ضامنا للتّبليغ في كلّ الحالات ؛ ومن هنا **كان التّقعيد رهين الاستعمال ، صادرا عنه موفّرا لأسباب الكلام ومقاييسه ممكّنا المتكلّم من دليل يقتدي به ومرجعا يحتكم إليه ، ونموذج منظّر**

(1) شوقي ضيف : المدارس النّحوية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 7 ، ص 61 .

(2) تمّام حسّان : اللّغة العربيّة معناها ومبناها ،دار الثّقافة ، الدّار البيضاء ، المغرب ، 1994، ص 13.

يقيس عليه، عن وعي أو عن غير وعي. وإذا كان التّأصيل لا مفرّ فيه من التّأويل والافتراض أحيانا فإنّ التّقعيد لا يكون إلاّ بالاعتماد على ما هو ملموس في الكلام يمكن التّدليل عليه بما يوفّره الاستعمال ويرغب فيه عمّا لا تؤيّده الظّواهر الواضحة للعيان والآذان . **وبعبارة موجزة فالتّقعيد له صيغة عمليّة وجاهته في نجاعته ، ونجاعته في توفيره أبسط الضّوابط وأيسر المقاييس تسهيلا على متعلّمي اللّغة ومستعمليها....**"[1]. ومقصودنا من إيراد هذه الأقوال أن نظهر دور القواعد في تعليم النّحو وهي بلا شكّ مظاهر تعليميّة مبثوثة في الكتاب استعملت في التّعليم ولا تزال إلى اليوم.

ثانيا : التّبـــــويب :

ذكر إبراهيم عبادة طريقة التّبويب في المصنّفات النّحويّة ، فأشار إلى عدّة أنماط، منها نمط رتّب على أساس التّراكيب بوجه عام حيث قال:" ونمط عالج أصحابه النّحو في إطار التّراكيب بوجه عام دون الانتظام في نسق معيّن ، واضح المعالم بارز القسمات المنهجيّة ، كما هو الحال في الكتاب لسيبويه فكان بمثابة جمع للتّراكيب والأقوال اللّغوية،وبيان أحكامها وفقا لما استعمله العرب، وشمل بجانب ذلك بحوث الصّرف والأصوات"[2].

فطريقة التّبويب هذه أثارت حفيظة الدّارسين ، وجعلت الرّؤى تختلف، فمنهم من رأى أنّ سيبويه بدا مشوّشا وبالتّالي ترتيبه لم يكن على أساس منطقيّ واضح . يقول فاضل صالح السّامرّائي في كتابه الدّراسات النّحويّة واللّغوية عند الزّمخشري في معرض حديثه عن التّرتيب والتّبويب عند سيبويه: "إنّ النّاظر في كتاب سيبويه ـ أقدم كتاب نحويّ وصل إلينا ـ يلمس بوضوح أنّه لم يكن مرتّبا على أساس منطقيّ واضح ، فبينما تراه يعرض في أوّل الكتاب إلى باب علم ما الكلم من العربيّة ، ثمّ باب الفاعل الذي لم يتعدّه فعله إلى مفعول ...تراه يقفز إلى باب ما

(1) عبد القادر المهيري : نظرات في التّراث اللّغويّ العربيّ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 1 ، 1993 ، ص131-132 .

(2) محمد إبراهيم عبادة : النحو التعليمي في التراث العربي ، ص17.

ينتصب في الألف... ثمّ فيما بعد إلى باب الأمر والنهي ... ثمّ باب من المصادر جرى مجرى الفعل المضارع في عمله... ثمّ تراه يلخص بعد سلسلة من الموضوعات إلى باب الجرّ ثمّ يعود إلى الابتداء ثمّ النّداء ثم الاستثناء... يعقبّ صاحب هذا المقال على هذه الطّريقة في التّرتيب بقوله : "إنّ مجرّد النّظر في ثبت الكتاب يثبت أنّه ليس هناك في ذهن صاحبه خطّة واضحة يسير عليها " [1] .

وقد حاول الكثير من المهتمّين بالشّأن النّحويّ واللّغويّ أن يجدوا تفسيرا لهذا النّوع من التّرتيب، فمنهم من توقع أن يكون قد حصل اختلاط لأوراق الكتاب بعد صاحبه [2] ومنهم من أرجع ذلك إلى قلّة خبرة سيبويه في طريقة التّرتيب كون التّأليف النّحويّ كان في بدايته . يقول فاضل صالح السّامرّائي : " ولا عجب فإنّ التّأليف كان في بداية نشوئه ، ولم يكن للمؤلّفين آنذاك القدرة على التّنظيم ودقّة التّبويب " [3] .

وفي ذات السّياق، يرى **عوض محمد القوزي** صاحب كتاب المصطلح النّحوي نشأته وتطوّره حتّى أواخر القرن 3 هـ،أنّ سيبويه كانت له طريقة فريدة في ترتيب موضوعات الكتاب كونه يمزج الأبواب وينتقل من باب لآخر دون أن يكمل ما هو بصدد دراسته وهذا قوله : " فأمّا التّرتيب فإنّنا نجد سيبويه يمزج أبواب النّحو في صورة عجيبة ، فهو ينتقل من الباب إلى غيره قبل أن يستوفي أحكامه ،....ثمّ يمثل لكلامه هذا من الكتاب فيقول : فمثلا تجد الكلام عن الفاعل قد ابتدأ في قفزات غير منتظمة ، بحسب تداعي المعاني الذي أثّر على منهجه ، فهو لا يحدّثك عن أحوال الفعل مع فاعله تذكيرا وتأنيثا إلاّ عند حديثه عن الصّفة المشبّهة"[4] ليقول: "إنّ الوصف مع مرفوعه كالفعل مع فاعله في التّذكير والتّأنيث"[5] ولكنّه لا يستكمل الحديث

(1) فاضل صالح السّامرّائي : الدّراسات النّحوية واللّغوية عند الزمخشري ،مطبعة الإرشاد ، بغداد، 1390 هـ/1971م،ص32 .

(2) ينظر : علي النّجدي ناصف : سيبويه إمام النّحاة ، ص 180 .

(3) فاضل صالح السامرائيّ : الدّراسات النّحوية واللّغوية عند الزمخشري ، ص 33.

(4) عوض حمد القوزي : المصطلح النّحوي ، ص 124 .

(5) المرجع نفسه ، ص125 .

على تأنيث الفعل للفاعل إلاّ في الجزء الثاني[1] فضلا عمّا أسبغه على الفاعل من أبواب ليس لها به علاقة مباشرة ، والحديث فيها أو في جلّها لا يختصّ بالفاعل فهناك مثلا : (باب للفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعولين ، فإن شئت اقتصرت على المفعول الأوّل) [2].

وباب (للفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعولين وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر)[3] ، وباب (للفاعل الذي يتعدّاه إلى ثلاثة مفعولين ...)[4] .وباب (للفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعول)[5]. وباب (للفاعل الذي لم يتعدّه فعله إلى مفعول)[6] .

لقد قدّم هذه الأمثلة ليبيّن لنا أنّ سيبويه وهو يتحدّث في هذه الأبواب لم تكن خاصّة بالفاعل بل بالفعل المتعدّي واللاّزم . ليستنتج لنا الخلاصة التّالية قائلا : " ولعلّ سيبويه وهو يجعل الفاعل مدار حديثه ، يشير إلى أنّ الفعل وهو الحدث لا يكون إلاّ بالفاعل ، وأنّ الفاعل عمدة لا يستغني عنه بالكلام" [7].

وفي مثال آخر يقدّم لنا ملاحظة هامة وهي كيف أنّ بعض المفاهيم لم يخصّص لها عناوين خاصّة وكيف جاءت متناثرة هنا وهناك في أبواب النّحو المتفرقة كالحال مثلا ، فقد نثر الكلام عليه، فنجده ضمن أبواب المفعول، والمفعول المطلق والتّوكيد والمصادر والاستفهام موزّعا مسائله في أماكن شتّى تبعا للمناسبات التي تستدعيها [8] .

(1) عوض حمد القوزي : المصطلح النّحوي، ص 126 .
(2) سيبويه:الكتاب ، ج 1 ، ص 58 .
(3) المرجع نفسه ، ص 60 .
(4) المرجع نفسه ، ص 61 .
(5) المرجع نفسه ، ص 62 .
(6) المرجع نفسه ، ص 62 .
(7) عوض حمد القوزي : المصطلح النّحوي ، ص124 .
(8) المرجع نفسه ، ص 125 .

فسيبويه وإن فكّر في صناعة الأبواب لمسائل النّحو إلاّ أنّه لم يستطع ضمّ مسائل كلّ باب بعضها إلى بعض ليكوّن منها سلاسل متّصلة الحلقات ، متتابعة الاختصاص ، بل راح يذكر بعضها في موضع ولا يوفّيه حقّه من البحث إلاّ في موضع آخر بحسب استدعاء المناسبة له ، وكأنّما برزت العلاقة بين المسألتين أو المسائل النّحويّة بطريقة الصّدفة فأثبتها في مكانها كي لا تنسى [1] .

غير أنّنا لا نؤيّد هذه الفكرة ، ففي اعتقادنا أنّ سيبويه كان يعي ما يفعل ، وهو يدرك جيّدا موضع كلّ مصطلح وكلّ مفهوم يتعرّض له ، والدّليل على ذلك ـ حسب فهمنا ـ التّصريحات التي كان يقدّمها من حين لآخر ، فتراه مثلا في باب ما يحتمل الشّعر يقول : " وما يجوز في الشّعر أكثر من أن أذكره لك ههنا، لأنّ هذا الموضع جمل **وسنبيّن ذلك فيما نستقبل إن شاء الله** [2]، وكقوله في موضع آخر : " ومن كلامهم أن يجعلوا الشّيء في موضع على غير حاله في سائر الكلام **وسترى مثل ذلك إن شاء الله** [3] ويقول أيضا في موضع آخر " وسنبيّن ذلك إن شاء الله وقد بيّنا فيما مضى " [4]. ومثل هذا في الكتاب كثير بما لا يدعو المجال لذكره .

ومنهم من رأى أنّ سيبويه مصيب في ترتيبه للمادّة النّحويّة رغم تأليفه للكتاب على غير مثال سابق ، ورغم قلّة خبرته في هذا المجال .

فشوقي ضيف يقول عن هذا الجهد : "لقد نسّق سيبويه أبواب الكتاب وأحكمها إحكاما دقيقا، وخاصّة إذا عرفنا أنّه أوّل كتاب جامع في قواعد النّحو والصّرف ... ثمّ يواصل وصفه عند حديثه عن قسم الصّرف في الكتاب فيقول : "إذا فرغ من هذه المباحث(النّحوية) انتقل يبسط في دقّة القسم الثّاني وما يخوض فيه من المباحث الصّرفيّة محيطا بكلّ تفاصيلها إحاطة تامّة" [5].

(1) عوض حمد القوزي : المصطلح النّحوي ، ص 126 .

(2) سيبويه:الكتاب ، ج 1 ، ص 54 .

(3) المرجع نفسه ، ص 69 .

(4) المرجع نفسه ، ج 3 ، ص 08 .

(5) شوقي ضيف : المدارس النّحوية ، ص 61 وما بعدها .

يرى الدّكتور إبراهيم عبادة ، أنّ سيبويه وهو يؤلّف الكتاب ، كانت فكرة العامل تدور في خلده وتسيطر على فكره ويظهر ذلك من خلال طريقة تبويبه ، فعرضه لكلّ ما يتعلّق بالجملة الفعلية ، ثمّ انتقاله إلى باب الجرّ ثمّ ما يتعلّق بالجملة الاسمية ، -ففي نظر الدّكتور- وكأنّ سيبويه رتّبه وفق العوامل ، فيقول في هذا الشّأن :" ويبدو أنّ فكرة العامل كانت مسيطرة على فكره ، ولا نشكّ في أنّ الفعل أبو العوامل في معتقده ... "[1].

ختاما لكلّ ما قيل عن هذا التّبويب والتّرتيب في كتاب سيبويه يمكننا القول أنّه كان مصيبا إلى حدّ كبير في تأليفه بهذه الكيفيّة ، فهو وإن فكّر في وضع الأبواب فلغرض تعليميّ بحت ، يقرّب من خلالها المادّة النّحويّة لطالبيها دون عناء أو بحث كبيرين ، كما أنّ التّشويش الحاصل في عرض المادّة النّحويّة إنّما هو حاصل بسبب ما يلي :

1 ـ كون العمل في بدايته ولم يتسنّ له المراجعة وإعادة التّنسيق .

2 ـ إنّ إعادة استذكار سيبويه لما يدور في حلقة الدّرس مع شيوخه ومحاولة تنسيقها وترتيبها فهي-في نظرنا- مدعاة لإغفال بعض الأشياء سرعان ما يتذكّرها .

3 ـ المناقشات التي تدور في مجالس العلم ، يكثر فيها الاستطراد والشّرح و دعوة معلومات سابقة للمقارنة والتّشبيه ، وهذا ما يفسرّ تناثر بعض المفاهيم .

و إنصافا للرّجل نقول أنّ الجهود التي قام بها كانت المنارة التي استخدمها من جاء بعده ليخترعوا طرقا أخرى في التّبويب والتّرتيب وحتّى في المصطلحات ، أسهل للمتعلّمين ، والفضل للأوّل و إن أبدع الثّاني.

ثالثا : العامـــــــــل :

ونحن إذ نتعرّض لهذه النّظرية إلاّ لأنّنا نعتبرها من المظاهر التّعليمية عند سيبويه ، فقد شغلت بال النّحاة والدّارسين من عهد سيبويه إلى يوم النّاس هذا سواء الذين يؤيدون هذه

(1) محمد إبراهيم عبادة : النّحو التّعليميّ في التّراث العربيّ ، ص 21 .

النّظرية ويدعمونها ويدعون إلى إحيائها والتمسّك بها ، أو من يطالبون بهدمها أو الاستغناء عنها جزئيا أو كلّيا .

يعرّفها بعض اللّغويين بأنّها :" ما أوجب كون آخر الكلمة مرفوعا أو منصوبا أو مجرورا أو ساكنا " .[1] أو هو ما يؤثّر في اللّفظ تأثيرا تنشأ عنه علامة إعرابية ظاهرة أو مضمرة ترمز إلى معنى خاص ".[2]

والأصحّ -حسب رأي الدّكتور بن لعلام مخلوف صاحب كتاب مبادئ في أصول النّحو- أن تسمّى" نظرية العمل لأنّ العامل أحد أركانها، إذ تتكوّن من ثلاثة أركان : العامل والمعمول ، وأثر العامل في المعمول وهو الإعراب ، وقد بات من الصعوبة ترك هذا المصطلح لأنّه شاع بين اللّغويين "[3].

وقد ارتبطت هذه النّظرية ارتباطا وثيقا بالنّحو العربي ، إن لم تكن هي النّحو في حدّ ذاته ، أفلم يسمّ النّحو بالإعراب ؟ أو لم يعرّف الإعراب بأنّه :" أثر ظاهر أو مقدّر يجلبه العامل في آخر الكلمة " [4].

وعليه يمكن القول أنّ اهتمامهم بهذه النّظرية له ما يبرّره ويسنده ، بل نستطيع القول أنّها الأساس الذي قام عليه الدّرس النّحوي ، فطبيعة اللّغة العربية ونحوها، يستوجب أن يلعب كلّ عنصر من عناصرها دوره بالتّنسيق مع بقية العناصر ، فالحركات تتتابع وفق المعاني المراد الوصول إليها ، والحروف تتناسق فيما بينها للحصول على الصيغة المناسبة وأيّ اختلال في حرف من الحروف يؤدّي إلى فقدان المعنى الاصطلاحي ، والكلمات داخل الجملة لها قواعدها وخصائصها وكلّ زيغ أو ابتعاد عن هذا النّظام يؤدي إلى فقدان المعنى التّركيبي ، فلكلّ صيغة

---

(1) الجرجاني عبد القاهر : العوامل المئة النّحوية ، تح : خالد الجرجاوي ، دار المعارف ، القاهرة، ط2 ، (د، ت) ، ص 73 .

(2) صبحي تميمي : هداية السّالك إلى ألفية بن مالك ، دار الهداية ،قسنطينة ، الجزائر، ط2 ، 1990 ، ج 2 ، ص 17 .

(3) مخلوف بن لعلام : : مبادئ في أصول النّحو ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ، تيزي وزو ، الجزائر ، ص 240 .

(4) ابن هشام الأنصاري : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، تح:محمد محيي الدّين عبد الحميد،دار الفكر،بيروت،ط6، 1394ه/ 1974م ، ج 1 ، ص 39 .

وظيفة نحوية معيّنة تحكمها قواعد معيارية يجب الانتباه إليها ، فهي إذن مجموعة من البنى تتشابك فيما بينها للوصول إلى أكبر بنية ألا وهي النّص وبالتّالي تحدث عملية التّبليغ .

والأمر الذي لا بدّ من الإشارة إليه ، أنّ هذه النّظرية لم تكن وليدة عصر سيبويه ، فقد سبقته بأشواط وقد جزم بعضهم أنّها من اختراع أبي الأسود الدؤلي، وإن لم يطلق عليها هذا الاسم. فاختراعه لنقط الإعراب حين قال لكاتبه:" إذا رأيتني أفتح فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه وإذا رأيتني أضم شفتي فانقط نقطة فوقه على أعلاه، وإذا رأيتني أكسر، فضع نقطة تحت الحرف" [1] ، كعلامات للضم والفتح والكسر، وبالتّالي التّفرقة بين الفاعل والمفعول والمضاف إليه وعليه فهي بلا شكّ تدخل ضمن دائرة العامل النّحوي .

غير أنّ هذه النّظرية لم تكن قد استوت ونضجت بعد،بل كانت عبارة عن إرهاصات وملاحظات متفرقة تقدّم من حين لآخر فعدّت اللّبنة الأولى لظهور هذا الصّرح .

يقدّم لنا ابن سلاّم الجمحي مثالا حيّا عن هذه الملاحظات حين كشف لنا ما جرى بين الفرزدق الشاعر الأموي وعبد الله بن إسحاق الحضرمي الذي يقال عنه : " أنه أوّل من بعج النّحو ومدّ القياس وشرح العلل "[2] ، فقد خطّأ هذا الأخير الفرزدق حين قال :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ المَالِ إلاَّ مُسْحَتَا أَو مُجَلَّفُ .

وذلك لرفعه مجلّف وهي قافية البيت، وكان حقّها النّصب، لأنّها معطوفة على كلمة (مسحتا) المنصوبة .

فهذه وملاحظات أخرى تنمو وتتفرّع على مدّ العصور، وعند كلّ النّحاة، لم تهمل من أيّ دارس سواء كان مؤيّدا أو معارضا ، ولم تبرد نارها أو تخمد على مرّ العصور إلى يوم النّاس هذا.

جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلميذه سيبويه فغرسا شجرة العامل غرسا لغويا أصيلا، ثمّ نمت هذه الشجرة وتفرّعت من بعدهما ، ثمّ تشابكت فروعها تشابكا فلسفيا

(1) عوض حمد القوزي :المصطلح النّحوي، ص132.

(2) الجمحي محمد ابن سلاّم : طبقات فحول الشّعراء : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، القاهرة ، مصر ، ص 14 .

ومنطقيا أبعدها عن الواقع اللّغوي كونها معيارا أو تقنينا للقواعد النّحوية كما أرادها الخليل وسيبويه ، حتّى أضحت كائنا يؤثر ويتأثّر ... " [1].

وما يمكن أن يقال عن خصائص هذه النّظرية أنّ حركات الإعراب ناتجة عن عوامل كانت السّبب فيها ، فالفعل يعمل في الفاعل والمفعول، وحروف الجرّ تعمل في الأسماء التي بعدها فتجرّها ، والحروف المشبّهة تنصب اسما وترفع آخر إلى غير ذلك من العوامل والمعمولات.

وقسّموا العوامل إلى أقسام ثلاثة: أفعال وأسماء وحروف، أمّا الأفعال فهي تعمل بالأصالة، وأمّا الأسماء فيعمل منها ما كان شبيها كالأسماء المشتقة، وأمّا الحروف العاملة فهي حروف الجرّ والحروف المشبّهات بـ: ليس ونواصب الفعل المضارع وجوازمه .

كما قسّموا العوامل إلى لفظية كالتي ذكرناها سالفا ومعنوية كالعامل في المبتدأ مثلا. فسيبويه حين يتحدّث عن العامل في المبتدأ والخبر يقول : " فأمّا الذي يبنى عليه شيء هو هو ، فإنّ المبني عليه يرتفع به كما ارتفع هو بالابتداء " [2]، ومعنى هذا أنّ الخبر يرتفع بالمبتدأ وهذا الأخير يرتفع بالابتداء ، وهو عامل معنوي .

ولم يتوقّفوا عند تقسيم العوامل والمعمولات بل حدّدوا بعض القواعد والقوانين التي تضبط هذه النّظرية وقد أوردها الدّكتور إبراهيم مصطفى في كتابه " إحياء النّحو " نورد بعضها كما يلي [3] :

- كلّ علامة من علامات الإعراب فهي أثر لعامل ، إن لم تجده في الجملة وجب تقديره .
- لا يجتمع عاملان على معمول واحد كما في باب التّنازع مثلا .
- الأصل في العمل للأفعال ، وهي تعمل في الأسماء فقط ، فترفعها وتنصبها ولكنّها لا تجرّ ، ولا ترفع إلاّ اسما واحدا ، وتنصب اسما أو أكثر ، وتعمل الرّفع والنّصب معا .
- كلّما كان الفعل أمكن في باب الفعلية كان أوفر حظّا من العمل .

(1) أحمد سليمان ياقوت : ظاهرة الإعراب في النّحو العربي ، ص72.

(2) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 91 .

(3) إبراهيم مصطفى : إحياء النّحو ، ص 23 وما بعدها .

- مرتبة العامل التقدّم ، وإذا كان العامل قويّا أمكن أن يعمل متقدّما ومتأخّرا فإذا كان ضعيفا لم يعمل إلاّ متقدّما .
- الأصل ألا يفصل العامل من معموله .

إلى غير ذلك من هذه القوانين والشّروط التي تحكم وتضبط هذا الباب ، لكن لا يبدو أنّ هناك إجماعا على قبول هذه النّظرية ، فالرّافضون لها كثر سواء في القديم والحديث ، ولكن درجة الرّفض لها تتفاوت من داع إلى رفضها مطلقا أو رفض شيء منها .

ومن أولئك النّحاة الذين كان لهم موقف من هذه النّظرية قديما ، قطرب (ت 206 هـ) الذي ينفي قيمة العامل في الأثر الإعرابي ، حيث يقول : " أنّا أعربت العرب كلامها ، لأنّ الاسم في حال الوقف يلزمه السّكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسّكون أيضا لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عن الإدراج ، فلمّا وصلوا وأمكنهم التّحريك ، جعلوا التّحريك معاقبا للإسكان ليعتدل الكلام " [1].

فالمتكلّم يلجأ إلى الحركة الإعرابية عندما يصعب عليه التّسكين في الوصل فحسب دون أن يكون لها أثر في المعنى .

وسُئل مرّة : " فهلاّ لزموا حركة واحدة ؟ فقال : " لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم ، فأرادوا الاتّساع في الحركات ، وألا يحظروا على المتكلّم الكلام إلاّ بحركة واحدة " [2] .

فاستعمال الحركات ــ حسب رأي قطرب ــ هدفه التّوسيع على المتكلّم لا غير ولا دخل لها في تغيّر المعاني .

وممّن نسبوا الأثر الإعرابي للمتكلّم ونفوه عن الحركات الإعرابية ابن جنّي الذي يرفض فكرة العامل كما قررّها سيبويه والنّحاة من بعده ، لكنّه لا ينكر وجود العامل في اللّغة ،يقول في هذا الشّأن : " وإنّما قال النّحويون عامل لفظيّ وعامل معنويّ ، ليروك أنّ بعض العمل يأتي عن لفظ يصحبه " كمررت بزيد "، وليت عمرا قائم ،وبعضه يأتي عاريا من مصاحبته لفظ يتعلّق به

(1) الزّجاجي : الإيضاح في علل النّحو ، ص 70.

(2) المرجع نفسه ، ص 71 .

كرفع المبتدأ بالابتداء ، ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم هذا ظاهر الأمر وعليه صفحة القول ، فأمّا في الحقيقة ومحصول الحديث ، فالعمل من الرّفع والنّصب والجرّ والجزم إنّما هو للمتكلّم نفسه لا لشيء غيره وإنّما قالوا لفظيّ ومعنويّ لما ظهر من آثار فعل المتكلّم بمضامّة اللّفظ ، أو باشتمال المعنى على اللّفظ " [1].

ثمّ يأتي دور ابن مضاء القرطبي (ت 592 ه) الذي يدعو صراحة إلى إلغاء هذه النّظرية، وإلى التّخلّي عن العلل الثّواني والثّوالث في كتابه (الردّ على النّحاة). يقول : " قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النّحو ما يستغني النّحويّ عنه وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه، فمن ذلك ادعاؤهم أنّ النّصب والخفض والجزم لا يكون إلاّ بعامل لفظيّ ، وأنّ الرّفع منها ما يكون بعامل لفظيّ وبعامل معنويّ ، وعبّروا عن ذلك بعبارات توهم في قولنا (ضرب زيد عمرا) أنّ الرّفع الذي في (زيد) والنّصب الذي في (عمر) إنّما أحدثه ضرب ، ألا ترى أنّ سيبويه ــ رحمه الله ــ قال في صدر كتابه : وإنّما ذكرت ثمانية مجار : لأفرّق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدثه فيه العامل وليس شيء منها إلاّ وهو يزول عنه ، وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه ، فظاهر هذا، أنّ العامل أحدث الإعراب ، وذلك بيّن الفساد " [2].

ليأتي العصر الحديث فترتفع أصوات متأثّرة بآراء النّحاة الأوائل وتدعو إلى طرح هذه النّظرية وتنسب التّأثير للمتكلّم كالأستاذ إبراهيم مصطفى الذي يقول بأنّ العامل هو المتكلّم متأثّرا بابن جنّي، وبرفع العلل متأثرا بابن مضاء فيقول في هذا الصّدد : " رأوا أنّ الإعراب بالحركات وغيرها عوارض الكلام تتبدّل بتبدّل التّركيب على نظام فيه شيء من الاضطراد فقالوا عرض حادث لا بدّ له من محدث ، وأثر لا بدّ له من مؤثّر ، ولم يقبلوا أن يكون المتكلّم محدثا هذا الأثر ، لأنّه ليس حرّا فيه يحدثه متى شاء ، وطلبوا لهذا الأثر عاملا مقتضيا وعلّة موجبة، وبحثوا عنها في الكلام ، فعدّدوا هذه العوامل ، ورسموا قوانينها " [3]

(1) ابن جنّي : الخصائص ، ج 1 ، ص 109 ـ 110 .

(2) ابن مضاء القرطبي : الردّ على النّحاة ، ص 76 ــ 77 .

(3) إبراهيم مصطفى : إحياء النّحو ، ص 31 .

ومن الدّارسين الجدد أيضا من أخذ موقفا معاديا لفكرة العامل كما جاء بها سيبويه والنّحاة الأوّلون ، الدّكتور تمّام حسّان ، فهو يرفض فكرة العامل وفي اعتقاده أنّه للوصول إلى المعنى الدّلالي لابدّ من معالجة العلاقات بين الكلمات في الجملة وهو ما يسمّى عنده (بتضافر القرائن).

يقول في كتابه (اللّغة بين المعيارية والوصفية) :" الحقيقة أن لا عامل " ، إنّ وضع اللّغة يجعلها منظمة من الأجهزة ، كلّ جهاز منها متكامل مع الأجهزة الأخرى ، ويتكوّن من الطّرق التّركيبية العرفية المرتبطة بالمعاني اللّغوية ، فكلّ طريقة تركيبية منها تتّجه إلى بيان معنى من المعاني الوظيفية في اللّغة ، فإذا كان الفاعل مرفوعا في النّحو فلأنّ العرف ربط بين فكرتي الفاعلية و الرّفع دون ما سبب منطقي واضح ، وكان من الجائز جدّا أن يكون الفاعل منصوبا ، والمفعول مرفوعا لو أنّ المصادفة العرفية لم تجر على النّحو الذي جرت عليه "[1].

إنّ سيبويه لم يكن مسؤولا عن هذا الانحراف الذي أدّى إلى خروج النّحو عن طبيعته الأوّلية وهي دراسة اللّغة دراسة مبسّطة يفهمها الجميع ، إلى هذا النّوع من التفلسف ، فأمثلة من الكتاب تفضح الرّؤية الميسّرة لفكرة العامل لدى هذا الفذّ .

ففي باب المبتدأ والخبر يقول : " ...فأمّا الذي يبنى عليه شيء هو هو فإنّ المبني عليه يرتفع به كما ارتفع هو بالابتداء ، وذلك قولك : عبد الله منطلق ، ارتفع عبد الله لأنّه ذكر ليبنى عليه الانطلاق ، وارتفع المنطلق لأنّ المبنيّ على المبتدأ بمنزلته " [2].

هكذا فسّر سيبويه العامل والمعمول في الجملة الاسمية ،فالمبتدأ عامل في الخبر والعامل في المبتدأ هو عامل معنوي سمّي بالابتداء وهذا بعيدا عن الخلافات التي ظهرت في هذا الشّأن .

وفي باب المجرورات مثلا يقول سيبويه وهو يتحدّث على المواضع التي يكون فيها الاسم مجرورا :" والجر إنّما يكون في كلّ اسم مضاف إليه ، واعلم أنّ المضاف إليه ينجرّ بثلاثة أشياء :

(1) تمّام حسّان : اللّغة بين المعيارية والوصفية ، مكتبة الأنجلومصرية ، 1958 ، ص 51 .

(2) سيبويه:الكتاب ، ج 1 ، ص 91 .

بشيء ليس باسم ولا ظرف ، وبشيء يكون ظرفا وباسم لا يكون ظرفا " [1].

فعامل الجرّ في المضاف إليه سواء كان المضاف إليه كما هو معروف عندنا اليوم أو كما كان يطلق سابقا على كلّ اسم مجرور ، هو حروف الجرّ أو الظّرف أو الاسم النّكرة .

وأمثلة أخرى عن العامل من الكتاب ، وهذه المرّة ما يخصّ الحروف المشبّهة بالفعل ، فحين يحدّدها يذكر عملها في الجملة فيقول : " وزعم الخليل أنّها عملت عملين : الرّفع والنّصب كما عملت كان الرّفع والنّصب حين قلت : كان أخاك زيد إلاّ أنّه ليس لك أن تقول : كأنّ أخوك عبد الله تريد كأنّ عبد الله أخوك ، لأنّها لا تصرّف تصرّف الأفعال ولا يضمر فيها المرفوع كما يضمر في كان " [2].فقد نصبت اسما ، لأنّها تشبه الفعل، ولكنّها أقل مرتبة منه، فلم يجز تأخير اسمها عن خبرها ولا إضمار مرفوعا فيها ،ولذلك يقول على لسان الخليل :"ومن ثمّ فرقوا بينهما، كما فرّقوا بين (ليس)، و(ما) فلم يجروها مجراها ، ولكن قيل هي بمنزلة الأفعال فيما بعدها ، وليست بأفعال " [3].

وفي باب الشّرط يوضّح سيبويه العامل في الشّرط وجوابه وعلامة إعرابه ، إذ إنّ العامل هو أدوات الشّرط فيقول في هذا الشّأن :" واعلم أنّ حروف الجزاء تجزم الأفعال وينجزم الجواب بما قبله ، وزعم الخليل أنّك إذا قلت : إن تأتني آتك، فآتك انجزمت ، " بإن تأتني " كما تنجزم إذا كانت جوابا للأمر حين قلت : ائتني آتك " [4].

سواء انجزم فعل الشّرط بالأداة ، وانجزم الجواب بالجوار ، أو انجزم الفعل والجواب بقوّة الأداة تبقى مسألة لغوية بحتة وإن عطّلت وأخّرت مسيرة النّحو وصعّبت من شأنه . ولا فرق فيما إذا كان العامل موجودا أو في حكم المضمر أو المحذوف ، فالواجب يقتضي تقديره حتى تتحقّق القاعدة القائلة : بأنّ لكلّ معمول عاملا يؤثّر فيه .

(1) سيبويه:الكتاب ، ج 1 ، ص 343 .

(2) المرجع نفسه ، ج 2 ، ص 93 .

(3) المرجع نفسه ، ص 93 .

(4) المرجع نفسه ، ج 3 ، ص 48 .

ففي باب الابتداء يتحدّث سيبويه عن المبتدأ والخبر المحذوفين ويخصّص لكلّ واحد بابا فرعيا ، فيسمّي الأوّل :" هذا باب من الابتداء يضمر فيه ما يبنى على الابتداء "[1] ، ويسمّي الثّاني : " هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمرا ويكون المبني عليه مظهرا" [2]. فالخبر يحذف لكثرة استعمالهم إيّاه في الكلام فصار معروفا مقدّرا ، والمبتدأ كذلك .

يقول سيبويه : "وذلك أنّك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت : عبد الله وربّي ، كأنّك قلت : ذاك عبد الله أو هذا عبد الله " [3].

فسيبويه يستعمل مصطلحي الحذف والإضمار ، فهذا الأخير دال على أنّ إخضاع المبتدأ والخبر يكون من البنية السّطحية ، وأنّ هناك بنية أخرى يقدّرها أو يتصوّرها المحلّل النّحوي، وهي قابعة في ذهن المتكلّم ، والسّياق وحده هو الذي يحدّد أو يبيّن ذلك "[4].

إنّ سيبويه نظر إلى فكرة العامل نظرة لغوية مستبصرة ، درس اللّغة واستنبط أحكامها ولاحظ المطّرد منها فبني عليه قواعده وابتعد عن كلّ تأويل قد يفلسف النّحو أو يعقّده ، وقد أفصح عن مراده من أوّل وهلة وكشف عن نواياه في هذه القضية وبيّن أنّ الغرض من تتبّع الحركات ما هو إلاّ تفريق بين ما هو معرب تتغيّر حركاته بتغيّر الحركات الدّاخلة عليه ، وما هو مبنيّ يحافظ على شكله رغم تغيّر العوامل ، فيقول في " باب مجاري أواخر الكلم من العربية "، وهذه المجاري الثمانية يجمعهنّ في اللّفظ أربعة أضرب : فالنّصب والفتح في اللّفظ ضرب واحد، والجرّ والكسر فيه ضرب واحد وكذلك الرّفع والضمّ والجزم والوقف " [5].

ثمّ يشرح السّبب الذي دعاه إلى ذكر هذه الأضرُب فيقول : " وإنّما ذكرت لك ثمانية مجار لأفرّق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل ــ وليس شيء منها إلاّ وهو

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 2 ، ص 91 .

(2) المرجع نفسه ، ص 92 .

(3) المرجع نفسه ، ص 92 .

(4) محمد إبراهيم عبادة : النّحو التّعليمي في التراث العربي ، ص 151 .

(5) سيبويه:الكتاب ، ج 1 ، ص 39 .

يزول عنه ــ وبين ما يبني عليه الحرف بناءً لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التي لكلّ عامل منها ضرب من اللّفظ في الحرف وذلك الحرف حرف إعراب "[1].

ولا شكّ في أنّ تتبّع أواخر الكلم وحصر العامل من الطرائق المهمّة في تعليم النّحو ، الأمر الذي دفع **عوض حمد القوزي** عند دراسة للمصطلح النّحوي ليقول : " فالحركات مثلا بعدما كانت محدّدة عند الخليل يختصّ بعضها بالأفعال والبعض الآخر بالأسماء ، وهذه بصدور الكلم، وتلك بأعجازها أو أواسطها ، عمد سيبويه إلى (الرّفع والنّصب والجرّ والجزم) فجعلها علامات للإعراب مختصّة بأواخر الكلمات من أفعال غير متمكّنة ، كما عمد إلى (الضمّ والفتح والكسر والوقف) فجعلها علامات للبناء في الفعل المتمكّن والاسم غير المتمكّن ، مبيّنا أنّ أواخر الكلم تحوي على هذه المجاري الثمانية ، **ولعلّ في اقتصاره على الاهتمام بأواخر الكلم يعطي الدّليل على أنّ كتابه وضع للمتعلّمين لا للعلماء ، إذ رام الاختصار والتّبسيط وابتعد عن حشوه بكلّ دقيق وجليل ، فقدّم خلاصة وافية ، ألمّت بجميع وسائل النّحو ، وقد وضعت بطريقة يتجلّى فيها الأسلوب العلميّ لعرض المسائل في تلك العصور** " [2].

فكلّ الخلافات التي دارت حول طبيعة العامل أهو للمتكلّم أم لغيره لا يزيد النّحو إلاّ تعقيدا، والتّسليم بوجود العوامل اللّفظية والمعنوية ــ في اعتقادنا ــ هو الحلّ الأمثل ،إذ هي عبارة عن أمارات تهدي المتعلّم إلى تتبّع العرب في كلامها ، فيسهل له الأمر بعد ذلك ، وهذا ما جعل عبد القاهر الجرجاني يؤلف كتابه النّحوي فيحصر العامل في كتابه المشهور (العوامل المئة النّحوية) زد على ذلك أين هذا المتعلّم الذي يدرك مواضع الرّفع فيرفع ومواضع النّصب فينصب ؟ أليس هذا من اختصاص أهل اللّغة والسليقة؟ وإذا وجد مثل هذا المتكلّم فما الفائدة من تعلّم النّحو ؟ .

وختاما لهذا المبحث لا نجد أفضل من قول الأستاذ (عباس حسن) نورده في هذا الشّأن عندما ردّ على أولئك المخالفين في هذه القضية بقوله : " لا يعنينا من العامل أن يكون هو المتكلّم ، أو هو المعنوي ، أو هو اللّفظ ظاهرا ،أو مقدّرا أو محذوفا ...، فذلك أمر سطحي شكليّ

(1) سيبويه:الكتاب ، ج 1 ، ص 39 .

(2) عوض حمد القوزي : المصطلح النّحوي ، ص 122 .

بحت ، وربّما اقتضانا الإنصاف وحبّ التّيسير أن نميل إلى جانب العامل بنوعيه (المعنوي واللّفظي) ، وتنصرف عن العامل بمعنى (المتكلّم)، ذلك أنّ العامل اللّفظي والمعنوي يسهل على المستعرب ومتعلّم اللّغة والنّاشئ فيها أن يراه أو يسمعه إن كان حسّيّا ، ويدركه إن كان معنويا، فيضبط كلماته وألفاظه وفاق ما يحسّ ويدرك في سهولة وخفّة ، يرى الفعل أمامه فيعلم أنّه يتطلّب فاعلا مرفوعا ، وقد يتطلّب مفعولا به أو أكثر ، ويرى الاسم بعد الفعل فيضبطه مرفوعا أو منصوبا ، بحجّة أنّه فاعل أو مفعول ...أو...أو.... ويرى حرف الجرّ والمضاف فيعرف أنّ كلاّ منهما يحتاج إلى مجرور ، فيجرّ الاسم بعدهما ، ويرى المبتدأ أو المضارع فيبادر إلى رفعهما... وهكذا، فوجود هذا العامل يسهل على المتكلّم والكاتب الإهتداء إلى الحركة المطلوبة والضّبط الصّحيح فيما يقع بعدهما ، وكأنّ هذا العامل أمارة قاطعة على المطلوب ، ورائدا لا يضلّل "[1].

بعدما استعرض الأستاذ مزايا العامل بنوعيه اللّفظي والمعنوي وفائدته في الدّرس النّحوي كيف أنّه مساعد ودليل قويّ بالنّسبة لمتعلّم اللّغة ، طفق يتحدّث عن العامل (المتكلّم) وكيف أنّه يعوق حركة التّعليم ولا يتسنّى للجميع فهم القضية وإتقان الكلام وفقها .

يقول الأستاذ : " أمّا العامل المتكلّم فلن يعرف ضبط أواخر الكلمات ، وما يتصّل بها وما ينشأ عن تصرّفها إلاّ إذا كان عربيّا أصيلا ، ينطق اللّغة العربيّة بفطرته ، وتجري على لسانه طائعة بغير أمارات مرشدة ، ولا علامات توحي إليه بالضّبط ، وتبيّن ما يتطلّبه المقام من حركة دون حركة ، ومن ضبط دون آخر، فالآخذ برأي الجمهرة في أمر العامل إنّما هو يأخذ بالأيسر، عملا وتطبيقا ، وإفادة بالرغم من أنّه ليس هو الحق في الواقع المقطوع به ... "[2].

رابعا : التّعليل التّعليميّ :

يعتبر التّعليل ميزة وسمة موجودة في الإنسان منذ أن وجد على ظهر البسيطة فهو يحاول أن يراقب كلّ ما يدور حوله من ظواهر طبيعية وكونية فيحاول أن يجد لها تفسيرا سائلا عن حقيقتها وكيفية حدوثها.

(1) عباس حسن : اللّغة والنّحو بين القديم والحديث ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ،(د ت)، ص200 .

(2) المرجع نفسه ، ص 201 .

والقرآن الكريم باعتباره يدعو إلى العلم وإلى التفكّر والتدبّر في آيات الله ، يحثّ الإنسان على إعمال عقله ليتوصّل إلى الحقيقة المؤدّية إلى الإيمان به عزّ وجلّ .

ففي آيات كثيرة نلمس هذه الدّعوة فيقول مثلا : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

كما يقول : ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ﴾ [2] .

ويقول في آية أخرى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[3].

والعرب حين كانت تتكلّم سليقة، كان التّعليل لصيقا بها فهي تتكلّم على سجيتها وطباعها، والنّص الذي أورده الزّجاجي عن الخليل حينما سئل عن العلل التي يعتلّ بها لخير دليل على ما نقول .

روى الزّجاجي عن بعض شيوخه : " أنّ الخليل بن أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ سئل عن العلل التي يعتلّ بها في النّحو فقيل له : عن العرب أخذتها ، أم اخترعتها من نفسك ؟ فقال : إنّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقام في عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها، واعتللت أنا بما عندي أنّه علّة لما علّلته منه ، فإن أكن أصبت العلّة ، فهو الذي التمست، وإن تكن هناك علّة ، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء، عجيبة النّظم والأقسام ، وقد صحّت عنده حكمة بانيها بالخبر الصّادق ، أو بالبراهين الواضحة، والحجج اللاّئحة ، فكلّما وقف هذا الرّجل في الدّار على شيء منها ، قال : إنّما فعل هذا هكذا لعلّة كذا وكذا ، ولسبب كذا وكذا سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك ، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدّار ، فعل ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الذي دخل الدّار ، وجائز أن يكون فعله لغير تلك

(1) سورة الذّاريات ،الآية 21

(2) سورة العنكبوت ، الآية 20 .

(3) سورة محمّد ، الآية 24 ،

العلّة، إلاّ أنّ ذلك ممّا ذكره هذا الرّجل محتمل أن يكون علّة لذلك، فإن سنح لغيري علّة لما علّلته من النّحو هي أليق ممّا ذكرته بالمعلول فليأت بها " [1] .

ومعنى هذا أنّ التّعليل سجيّة في الإنسان ، وأنّ العرب كانت تعلّل الظّواهر اللّغوية دون أن تصرح بذلك ، فلمّا بدأت نشأة النّحو بدأت معه نشأة العلل النّحوية جنبا إلى جنب ، فبها تفسّر الظّواهر اللّغوية والنّحوية وبها يجاب عن أسئلة المتعلّمين .

فالنّحاة لهم فضل اكتشاف هذه العلل وفضل التسمية عند استقرائهم لكلام العرب. والمتصفّح لكتاب سيبويه يجده يحوي عددا لا يحصى من العلل ، بل هو كتاب تعليل بامتياز فلا تكاد تمرّ صفحة من صفحات الكتاب إلاّ ولمسنا تعليلا لقضية من القضايا حتى وإن لم يصرّح بلفظ العلّة ، الأمر الذي جعل الدّارسين يتحفّظون حول الكتاب وأي زاوية يمكن أن يشغلها هذا المصنّف، فنظرا لهذه التّعليلات عدّ من الكتب العلميّة التي لا تصلح للتّعليم ، بيد أنّ الاستثناءات كثيرة في هذا الشّأن ، فسيبويه مدّ القياس وأكثر من العلل ولكن لم يكن هو مكتشفها ولا هو من أبدعها بل له فضل في حركة التوسّع لا غير ، يقول مازن المبارك : " وإذا كان لسيبويه فضل في حركة التّعليل ، فهو فضل في التوسّع والإكثار ممّا كان نزرا قليلا عند شيوخه المتقدّمين ، وهو فضل في دقة السّير على منهجهم في الاستنتاج والقياس حتى بات كتابه يعلّم البحث والنّظر و القياس كما يعلّم النّحو سواء بسواء " [2] .

زد على ذلك فالعلّل التي يحتاج إليها في التّعليم كثيرة ومقبولة لدى كلّ النّحاة بل هي ضرورية في تعلّم الدّرس النّحوي ، حتّى عند أولئك الذين دعوا صراحة إلى إلغائها كونها تضفي على النّحو نوعا من الفلسفة والجدل .

(1) الزّجاجي أبو القاسم : الإيضاح في علل النّحو ، ص 65 .

(2) مازن المبارك : النّحو العربي ، العلّة النّحوية نشأتها وتطوّرها ، دار الفكر ، بيروت ، ط 3 ، 1981 ، ص 63 .

وقد قسّم أبو القاسم الزّجاجي العلل إلى ثلاثة أقسام وبيّن خصائص كلّ نوع منها قائلا: "أقول أوّلا إن علل النّحو ليست موجبة ، وإنّما هي مستنبطة أوضاعا ومقاييس ، وليست كالعلل الموجبة للأشياء المعلولة بها ، ليس هذا من تلك الطّريق ، وعلل النّحو بعد هذا على ثلاثة أضرب : علل تعليمية ، وعلل قياسية وعلل جدلية نظرية .

فأمّا التّعليمية فهي التي يتوصّل بها إلى تعلّم كلام العرب ، لأنّ لم نسمع نحن ولا غيرنا كلاّ منها لفظا ، وإنّما سمعنا بعضا فقسنا عليه نظيره ، مثال ذلك أنّا لمّا سمعنا قام زيد فهو قائم، وركب فهو راكب ، عرفنا اسم الفاعل فقلنا ذهب فهو ذاهب ، وأكل فهو آكل وما أشبه ذلك، وهذا كثير جدّا وفي الإيماء إليه كفاية لمن نظر في هذا العلم .

فمن هذا النّوع من العلم قولنا : إنّ زيدا قائم ،إن قيل لم نصبتم زيدا ؟قلنا : بأن ، لأنّها تنصب الاسم وترفع الخبر لأنّ كذلك علمناه ونعلّمه وكذلك قام زيد ، إن قيل لم رفعتم زيدا؟ قلنا:لأنّه فاعل اشتغل فعله فرفعه، فهذا وما أشبه من نوع التّعليم، وبه ضبط كلام العرب" [1].

كما قسّمها ابن السّراج على ضربين : " أحدهما علّة تطرد على كلام العرب وتنساق إلى قانون لغتهم، والآخر : علّة العلة وهذا ليس يكسبنا أن نتكلّم كما تكلّمت العرب وإنّما يستخرج منه حكمتها في الأصول التي وضعتها " [2]، وجعلها ابن مضاء القرطبي على ثلاثة أضرب : علل أوّل ، وعلل ثوان وعلل ثوالث .وكما بيّن النّحاة أنواعها تكلّموا كثيرا في شروطها وصفاتها وذكروا مسالكها، وفصّلوا القول في قواعدها وكيفية الطعن فيها ونقضها. وتوضّح خديجة الحديثي في معرض حديثها عن أحكام العلل فتقول : " موجز ما ذكره الزّجاجي في

(1) الزّجاجي أبو القاسم : الإيضاح في علل النّحو ، ص 64 .

(2) ينظر : ابن السّراج : الأصول في النّحو ، ص 35 .

الإيضاح أنّ العلل ثلاث لكلّ منها حكمها ، **فالتّعليمية يتوصل بها إلى معرفة كلام العرب فهي ضرورية لتحقيق غاية النّحو التّعليمية** " [1] .

ثمّ تقول : " وعدّ من العلل التّعليمية كلّ ما يتصّل بالاستفسار عن موضع كلّ كلمة رفعت أو نصبت أو جرّت أو جزمت ، وعن سبب إعطائها هذه الأحكام وعن العلل فيها في كلّ من هذه الأحكام "[2] .

ولاشكّ أنّ سيبويه كان واضحا كلّ الوضوح عند إيراده للعلّة إذ لم تكن هذه الأخيرة غاية عنده بل كان يأتي بها بشكل بسيط ومباشر لتفسير ظواهر اللّغة وتوضيحها. والملاحظ أنّ جميع العلل التي وردت في الكتاب تكاد تكون من النّوع الأوّل المؤدّي إلى تعلّم كلام العرب.

والأمر لا يتوقف عند العلل الأوّل بل يتعدّى ذلك إلى العلل القياسية فهي أيضا ذات فائدة كبيرة في تعلّم كلام العرب ووجودها ضروري ، وقد اعتمد سيبويه على الكثير من هذه التّعليلات وقد جاء بها بشكل لا غلوّ فيه ولا شطط ، بل جاءت مفهومة واضحة لدى المتلقّي .

يقول أحمد حسّاني في بحثه (النظام النّحوي العربي بين الخطاب الفلسفي والخطاب التّعليمي) : " إنّ القياس الذي استند فيه إلى إحدى العلّتين ، التّعليمية أو القياسية ، إنّما يجانس طبيعة اللّغة وخصائصها ، دون القياس الذي اعتمد على العلّة الجدلية النّظرية ، فنحا نحو الفلسفة واتّسم بسمتها وغدا صناعة بل رياضة عقلية ونشاطا ذهنيا ، وجعل التّعليل أصلا وغاية لا وسيلة وحاجة " [3] .

ومعنى هذا فإنّه يدخل ضمن العلل التي يتعلّم بها كلام العرب ما يسمّيه النّحاة العلل الأوّل والعلل الثواني فكلّها صالحة لهذا الشّأن. وللدّكتور مازن المبارك نفس الرّأي تقريبا إذ

(1) خديجة الحديثي : المدراس النّحوية ، دار الأمل ، الأردن ، ط 3 ، 1422 هـ /2001 م ، ص 74 .

(2) خديجة الحديثي : دراسات في كتاب سيبويه ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، 1980 ، ص 164 .

(3) أحمد حسّاني: النظام النّحوي العربي بين الخطاب الفلسفي والخطاب التّعليمي، مجلة ثقافات، 2004،جامعة وهران، ص37.

يقول : " لقد جعل الزّجاجي العلل تعليمية وقياسية وجدلية نظرية ، وما كان له أن يجعلها كذلك ولا أنّه نظر إليها على أنّ منها ما هو ضروري لتحقيق غاية النّحو التّعليمية إذ بالعلل يتوصّل إلى معرفة كلام العرب ومنها ما هو ضروري لتحقيق غاية العربية ، إذ بالعلل القياسية يمكن أن نجاري العرب فنقيس على كلامهم فنكفل للغة استمرار حياتها ونمائها (.....) ومن تلك العلل بعد ذلك علل ليس للنّحو فيها نصيب ، ولا للغة منها نفع (.....) وهي العلل التي تدخل في باب النّظر والجدل "[1] .

وعند تعاملنا مع كتاب سيبويه نجده كتاب تعليل ، فلا تمرّ جزئية من جزئياته دون ذكر العلّة، فقد يعلّل سبب الرّفع أو الجزم أو النّصب أو الجرّ ، وقد تكون العلّة للمشابهة أو المجاورة أو تكون للاستثقال أو طلب الخفّة أو أمن اللّبس . المهم أن يعطي تفسيرا لكلّ شاردة أو واردة بأسلوب مفهوم بيّن.

خامسا : الأساليب التّعليميّة عند سيبويه :

لقد اتّسم تعليم النّحو للقرون الأولى عند النّحاة سيما عند سيبويه بمناهج وأساليب عدّة[2] تهدف كلّها إلى تمكين الدّارس من تعلّم النّحو العربي حقيقة وعلى الوجه الذي جاء به. وقد عني النّحاة القدامى بطرائق التّعليم وخصّوها بعناية فائقة، لأنّ بها فقط يستطيع المتلقّي أن ينجح في درسه، ولا يمكن لهذا الأسلوب أو ذاك أن يكون ناجحا إلاّ إذا روعي فيه الفروق بين المستويات التّعليمية ، فما يصلح للكبار ليس بالضرورة أن يكون ملائما لصغار السّن ، وما يختصّ به الباحثون الذين قطعوا شوطا في الدّرس يختلف كلّ الاختلاف عمّا يقدّم للمتعلّمين من الطّبقة الوسطى ، فكلّ ما يقدّم للدّرس فهو نحو ولكن الاختلاف يكمن في كمية ما يقدّم من

(1) مازن المبارك : العلّة النّحوية نشأتها وتطوّرها ، ص 98 .

(2) مثنّى علوان الجشعمي : النّحو وطرائق تدريسه من القرن الأول للهجرة إلى القرن الرّابع للهجرة ،مجلّة ديالى،بغداد ، العدد السّادس والعشرون ، 2007 ،ص163 وما بعدها .

هذه المادّة ودرجة التعمّق فيها . فالدّارسون والمتتبّعون للشّأن النّحوي قد أشاروا إلى الكيفية التي كانت تقدّم بها هذه المادّة، وإلى المنابر التي تلقى من خلالها فقد أطلعونا على أنّ التّعليم كان يجري في المساجد من خلال حلقات الدّرس وكذا منابر الخلفاء والملوك وغيرها ، إضافة إلى ما قلنا، فقد كثرت الفئات التّعليميّة الرّاغبة في تعلّم النّحو، وتتراوح هذه الفئات بين طبقات الكتّاب والأدباء وطبقة العلماء في القراءات والحديث والتّفسير والفقه ، بل هناك من الدّارسين من يريد أن يصير من علماء اللّغة نحوها وصرفها ، ولابدّ لهم حينئذ أن يتمكنّوا من هذه المادّة ويفهموا قوانينها فيصيبوا بذلك لغة العرب قراءة وكتابة .

وقد أشار محمّد إبراهيم عبادة إلى هذه المستويات بقوله : " ويمكن أن نتبيّن المستويات التّعليميّة منحصرة في مستوى المبتدئين ، ومستوى الشّادين ، ومستوى المتخصّصين ، وهؤلاء المتخصّصون فيهم من الأدباء والكتّاب والفقهاء والمفسّرين وغيرهم " [1] .

فلكلّ مستوى من المستويات طريقة في التّعليم ولكلّ منها حدّ لا يمكن تجاوزه حتى لا تختلّ درجة الاستيعاب .

وفي نفس السّياق يحدّثنا علي أبو المكارم عن هذه المستويات التّعليمية ومتطلّبات كلّ مرحلة نظرا للأهمية الكبيرة التي يشغلها هذا الجانب فقال : " ومن الثّابت علميّا وعمليّا معا أنّ المتعلّمين لا يمثّلون مستوى واحدًا كما ذكرنا ، وأنّ منهم مبتدئين لم يتّصلوا بالنّحو ولم يعرفوا موضوعاته وقضاياه ومسائله ،ومتقدّمين أحاطوا بموضوعاته وألمّوا بقضاياه ، ومتوسّطين علموا منه طرفا أو أطرافا ، أو علموا ظواهره ولم يقفوا على خفاياه ، أو علموا ضوابطه ولم يتصّلوا بعد بما وراءها من أصول " [2] ، ثمّ قام بتوضيح خصائص كلّ صنف والفئات التي تنتمي إليه ،فقد أشار إلى أنّ فئة المبتدئين تضمّ في ثناياها أبناء رجال الدّولة الذين من الضّروري أن يلمّوا بقدر

(1) محمد إبراهيم عبادة : النّحو التّعليمي في التراث العربي ، ص 83 .

(2) علي أبو المكارم : تعليم النّحو العربي ، ص 119.

من العلوم يؤهلهم لشغل ما يسند إليهم من وظائف ، ومنهم أبناء كبار التّجار ومن على شاكلتهم من أبناء الطّبقة الوسطى والذين يعتبرون العلم شكلا من أشكال الوجاهة الاجتماعية ، ومنهم أبناء العامّة الذين يجعلون من العلم مطيّة للهروب من الفقر، والظّفر بوضع أكثر أريحيّة ، وكذلك أبناء المشتغلين بالعلم أنفسهم ، من فقهاء وقضاة ومعلّمين ونحوهم ممّن يطمعون بالمراتب القيادية ، وكلّ هؤلاء يمثّل النّحو بالنّسبة إليهم المفتاح الذي تحصّل به جميع العلوم [1].

ربّما يقول قائل ما علاقة كلّ هذا بكتاب سيبويه ، والجواب هو أنّ المستوى التّعليمي من الإشكالات الكبرى التي تطرح عند حديثنا عن الكتاب ، فهذا الأخير بغموض أسلوبه وطريقة تبويبه وعرضه للمسائل النّحوية ، ومصطلحاته الملتبسة في كثير من الأحيان يوحي بعدم استجابته لخصائص المتعلّمين، أو بعبارة أخرى فهو لا يلائم المستويات التّعليمية وعليه فهو مخصّص للبحث العلمي دون سواه .

ولكن قبل أن نمضي قدما في عرض الأساليب التّعليميّة التي اعتمدها سيبويه في كتابه ـ حسب اعتقادنا ـ دعونا ننبّه إلى أنّ التميّز و الاستمرارية لا تتاح إلاّ للقلّة القليلة ممّن تقدّموا إلى الدّرس النّحوي ، فكلّما تعمّقنا أكثر في الدّرس قلّ العدد ، وهذا ما نراه عند سيبويه، فالتّراجم تخبرنا عن تلاميذ سيبويه كأبي الحسن الأخفش وقطرب والنّاشي [2] ، فهل يعقل أنّه لم يعلّم إلاّ أولئك؟، فلا شكّ أنّ العشرات من الذين التحقوا بحلقات الدّرس عند سيبويه ، قد اختلفت مستوياتهم ولم تتح لهم الفرصة ليظهروا كما ظهر هؤلاء .

ملاحظة أخرى ينبغي الإشارة إليها، هل يعقل أن يكون لكلّ المستويات نفس المحتوى؟ فالعقل يقول أنّ انتقاء ما يلائم كلّ مستوى هو المعمول به، سواء عند سيبويه أو غيره من النّحاة، فكثيرا ما كان يقال أنّ النّحاة قد اختاروا لأولادهم مؤدّبين أكفاء يعلّمونهم بعض المختصرات

(1) علي أبو المكارم : تعليم النّحو العربي ، ص 120 .

(2) سيبويه: الكتاب ، ج 1 ، ص 15 .

التي أعدّت خصّيصا لتوافق مستوياتهم، فمن أين جاءت هذه المختصرات ؟ أليست من كتاب سيبويه ؟ ثمّ أنّ هذه الميزة ـ في نظري ـ ليست خاصة بهؤلاء وليست غائبة عن سيبويه، كما أنّ نحو هؤلاء لم يكن من السّهولة بمكان حتى يقدّم إلى هذه الطّبقات الدّنيا من التّعليم لولا الاختصار والانتقاء .وإذا تصفّحنا الكتاب لمسنا عدّة أساليب تجسّدها خطاباته اتّجاه المتعلّمين، سنحاول أن نستعرضها الواحد تلو الآخر مقدّمين الأمثلة الموضّحة لطرحنا .

(أ) ــ أسلوبا التّلقين و التّقرير :

من الأساليب التي كانت شائعة كثيرا في تعليم النّحو أو العلوم الأخرى ، أسلوبا التّلقين والتّقرير ، فلا شكّ أنّ المتعلّمين كانوا يعتمدون كثيرا على الحفظ باعتباره الطّريقة المثلى لتكوين الملكة اللّغوية ، ونجد هذا واضحا في الكتاب ، فقد كان سيبويه يقرّر القاعدة النّحوية ويلقنّها ويدعو إلى حفظها بادئ الأمر ثمّ يبدأ في التّفصيل والتّمثيل وتوضيح سبل العرب في كلامها .

فنراه يستعمل فعل الأمر " اعلم " وهو فعل أمر من الثلاثي بمعنى " تعلّم " ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في باب الفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى ثلاثة مفاعيل. يقول سيبويه : " واعلم أنّ هذه الأفعال إذا انتهت إلى ما ذكرت لك من المفعولين فلم يكن بعد ذلك متعدّي تعدّت إلى جميع ما تعدّى إليه الفعل الذي لا يتعدّى الفاعل "[1] ، فهو في هذه الحالة يقرّر ويلقّن القاعدة الثابتة بما لا يدع مجالا للشكّ . ولا يجدر للطّالب أن يناقش مدى صحّة هذه المعلومة فما عليه إلاّ أن يفهمها ويطّبق عليها .

والأمثلة كثيرة في الكتاب لمن أراد أن يطّلع، وفي الإشارة إليه كفاية ، ولا شكّ أنّ هذا الأسلوب شبيه إلى حدّ كبير بأسلوب المحاضرة الذي يطبّق اليوم في جامعاتنا ، فهو أسلوب يعتمد على حديث المحاضر ، بسبب غزارة علمه ، وغزارة المادّة المقرّرة، وارتفاع مستوى الذّكاء عند

(1) سيبويه: الكتاب، ج1 ، ص 61 .

الطّلاب " [1]، فالطّلبة في هذه السّن يمتلكون القدرة على استيعاب المادّة وتسجيل الملاحظات. لكنّ هذا النّوع من التدريس تشوبه بعض العيوب كعدم مشاركة المتعلّمين واعتمادهم على المحاضر، ويجدر بنا القول ، إنّ هذا لا ينطبق تماما على التّعليم عند سيبويه فأساليبه متنوّعة نوردها في حينها ، والطّالب عند سيبويه لا يعرف الرّاحة والدّعة .

ونستشف أيضا من خطابات سيبويه نوعا آخر من الأساليب، تعتمد في العصر الحديث، وهو ما يسمّى بالطّريقة القياسية [2]، وهذه الطّريقة تبدأ بالكلّيات، ثمّ تنتقل إلى الجزئيات، أي يعطي التلاميذ القاعدة أو التّعاريف أوالقوانين والحقائق العامة ثم تطبّق الأمثلة عليها، وسيبويه يعتمد هذا النّوع من الأساليب حتى في عرض الأبواب ، فهو يعطي الباب العام الذي تنضوي تحته الأبواب الفرعية ثمّ يشرع في التّفصيل بابا بابا .

(ب) ــ طريقتا الحوار والمناظرة :

وهي من الأساليب الشّائعة آنذاك والتي لا زالت تستعمل إلى يومنا هذا خاصة الأسلوب الحواري ، فبالنّسبة إلى المناظرة فإنّها تتمّ بين نِدّين أحدهما يقابل الآخر ، يمتلكان نفس الكفاءة تقريبا ، وكلّ طرف يريد أن ينتصر لفكرته بالحجج والبراهين الدّامغة ولعلّ أبرز مثال على ذلك ما جرى بين سيبويه والكسّائي في مجلس الرّشيد(في مايسمّى بالمسألة الزّنبورية)، ومهما قيل في هذه المسألة فلا يسعنا القول إلاّ أنّها أسلوب تعليميّ ، لأنّ كلّ طرف يحاول أن يهزم خصمه فيأتي بالأمثلة التي تؤيّد موقفه ، للوصول إلى النّتيجة المرجوّة؛ صحيح أنّ الأطراف المتعلّمة من الخاصّة ويمثلون قلّة، ولكن الفائدة التّعليميّة قد تنتشر كالنّار في الهشيم لتصل إلى أصقاع الدّنيا ليستفيد منها الجميع.

(1) عبد الفتّاح حسن البجّة : أصول تدريس العربية ، ص 255 .

(2) المرجع نفسه ، ص 13 .

أمّا الأسلوب الحواريّ فقد فرض نفسه في التّدريس قديما وحديثا ، وهو من الأساليب المحبّذة والمطلوبة في التّربية والتّعليم، وهو أن يتبادل الحديث طرفان أو أكثر عن طريق طرح الأسئلة والإجابة عنها حول موضوع من المواضيع ، ليصل المتلقّي في الأخير إلى تكوين حوصلة أو مجموعة من المعارف أو المواقف التي تسنده خلال مسيرته العلميّة ، زد على ذلك فهو من الأساليب القرآنية فنجد الكثير من الحوارات الشّيقة التي حدّثنا عنها القرآن الكريم والتي بقيت راسخة في الأذهان كالحوار الذي جرى بين موسى عليه السّلام وقومه، أو بين إبراهيم وقومه ولعلّها من أمتع ما قرأنا لأنّها تترك في النّفس وقعا لن ينسى .

إنّ أسلوب التّحاور أو السّؤال والجواب يستدرج المتعلّم من معلومة إلى أخرى ويقرّبه من الحلّ باتّباع أيسر الطّرق وبأقل جهد تعليميّ ، وهذا النّوع من التّدريس يطلق عليه حديثا بالطّريقة (السّقراطية) نسبة إلى الحكيم اليوناني (سقراط)[1]، لأنّه كان يستخدمها كثيرا أو ربّما هو أوّل من عمل بها .

ويحمل هذا الأسلوب مزايا كثيرة سواء للمعلّم أو المتعلّم ، فبالنّسبة للمعلّم فإنّه يخفّف عنه العبء ، ويجعله يتقاسم الجهد بينه وبين المتعلّم على شكل عقد تعليميّ تربويّ ، أمّا بالنّسبة للمتعلّم فهو يجعل منه متعلّما إيجابيا يشارك في صياغة قراراته وتعلّماته، وبالتّالي يبعده عن الملل والضّجر ويحبّب إليه المادّة المراد تدريسها .

وليس سيبويه بدعا من أولئك الذين استعملوا هذه الطّريقة فبمجرّد قراءتك لكتابه تقف على هذه الحقيقة ، بل تكاد تجزم أنّه أسلوبه المفضّل، فهو يتقاسم الأدوار مع المتعلّم دورا دورا، فيقرّر له القاعدة ثمّ يبدأ في التّفصيل ، يشرح له ، ويتوقع له تدخلاّ فيعقّب عليه وهكذا، فسيبويه وهو يستعمل هذا النّوع من الخطاب ، تراه وكأنّه يفترض محاورا أمامه يتبادل معه

(1) ينظر : عبد الفتّاح حسن البجّة : أصول تدريس العربية ، ص14.

أطراف الحديث وكأنّه في حلقة الدّرس، أو كأنّه ينقل ما يحدث شفهيا بينه وبين التلاميذ ويترجمها على شكل مكتوب محدثا مايعرف اليوم بالمنولوج .

لقد أورد لنا سيبويه طريقة حواره مع الخليل حتى وهو طالب في حلقة الدّرس ، ففي باب النّداء [1] مثلا يذكر لنا هذا الحوار الطويل،وهو عبارة عن سؤال وجواب يقول سيبويه: " وزعم الخليل رحمه الله أنّهم نصبوا المضاف نحو يا عبد الله ويا أخانا ، والنّكرة حين قالوا: يا رجلا صالحا ، حين طال الكلام ، كما نصبوا : هو قبلك وهو بعدك ، ورفعوا المفرد كما رفعوا قبل وبعد وموضعهما واحد ، وذلك قولك : يا زيدُ ويا عمرو ، وتركوا التّنوين في المفرد كما تركوه في قبل .

قلت : أرأيت قولهم يا زيدُ الطّويلَ علام نصبوا الطّويل ؟

قال : نصب لأنّه صفة المنصوب ، وقال : وإن شئت كان نصبًا على أعني.

فقلت : أرأيت الرّفع على أيّ شيء هو إذا قال يا زيدُ الطّويل ؟

قال : هو صفة لمرفوع .

قلت : ألست قد زعمت أنّ هذا المرفوع في موضع نصب ، فلم لا يكون كقوله لقيته أمس الأحدث ؟

قال : من قبل أنّ كلّ اسم مفرد في النّداء مرفوعا أبدًا ، وليس كلّ اسم في موضع أمس يكون مجرورا ـ فلمّا اطّرد الرّفع في كلّ مفرد في النّداء صار عندهم بمنزلة ما يرتفع بالابتداء أو بالفعل فجعلوا وصفه إذا كان مفردا بمنزلته .

قلت : أفرأيت قول العرب كلّهم :

أَزيدُ أخا وَرْقَاءَ إن كنتَ ثائرًا فقد عَرَضَتْ أحْناءُ حقٍّ فخاصِمِ

(1) سيبويه:الكتاب ، ج 2 ، ص 130 .

لأيّ شيء لم يجز فيه الرّفع كما جاز في الطّويل ؟ .

قال : لأنّ المنادى إذا وصف بالمضاف فهو بمنزلته إذا في موضعه ولو جاز هذا لقلت : يا أخونا تريد أن تجعله في موضع المفرد وهذا لحن ، فالمضاف إذا وصف به المنادى فهو بمنزلته إذا ناديته لأنّه هنا وصف لمنادى في موضع نصب كما انتصب حيث كان منادى لأنّه في موضع نصب ولم يكن فيه ما كان في الطّويل لطوله " [1] .

إلى آخر الحوار الذي دار بين المعلّم والمتعلّم فالسّائل يسأل عن أشياء رفعت أو نصبت وعلاقتها بغيرها من العبارات والمعلّم يجيب ويبرهن ويعلّل وهو عبارة عن استدراج للوصول إلى المفهوم العام ، ولا شكّ أنّ هذا الحوار الشّيق يجعل من الدّرس النّحوي ينفذ إلى العقول بكلّ سهولة ويشرك المتعلّمين في الدّرس ويخرجهم من دائرة الملل والسّأم كما أسلفنا.

زد على ذلك ، فطريقة كتابة سيبويه وخطاباته عند طرح القواعد وشرحها شبيهة بما قدّمناه من حوار ، فهو يتعامل كما قلنا سابقا مع متعلّم ملازم له يفترضه يسأل ويجيب ثم يقوّله أمورا قاصدا إيّاها ، ثمّ يعرض عليه كلّ الاحتمالات ويمثّل له ذلك حتى بالأمثلة التي لا يتكلّم بها العرب ، فيلغي ما هو قبيح وينتخب له ما هو عربيّ جيّد بالشّواهد التي تدعّم رأيه .

ففي كلّ النّصوص تقريبا يتّبع نفس المنهج فيذكر القاعدة أوّلا ثمّ يشرح فيقول : مثل قولك ..... أو تقول ..... وإنّما قلت .....ألا ترى .....فإن قلت .....وإن شئت وهكذا مع بقيّة المفردات .

يذكر لنا إبراهيم محمد عبادة ، عند حديثه عن كتاب الكافية لابن الحاجب وطريقة تبويبه وتناوله للمسائل الصّرفية والنّحوية وأسلوبه فيقول : " ونلاحظ أنّ هذا الكتاب أدخل في كتب النّحو التّعليمية لما يلي :

(1) سيبويه:الكتاب ، ج2، ص 130 ـ 131 .

لا يشغل المتعلّم المبتدئ والمتبلّغ بالتّعريفات والخلافات بين النّحويين فلا يعرّف الكلمة ولا الاسم أو الفعل أو الحرف فهو يكتفي بقوله : الاسم قولك : رجل وفرس ، وحمار وعمرو، وما أشبه هذا ، والفعل قولك : ضرب وخرج ، وانطلق ، ويضرب ، ويخرج واسمع ، وما أشبه هذا. والحرف قولك : هل وبل ، ومن ونعم وما أشبه هذا " [1] .

وهو نفس أسلوب سيبويه ، وحتى الأمثلة هي نفس أمثلته فهم يتبعونه شبرا بشبر لا يزيغون عن سبيله إلاّ ما قلّ وندر .

كما يحدّثنا عن أسلوبه فيقول : " يتسّم أسلوب المصنف ، بمشاركة القارئ معه عن طريق ما يشبه الحوار بينهما ، أو ما يمكن أن نطلق عليه علّم نفسك النّحو بنفسك ، أو تعلّم النّحو بلا معلّم ، إذ كثيرا ما تصادفنا هذه العبارة " فإن قلت .....؟ فقل ....." [2].

وهو لا يكاد يختلف عن أسلوب سيبويه ، وسأحاول أن آتيكم بنصّ يدعم هذه الفكرة، وكلّ النّصوص التي في الكتاب تطرح بهذا الأسلوب .

يقول سيبويه في "باب لا يكون الوصف المفرد فيه إلاّ رفعا ولا يقع في موقعه غير المفرد"[3]. وذلك قولك : يا أيّها الرّجل ، ويا أيّها الرّجلان ، و يا أيّها المرأتان .

فأيّ ههنا فيم زعم الخليل رحمه الله **كقولك** : يا هذا ، والرّجل وصف له ، كما يكوّن وصفا لهذا. وإنّما صار وصفه لا يكون فيه إلاّ الرّفع **لأنّك لا تستطيع أن تقول** " يا أيّ ولا يا أيّها لأنّه مبهم يلزمه التّفسير فصار هو والرّجل بمنزلة اسم واحد، **كأنّك قلت** : يا رجل .

(1) محمد إبراهيم عبادة : النّحو التّعليمي في التّراث العربي ، ص 66 .

(2) المرجع نفسه ، ص 66 .

(3) سيبويه : الكتاب ، ج 2 ، ص 134 .

واعلم أنّ الأسماء المبهمة التي توصف بالأسماء التي فيها الألف واللاّم تنزل بمنزلة أيّ، وهي هذا وهؤلاء وأولئك و ما أشبهها، وتوصف بالأسماء، وذلك قولك : يا هذا الرّجل ، ويا هذان الرّجلان ، صار المبهم وما بعده بمنزلة اسم واحد "[1] .

إلى آخر هذا الكلام الذي حرص من خلاله سيبويه على عرض مادّته النّحوية وهو أسلوب تعليميّ سار عليه من جاء بعده لقرون طوال ، ولعلّ سيبويه لم يكتف بهذه الطّرائق التّعليمية، بل هناك غيرها كأسلوب الإملاء ، والذي كان شائعا آنئذ ، وهو أسلوب يعتمد على التّعليم الفردي من خلال ملازمة طالب لأستاذه يأخذ عنه العلم عن طريق الإملاء ، وقد تطول هذه الملازمة أو تقصر حسب درجة العلم الذي يريد الحصول عليه، ليحصل في الأخير على الإجازة في العلم يقدّمها المعلّم للمتعلّم ليستقلّ بعد ذلك ، منفردا بحلقته العلميّة الخاصة .

ومهما يكن من أمر فإنّ الخطابات التّعليمية ما بين المعلّمين والمتعلّمين كانت تتمّ بالأساليب التي ذكرناها وغيرها . وقد حافظ عليها من جاء بعد سيبويه ولم تعرف تغيّرا كبيرا رغم اختلاف الحياة المدنيّة وتطوّرها ، ورغم انتشار المكتبات والكتاتيب ودور العلم، لا لشيء إلاّ لأنّ لها مزايا وفوائد على المتعلّم لا تخفى على أحد .

(ج) ــ أسلوب استخدام الشّاهد والمثل في تعليم النّحو عند سيبويه :

قد لا أجد الموافقة من القارئ الكريم وهو يطّلع على هذا العنوان ، إذ كيف يكون الشّاهد الذي جاء به سيبويه ، تعليميّا وهو موضوع أساسا للاستدلال على القاعدة النّحويّة. ولكن-من وجهة نظرنا الخاصّة وحتّى من وجهة نظر بعض الدّارسين ـ نستطيع القول أنّ الشّاهد عند سيبويه عبارة عن مثل جاء به ليستدلّ به على القاعدة من جهة والتّمثيل لها والتّطبيق عليها من جهة أخرى ، وكما يعلم الجميع أنّ سيبويه قد ساق من الشّواهد الشّعريّة

(1) سيبويه: الكتاب ، ج 2 ، ص 135 .

زهاء ألف وخمسين بيتا كلّها لشعراء يعتدّ بشعرهم ، كما ذكر المئات من الآيات القرآنيّة التّي تثبت وتوافق القاعدة التي يريد الاستدلال عليها ، لأنّ العصر هو عصر احتجاج ، وكلّ فريق يريد أن يثبت آراءه وينقض آراء غيره بالحجّة الدّامغة والدّليل القاطع. وقد أشار محمد إبراهيم عبادة إلى هذه الفكرة في كتابه النّحو التّعليميّ في التّراث العربيّ حين تحدّث عن الشّاهد والمثل في كتاب سيبويه هذا نصّه : " وإذا عدنا إلى كتاب سيبويه فإنّنا نجده يجمع بين دفّتيه شواهد من القرآن الكريم ومن الشّعر ونثر العرب وبعض أحاديث الرّسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ دون تصريح بأنّها أحاديث، وكثيرا من الأمثلة التّي صاغها بنفسه، **فقد كان عمل سيبويه يجمع بين الاستدلال على صحّة القاعدة وجواز التّركيب من جانب ، وتوضيح القاعدة والتّطبيق عليها من جانب آخر ، وغدا سوق الشّواهد أمرا تقليديّا يمارسه المصنّفون دون أن يقصدوا الاستدلال على صحّة التّركيب** "[1] .

وهذه الشّواهد لها مزايا تعليميّة كثيرة عند القدماء كونها رافدا من روافد تحصيل الملكة، فقد جاء عن ابن خلدون قوله عن سيبويه:" فإنّه لم يقتصر على قوانين الإعراب فقد ملأ كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء صالح من تعليم هذه الملكة"[2] على العكس من الكتب التي جاءت متأخّرة والتي استغنى مصنّفوها عن تلك الشّواهد فأضحت عارية ، هزيلة بعيدة عن تعليم النّاشئة .

لقد حافظ النّحو عبر مسيرته الطّويلة على هذا المورد الكبير والمتمثّل في الشّواهد، فقد اعتمدها المصنّفون في كتبهم سواء كانت علميّة أو تعليميّة ومن دون أن يوضّحوا أنّها للاستدلال ، فعصر الاحتجاج قد ولّى والنّحو قد وضع قواعده واستوى واكتمل ولم يعد هناك حاجة إليه ، بل اتّخذت كأمثلة تعليميّة توضيحيّة للقاعدة المراد تعليمها .

(1) محمد إبراهيم عبادة : النّحو التّعليمي في التراث العربي ، ص 90 .

(2) ابن خلدون : المقدّمة ، ج2 ، ص 385 - 386 .

أمّا بالنّسبة للأمثلة المصنوعة التي يصوغها سيبويه فهي غزيرة غزارة علمه، مستمدّة من البيئة العربيّة ، فقد مثل لكلّ جزئيّة من بحثه بأمثلة تطـول أو تقصر حسب السّيـاقات التي تتطلّبها الخطابات النّحويّة .

يقول بشير إبرير في بحثه آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه : "إنّ أهمّ ما يميّز خطاب سيبويه هو انطلاقه من الأمثلة المختلفة في المسائل الكثيرة التي عرضها، الأمر الذي يظهر معرفته الواسعة بظواهر الاستعمال اللّغوي في المجتمع العربي آنذاك، فهو يقدّم الأمثلة ثم يروّح بعضها ويوضّحها ، فيقدّم أمثلة تزيدها وضوحا الأمر الذي يظهر عمق درايته بظواهر التّخاطب والمشافهة وما تقتضيه من استعمالات لغوية..." [1] .

فقد استعمل الأمثلة المستقاة من كلام العرب كأمثال جرت على ألسنتهم مثلما استعمل المثل التي استخدمه والذي يوضح مسألة حذف الفعل لكثرته في الكلام فيقول : " كليهما وتمرا" فهذا المثل قد كثر في كلامهم واستعمل ، وترك ذكر الفعل لما كان قبل ذلك من الكلام ، كأنّه قال : أعطني كليهما وتمرا " [2] .

والأمثال المأثورة من كلام العرب كثيرة في الكتاب ، ولم يتوقف عند هذا الحدّ بل اصطنع أمثلة وقدّمها في سياقاتها حتى يوضّح المقصود من كلامه ، يقول بشير إبرير : " والملاحظ أنّ سيبويه لا ينظر إلى الأمثلة التّوضيحيّة التي يقدّمها منعزلة منفردة ، وإنّما يقدّمها في سياقاتها، أو إن شئت فقل : يفترض لها سياقاتها لتتضّح أكثر فأكثر ، فتوجد أمثلة استقاها من كلام العرب ومن الشّعر ومن القرآن الكريم ، وتوجد أمثلة أخرى افترضها لأنّه بصدد الشّرح والتّفسير وإفهام المخاطب وهي على درجة كبيرة من الأهمية ولا بدّ من الانتباه إليها " [3] .

(1) بشير إبرير : آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه ، ص 25 .

(2) سيبويه : الكتاب ، ج1 ، ص 244 .

(3) بشير إبرير : آليات الخطاب في كتاب سيبويه ، ص 22 .

فالتّمثيل له وقع خاص في النّفس البشريّة ، يدفعها إلى الملاحظة والتّدبّر والمقارنة ، وهو بذلك يقربّ الأفكار ويجعلها سهلة قريبة من الفهم فتعلق بالذّهن ولا تبارحه ، وتذكر وتحضر كلّما طلبت القاعدة أو المعلومة.

ولمّا كان للتّمثيل دور مهمّ في التّعليم ، نجده كثيرا في القرآن الكريم والسّنة المطهّرة ، فقد ضرب الله الأمثال للنّاس ، ودعاهم إلى التفكّر والبحث عن الحقيقة باستعمال عقولهم ، فقد قال: ﴿ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [1] .

ولعلّ من الدّواعي التي جعلتهم يعتمدون على الأمثلة المصنوعة والعبارات المأثورة ، العوامل التّعليميّة ، إذ إنّ الشّاهد النّحوي ذو طبيعة خاصّة بحيث لا يستطيع النّحويّ أن يتلاعب به تقديما وتأخيرا أو إعادة تأليفه بما يلائم القاعدة المراد تقديمها وبالتّالي يعدّ الرّجوع إلى المثال والاعتماد عليه أمرا ضروريّا لأنّ المثال المصنوع يرد بجمل قصار لا يزيد عما يقوله المعلّم للمتعلّم [2] .

وقد أشار بعض الدّارسين إلى جملة من المزايا طبعت المثال النّحويّ وميّزته عن الشّاهد النّحويّ نوردها فيما يلي [3] :

1 ــ الإيجاز والاختصار : والمراد بذلك هو تقريب القاعدة إلى الأذهان وتوجيههم إلى المطلوب .

2 ــ المرونة : والمقصود بها هو التحكّم بالأمثلة والتّلاعب بها من حيث الزّيادة والنّقصان ومن حيث التّقديم والتّأخير والإضمار والحذف وغيرها ، حسب ما تقتضيه السّياقات ، وما تتطّلبه

(1) سورة إبراهيم، الآية 25 .

(2) ينظر: عبد العال سالم مكرم : الحلقة المفقودة في تاريخ النّحو ، مؤسسة الرّسالة ، بيروت، ط 2 ، 1413 هـ/ 1993، ص11.

(3) ينظر : كريم عبد الحسين حمود الربيعي : المثال النّحوي المصنوع في العربية ، كلية التربية ، رسالة دكتوراه في اللّغة العربية، بغداد ، 2005 .

الفكرة ، ففي باب التّوابع مثلا استعمل سيبويه مثالا واحدا استخدمه في كلّ من النّعت والعطف والبدل متلاعبا به ومضيفا إليه ما يتطلّبه الموقف ، يقول مثلا في باب النّعت [1] .

ـــ مررت برجل ظريف .

ـــ مررت برجل عاقل كريم مسلم .

ـــ مررت برجل أيّما رجل .

أمّا في باب العطف فيستعمل نفس المثال فيقول [2] : مررت برجل وحمار ، وفي باب البدل يستعمل نفس المثال تقريبا ولكن بما يوافق القاعدة فيقول [3] : مررت برجل حمار ، مررت برجل بل حمار .

3 ـــ التّعبير عن طبيعة الحياة : يقول البعض: إنّ المثال عند سيبويه يفتقر إلى الجانب الفنّي وإلى سعة الخيال والواضح أنّ العربيّ يعيش في بيئته، يستعمل ما يلاحظه ويلمسه في وسطه دون الاستغراق في التّفكير ، و هذه الأمثلة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحياة التي يعيشها .

أمّا الوجه الآخر للأمثلة فهو الوجه الذي ينتقده الدّارسون فقد دأب سيبويه والنّحاة الآخرون على تقديم بعض الأمثلة التي يطغى عليها جانب التّكرار ، فزيد وعمرو وعبد الله وبشر أبطال هذه الأمثلة، والضّرب هو سمتهم الأساسيّة، لا ينتهون من معركة إلاّ ودخلوا في أخرى ، حتى أثار ذلك الشّاعر عمّار الكلبي وقد عيب عليه بيت من شعره فقال في هذا الصّدد :

مَاذَا لَقِينَا مِنَ المُسْتَعْرِبِينَ وَمِـــــنْ قِيَاسِ نَحْوِهِـــمْ هَذَا الذِي ابْـــتَدَعُـوا

إِنْ قُلْتُ قَـــافِيَةً بِكْـرًا يَكُونُ بِـهَا بَيْتُ خِلَافِ الذِي قَاسُوهُ أَوْ ذَرَعُـــــوا

قَـالُـوا لَـحَنْتَ ، وَهَذَا لَيْسَ مُنتَصِبًا وَذَاكَ خَفْـضٌ ، وَهَـذَا لَيْسَ يَرْتَفِـعُ

(1) سيبويه:الكتاب ، ج 1 ، ص 344 .

(2) المرجع نفسه ، ص 356 .

(3) المرجع نفسه ، ص 357 .

وَحَــرَّضُوا بَيْنَ عَبْدِ اللهِ مِنْ حُـمْـقٍ وَبَيْنَ زَيْـــدٍ فَطَالَ الضَّرْبُ وَالوَجَــعُ

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ قَدِ احْتَالُـوا لِمَنطِقِـهِمْ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَلَى إِعْرَابِــهِمْ طُبِــعُــوا

مَا كُلُّ قَوْلِي مَشْرُوحًا لَّكُمْ ، فُخُــذُوا مَا تَعْرِفُــونَ ، وَمَا لَمْ تَعْرِفُوا فَدَعُوا

لِأَنَّ أَرْضِــي أَرْضٌ لَا تَــشُــبُّ بِهَــا نَارُ المَجُــوسِ وَلاَ تُبْنَى بِهَا البِيَــعُ [1] .

بيد أنّ هناك من يرى أنّ لهذا التّكرار فوائد ومزايا لاتعدّ ولاتحصى بالنّسبة للمتعلّم لأنّه (المثال المكرر)يقرّب القاعدة منه ولا يشتّت الذّهن .

يقول صابر بكر أبو السّعود في مؤلفه: في نقد النّحو العربي : " أشار النّاقد في نقده المبكّر إلى أمثلة النّحاة في مثل ضرب عبد الله زيدًا أو ضرب زيد عمرا ، على أساس أنّهم مثّلوا لفعل قوي وهو فعل الضّرب ، وهو يمثل كذلك طبيعة العربي المحاط بالعدوّ القريب من غير حلفائه ومن البعيد من غير أرومته ، عاب النّاقد ما سمّاه تحرّشا بين عبد الله وزيد حتى طال الضّرب والوجع ، **وهذه أمثلة تعليميّة يلجأ إليها النّحاة المعلّمون حتى لا يعدّدوا الأمثلة ولا يكثروا من الاستشهاد حتى تتمثل القاعدة بارزة أمام المتلقّي** " [2] **.**

(د)- أسلوبا الإجمال والتّفصيل :

من السّمات البارزة في خطابات سيبويه ــ حسب اعتقادنا ــ طريقة عرضه للخطابات اللّغوية، وقد وقف عندها كثير من الباحثين ورأوا بأنّها ملاحظة جديرة بالاهتمام إذ قلّما نجدها عند غيره من النّحاة ، ورأوا بأنّها من خصائص النّحو العلمي ، غير أنّ من يراجع النّظر في هذا الأسلوب يجده ذا فائدة كبيرة بالنّسبة للمتلقّي ، فهو يطلعه على مضمون المعرفة التي

(1) ابن جنّي : الخصائص ، ج 1 ، ص 240 .

(2) صابر بكر أبو السّعود : في نقد النّحو العربي ، ص 09 .

ستقدّم له ثم يفصّل له تلك المعرفة ويجزّئها له حتى يستطيع أن يستوعب المعلومات دون أن يزيغ عن المنهج الذي سطّر له .

سيبويه وهو يستعمل هذه الخاصّية كأنّه يقول للمتعلّم : إليك ما سأقدّم لك من معطيات ثمّ يبدأ في تفصيلها وشرحها بالأمثلة والشّواهد .

فالتدرّج في التّعليم مطلوب في كلّ المراحل التّعليمية، وهي طريقة بنائية كلّ جزئية فيها تجعل من الجزئية التي قبلها قاعدة متينة تقف عليها حتى يكتمل البناء.

يقول الدّكتور حسن عون في كتابه تطور الدّرس النّحوي : "... وقد يلجأ إلى طريقة أخرى ولكنّها في نفس الميدان ، فبدل أن يهتم بالتّفصيل في ذكر الأمثلة ثمّ ينتهي بالإجمال في استنتاج القوانين والأحكام نجده يبدأ بالإجمال فيذكر أقسام الباب وما يتعلّق بكلّ قسم منها ثمّ ينتهي بالتّفصيل حيث يذكر الأمثلة ويتناولها بالشّرح والتّعليل والتّعليق " [1] .

وحتى نفهم خاصّيتي الإجمال و التّفصيل عند سيبويه لا بدّ من تقديم بعض الأمثلة من الكتاب وشرحها .

أوّل الأمثلة التي نوردها ما يتعلّق بالأسماء المعرّفة ، وقد خصّص لها سيبويه بابا رئيسيا سمّاه (هذا باب مجرى نعت المعرفة عليها)[2] ، وقد خصّص الجزء الأوّل من هذا الباب لبيان أنواع المعارف وعددها ، ليمثّل بعد ذلك كعادته لكلّ نوع بتقديم النّماذج والإكثار منها حتى يفهم القارئ .

(1) عون حسن : تطوّر الدّرس النّحوي ، ص 39 ـ 40 .

(2) سيبويه : الكتاب ، ج 2 ، ص 03 .

يقول سيبويه : " فالمعرفة خمسة أشياء : الأسماء التي هي أعلام خاصة ، والمضاف إلى المعرفة [إذا لم ترد معنى التنوين] ، والألف واللاّم ، والأسماء المبهمة والإضمار " [1] .

بعد الإجمال يبدأ سيبويه بتفسير السّبب الذي جعل هذا الأسماء معرّفة وهذا بعدما أعطى الأمثلة الموضّحة .

يقول سيبويه : " فأمّا العلامة اللاّزمة المختصّة فنحو زيد وعمرو وعبد الله وما أشبه ذلك، وإنّما صار معرفة لأنّه اسم وقع عليه يعرف به بعينه دون سائر أمّته ، وأمّا المضاف إلى معرفة نحو قولك : هذا أخوك ومررت بأبيك وما أشبه ذلك ، وإنّما صار معرفة بالكاف التي أضيف إليها، لأنّ الكاف يراد بها الشيء بعينه دون سائر أمّته .لأنّك أردت بالألف واللاّم الشيء بعينه دون سائر أمّته... ، وأمّا الأسماء المبهمة فنحو هذا [وهذه] ، وهذان ، وهاتان، وهؤلاء، وذلك ، وتلك ، وذانك ، وتانك ،وأولئك وما أشبه ذلك ، وإنّما صارت معرفة لأنّها صارت أسماء إشارة إلى الشيء دون سائر أمّته ، وأمّا الإضمار فنحو : هو وإيّاه ، وأنت وأنا ،ونحن وأنتم .... ، وإنّما صار الإضمار معرفة لأنّك إنّما تضمر اسما بعدما تعلم أنّ من يحدّث قد عرف من يعني وما تعني وأنّك تريد شيئا يعلمه " [2] .

وبعد ذكر المعارف الواحدة تلو الأخرى والعلّة التي جعلتها تكون معرفة يشرع سيبويه في تبيان وصف كلّ معرفة، أي بم توصف كلّ معرفة، فيقول في هذا الشّأن مقدّما القاعدة العامة: "واعلم أنّ المعرفة لا توصف إلاّ بمعرفة كما أنّ النّكرة لا توصف إلاّ بنكرة"[3]، ثمّ يشرع في التّفصيل كعادته . " واعلم أنّ العلم الخاص من الأسماء يوصف بثلاثة أشياء :

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 2 ، ص 03 .

(2) المرجع نفسه ، ص 03-05 .

(3) المرجع نفسه ، ص 04 .

بالمضاف إلى مثله وبالألف واللاّم وبالأسماء المبهمة " [1] .

" فأمّا الألف واللاّم فتوصف بالألف واللاّم ، وبما أضيف إلى الألف واللاّم " .

" والمضاف إلى معرفة يوصف بثلاثة أشياء : بما أضيف كإضافته وبالألف واللاّم وبالأسماء المبهمة " [2] .

" واعلم أنّ المبهمة توصف بالأسماء التي فيها الألف واللاّم والصّفات التي فيها الألف واللاّم جميعا "[3] .

وهكذا مع بقية الموضوع ، فهو يتعرّض لكلّ شيء بالتّفصيل والشّرح والتّمثيل حتى تتبلور لدى القارئ المتعلّم صورة كاملة للموضوع إجمالا ثمّ تفصيلا ليكون قادرا فيما بعد على الاستنتاج والاستنباط .

مثال آخر يوضّح طريقة سيبويه التّفصيلية ، وهذه المرّة ما يتعلّق بموضوع المجرورات، وهي من المظاهر التّعليمية وقد أفرد لها سيبويه بابا خاصّا سمّاه (باب الجرّ) [4].

نحن لا نريد أن نتطرّق إلى الاختلافات الخاصة بحالات الجرّ كعدد الحروف أو تسميتها ، بل نريد أن نتعرّض لها مثلما أشار إليها سيبويه مع قليل من الشّرح والتّوضيح .

فسيبويه لا يتحدّث عن حروف الجرّ فقط بل يرشدنا إلى كلّ المواضع التي يكون فيها الاسم مجرورا سواء بحرف الجرّ أو الإضافة أو المجاورة .

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 2، ص 04 .

(2) المرجع نفسه ، ص 05 .

(3) المرجع نفسه ، ص05.

(4) المرجع نفسه ، ص 342 .

يجمل لنا المعلومة فيقول :" والجرّ إنّما يكون في كلّ اسم مضاف إليه ، واعلم أنّ المضاف إليه ينجرّ بثلاثة أشياء : بشيء ليس باسم و لا ظرف ، وبشيء يكون ظرفا وباسم لا يكون ظرفا " [1].

فلفظ المضاف إليه هو كلّ اسم مجرور سواء بحرف الجرّ أو بغيره ، وقد سمّاه سيبويه بذلك خلافا لما هو عليه الأمر الآن ،وبعد الإجمال يأتي دور التّفصيل والتّمثيل والشّرح والتّعليق كعملية استدراجية يقوم بها ليتيح للقارئ فرصة استنتاج القاعدة لوحده .

يقول سيبويه :" فأمّا الذي ليس باسم ولا ظرف فقولك : مررت بعبد الله ، وهذا لعبد الله وما أنت كزيد ، ويالَبَكْرٍ ، وتا الله لا أفعل ذلك ، ومن ، وفي ، ومذ ، وعن ، وربّ ، وما أشبه ذلك وكذلك أخذته عن زيد وإلى زيد " [2]، والإشارة هنا إلى حروف الجرّ وعملها في الاسم الذي يأتي بعدها .

ثمّ ينتقل إلى القسم الثاني " وأمّا الحروف التي تكون ظرفا فنحو خلف وأمام وقدّام ووراء وفوق وتحت وعند وقبل ومع وعلى " [3].

"وأمّا الأسماء فنحو:مثل وغير وكلّ وبعض ، ومثل ذلك أيضا الأسماء المختصة نحو: حمار وجدار ومال وأفعل نحو قولك : هذا أفعل النّاس ن وما أشبه هذا من الأسماء كلّها ..."[4] .

هذا التّفصيل موجود تقريبا في كلّ أبواب الكتاب وفصوله ، والاكتفاء بهذه الأمثلة يجزي عن بقية الأمثلة .

(1) سيبويه: الكتاب ، ج 2 ، ص 343 .
(2) المرجع نفسه ، ص 343 .
(3) المرجع نفسه ، ص 343 .
(4) المرجع نفسه ، ص 343 .

ولا شكّ في أنّ الإكثار من الشّروح والأمثلة ، والتّمادي في التّفصيل من شأنه أن يعطي فرصة أكبر للمتعلّم ليستوعب أكبر قدر من المعرفة النّحوية ، وتجعله قادرا على محاكاة كلام العرب ، وإنتاج بضاعة شبيهة ببضاعتهم والنسج على منوالهم .

والأمر لا يتوقّف عند القاعدة النّحوية التي يريد شرحها ، بل يتعدّى ذلك إلى طريقته في وضع الأبواب ، فبعد أن يعقد للقاعدة بابا عريضا جامعا يجمل فيه ما يريد أن يقوله ، يبدأ في تفصيله تفصيلا بذكر الأبواب الفرعية المتعلّقة بالباب الرئيسي ، وقد يفرّع الأبواب الفرعية إلى أبواب أصغر دون أن يفلت المعلومة الرئيسية ، وكأن خيطا رفيعا يحكمها كما يقول الدّكتور محمد إبراهيم عبادة:".....ومهما يكن من أمر التّبويب أو التّمثيل أو طريقة في عرض المادّة النّحويّة عند سيبويه فهو لاشكّ يملك النّظرة التّعليميّة وله وجهة نظر خاصّة ربّما غابت عن أفهام كثير من النّحاة والدّارسين. وعليه نستطيع القول ، إنّ الكتاب موجّه لكلّ من له رغبة في البحث أو الدّراسة ، فالبضاعة متوفّرة و لكلّ واحد ضالّته حسب قدرته و مستواه . أو هو كما يصفه محمد إبراهيم عبادة :"فإنّنا نجد أنّ تصنيف كتاب سيبويه بالصّورة التي جاء عليها تمثّل لوحة سرياليّة رأى فيها كلّ فريق نحويّ رؤية خاصّة اتّخذها منطلقا لتصنيفه " [1] .

(1) محمّد إبراهيم عبادة : النّحو التّعليمي في التّراث العربي ، ص 26.

الفصل الثالث : خصائص الخطاب التّعليمي عند سيبويه

تمهيد :

بعدما بسطنا القول في نحو سيبويه علميّا كان أم تعليميّا متعرّضين لأقوال الكثير من الدّارسين لهذا الموضوع ، خلصنا إلى أنّ نحوه فيه من المظاهر التّعليميّة الشّيء الكثير ، لكن تشوبه بعض التّعقيدات و الصّعوبات التي خصّت منهجه في البحث والتّحليل، لا سيما في طريقة التّبويب وفي وضع المصطلحات .

وممّا لاشكّ فيه أنّ هذه الصّعوبات منها ما يرجع إلى الباحث نفسه من خلال أسلوبه في مناقشة القضايا اللّغويّة، والاستدلال عليها بالبراهين التي تدعم موقفه ، أو بردّ بعضها بما يتمتّع به من حنكة ومعرفة لقوانين العرب في كلامها، أو بما يمتاز به من ذكاء متوقد أهّله ليتربّع على عرش النّحو العربي دون منازع، ومنها ما يرجع إلى شساعة اللّغة وصعوبة البحث فيها .

بعد هذا كلّه نحاول في فصلنا الأخير أن نضع خطاب سيبويه التّعليمي، تحت مجهر البحث، مسلّطين الضّوء على آلياته وخصائصه لندعم فكرتنا أكثر . وسنحاول أن نهندس لما سنقوم به ببعض الخطوات التي نرى أنّها قادرة على توضيح اتّجاهنا والتي تعتبر ميزات خاصّة بالتّعليم لدى سيبويه، وهي كما يلي :

أولا: نظرة سيبويه إلى تعليم النحو.

ثانيا: خاصية إلحاق.

ثالثا: خاصية إنتاج.

رابعا: خاصية تعليل.

خامسا : خاصية تمثيل.

سادسا : خاصية مراعاة مستوى المبتدئين.

أوّلا : نظرة سيبويه إلى تعليم النّحو :

لم يكن سيبويه ينظر إلى تعليم النّحو بمفهومه الضّيّق أي كما ينظر إليه من جاء بعده، تدريس مجموعة من الضّوابط التي تمّ التّوصل إليها واستخلاصها بعد استقراء النّصوص التي جمعت من أفواه العرب الذين تمّ انتخابهم غداة جمع اللّغة ، بل نظر إليها نظرة شمولية ، تشمل طرائق نظم الكلام في البيئة العربية ، أي طرائق العرب في كلامها ، من حيث علاقة المتكلّم بالمخاطب و مراعاة السّياقات الاجتماعية وأغراض الكلام المختلفة .

فالعربي في حالة تبليغ وتواصل مع غيره شفاهة ، يختلف مستوى خطابه من ظرف لآخر، ففي حالة النّداء أو الندبة يستعمل أسلوبا مختلفا عن حاله وهو يستعمل النّهي أو الأمر أو التّحذير أو الإغراء . فكلّ هذه الأساليب انتبه إليها سيبويه وركّز عليها في كتابه. وعليه فعلم العربيّة بمفهومها القديم تختلف كلّ الاختلاف عمّا نعرفه نحن اليوم بقواعد النّحو .

يؤكد هذا المنحى بشير إبرير في بحثه آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه إذ يقول: " ونرى أنّ علم العربية مفهوم أساسي جامع عند سيبويه تأتلف حوله وتنتظم عناصر المنظومة اللّغوية العربية ، بما هي تصوّر منظّم عن اللّغة ، نحوها وصرفها ، تؤثّر في طريقة رؤية أهلها للعالم، وفي كيفية تقطيعهم وتفصيلهم له، وبالتّالي في طريقة تفكيرهم"[1] .

فعلم العربية أوسع مجالا من النّحو ، إذ يعتبر هذا الأخير مكوّنا من مكوّناتها وأحد أعمدتها. وتعليمه بمعزل عن النّصوص اللّغوية وسياقاتها المختلفة يعدّ ضربا من العبث ومضيعة للوقت ، والدّليل على ذلك ما نراه اليوم في مناهجنا الدّراسية .

إنّ المتصفّح لكتاب سيبويه، والدّارس لنصوصه يجده مليئا بالأمثلة والشّواهد التي استقاها من أفواه العرب الذين يحتجّ بعربيّتهم أو التي افترضها هو نفسه ، "وهذه الأمثلة تؤكّد

(1) بشير إبرير : آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه ، ص 16 .

اختلاف الزّاوية التي يرى منها سيبويه اللّغة ، فهي لم تكن مشابهة لنظرة بعض النّحويين الذين جاءوا بعده ، والذين غالبا ما كانوا يدرسون اللّغة من جانبها المعياري الصّرف .

لقد كانت نظرته إلى اللّغة أكثر رحابة وغنى، لأنّه درس الطّبيعة الاجتماعية للنّشاط اللّغوي وأثرها في البنية الدّاخلية للّغة ، فركّز على مسألة الانتماء إلى جماعة العرب الفصحاء الخلّص، ودرس التّعابير في حالة تفاعلاتها الحيوية التّخاطبية، كما نوّع في موضوعات المحادثة..."[1] .

فسيبويه عايش العربي عن قرب ، سمع منه كثيرا أو قليلا ، سبر أغوار هذه اللّغة التي يريد تحليلها وتعليمها ، ورآه يضمر أو يحذف لأغراض بلاغية تارة ولأخرى يقتضيها السّياق، كما وقف عليه يؤخّر ويقدّم لعلل مختلفة كانت سليقة ، اكتشفها سيبويه بذكائه المتوقد، لأنّ العربية تستدعي الخفّة في التّبليغ اقتصادا للجهد ، ومراعاة لأمن اللّبس ومطابقة الكلام لمقتضى الحال .

لقد فهم سيبويه خصائص اللّغة وفقه دقائقها ومميزاتها ، وتفطّن إلى أنّ الفائدة منها هي التّواصل والتّبليغ، وهي كما قال ابن جنّي : " أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم "[2] . وحتى تتم هذه المهمّة لا بدّ من معرفة دورة التّخاطب ومكوّناتها ، فالخطاب يتمّ بين عنصرين من عناصر هذه الدّورة ألا وهما المتكلّم والسّامع ،في ظروف مختلفة وسياقات متنوّعة قصد الإفادة والتي تعتبر شرطا أساسيّا في العملية التّواصلية لأن "الخطاب حدث لغوي يرسله متكلّم أو مرسل نحو مخاطب أو مرسل إليه ، قصد إفادته بمعلومات أو أخبار جديدة في مقام محدّد، وباستعمال

(1) سارة عبد الله الخالدي : أثر سياق الكلام في العلاقات النّحوية عند سيبويه مع دراسة مقارنة بالتّراث النّحوي العربي والمناهج اللّغوية الحديثة ، رسالة ماجستير ، كليّة الآداب والعلوم ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ـ لبنان ، جوان 2006 ،ص 33 .
(2) ابن جني :الخصائص ، ج 1 ، ص 33 .

وسيلة تبليغية محدّدة ، والانطلاق من ظروف وأحوال وأوضاع مشتركة بين المتخاطبين لا يعرفها غيرهما " [1] .

وبهذا يتضح لنا أنّ سيبويه يتعامل مع اللّغة بشمولية أكثر من غيره من النّحاة، فالنّحو عنده يمثل التّكامل بين جوانب اللّغة المختلفة ، من حيث التّراكيب والصّيغ الصّرفية والأصوات ليتّحد عنده الجانب النّحوي مع الجانب البلاغي ،وبهذا يصبح النّحو عنده وعند غيره من النّحاة الأوائل تأليف للكلام العربي كالذي ورثناه عن العرب الفصحاء.

يقول **مصطفى جمال الدّين** صاحب كتاب البحث النّحوي عند الأصوليّين :" فوظيفة النّحو عند هؤلاء (الأقدمين) هي معرفة تأليف الكلام العربيّ كما نطق به الفصحاء من العرب سواء تعلّق بهيئة تأليفه جملة من ناحيّة التّقديم والتّأخير، والحذف والإضمار، والفصل والوصل، أم تعلّق بمعرفة أجزائه التي ائتلف منها من ناحية الإعراب والبناء والتّعريف والتّنكير، والتّأنيث والتّذكير وأمثالها ودلالة كلّ ذلك على المعاني التي كان يقصدها العرب بكلامهم مما عزف عنها النّحويّون المتأخّرون، واستأثر بها إخوانهم البلاغيّون فيما يسمّونه علم المعاني "[2].

وهذا ما أشار إليه بشير إبرير حين وصف الكتاب بقوله : "... وبهذا فإنّ كتاب سيبويه ليس كتابا في الإعراب بالمعنى التّقليدي، وإنّما هو كتاب في تحليل الخطاب ولسانيات النّص، درس فيه اللّغة كوضع أو نظام بِنويّ، ودرس فيه ظواهر الاستعمال التي تؤكدّها الدّراسات اللّسانية المعاصرة في إطار الطّابع التّداولي العملي "[3] .

لقد تفطّن سيبويه إلى أنّ اللّغة طبيعة اجتماعية ، وأنّها لا بدّ أن تدرس ضمن سياقاتها الاجتماعية ، فقد شدّد على دور المتكلّم كعنصر فعّال في إنتاج الكلام وإحداث التّواصل، كما

(1) بشير إبرير : آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه ، ص 11 .

(2) مصطفى جمال الدّين :البحث النحوي عند الأصوليين ،مطبعة دار الهجرة ،قم ،إيران ، ط2 ، 1983/1405، ص29.

(3) بشير إبرير : آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه ، ص 29 .

اهتم بالمخاطب وحرص كلّ الحرص على أن يصل إليه الخطاب في أحسن الظروف حتى لا يلتبس عليه الأمر ، زيادة على اهتمامه بوظيفة الكلام كالنّداء والمدح والذّم ، وسياق الموقف أو المقام [1] .

وعند تصفحنا لكتاب سيبويه نقف من خلال دراسته للخطاب النحوي على مجموعة من العناصر وهي -كما تفضّلت سارة عبد الله الخالدي- : المتكلّم، المخاطب ، وظيفة الكلام ، سياق الموقف أو سياق الحال [2] .

فللمتكلّم الدّور الأساسي في العملية التّواصلية وعليه المعتمد في استكمالها ، وبه تحدّد العلامات الإعرابية ، ولكي نفهم هذه الحقيقة نورد مجموعة من الأمثلة التّوضيحية في حالات مختلفة وهي من خطابات سيبويه : يقول سيبويه في باب الأفعال التي تستعمل وتلغى ": فإذا جاءت مستعملة فهي بمنزلة رأيت وضربت وأعطيت في الإعمال والبناء على الأوّل، في الخبر والاستفهام وكلّ شيء. وذلك قولك : أظنّ زيدا منطلقا .

فإن ألغيت قلت : عبد الله أظنّ ذاهب ... وكلّما أردت الإلغاء فالتّأخير أقوى . وإنّما كان التّأخير أقوى لأنّه يجيء **بالشكّ بعدما يمضي كلامه على اليقين ، أو بعدما يبتدئ وهو يريد اليقين ثمّ يدركه الشكّ .**

وإنّما جعل ذلك فيما بلغه بعدما مضى كلامه على اليقين وفيما يدري ، فإذا ابتدأ كلامه على ما في نيّته من الشّك أعمل الفعل قدّم أو أخّر "[3] .

لقد وردت عبارات كثيرة تتحدّث عن نيّة المتكلّم أو شكّه أو يقينه وهي كلّها أمور نفسية تتدخّل لتحويل مسار الخطاب نحو المتلقّي . فإذا بدأ المتكلّم خطابه بالشّك أعمل الأفعال كما تعمل رأيت وضربت وأعطيت . وإذا بدأ باليقين ثمّ انتابه شكّ ألغى وبالتّالي فالرّفع أولى.

(1) سارة عبد الله الخالدي : أثر سياق الكلام في العلاقات النّحوية عند سيبويه ، (الملخص) .

(2) المرجع نفسه ، ص 17 .

(3) سيبويه : الكتاب ، ج1 ، ص122 .

مثال آخر من الأمثلة التي تكشف نظرة سيبويه إلى اللّغة ، ومن خلالها دور المتكلّم حيث يقول في باب الفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعول : "فإن قدّمت المفعول وأخّرت الفاعل جرى اللّفظ كما جرى في الأوّل وذلك قولك : ضرب زيدا عبد الله ، لأنّك إنّما أردت به مؤخّرا ما أردت مقدّما، ولم ترد أن تشغل الفعل بأوّل منه وإن كان مؤخّرا في اللّفظ .

فمن ثمّ كان حدّ اللّفظ أن يكون فيه مقدّما، وهو عربيّ جيد كثير، كأنّهم إنّما يقدّمون الذي بيانه أهمّ لهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعا يهمّانهم ويعنيانهم"[1].

والمعنى أنّ التّقديم والتّأخير يعزى للمتكلّم، لأنّه هو الوحيد الذي يقوم بذلك حسب رغبته ولأمر يهمّه. فإن كان من الفائدة تقديم المؤخّر فعل والعكس صحيح. وقد سبق أن أشرنا إلى الأغراض البلاغية التي يريدها المتكلّم أو ربّما لأمن اللّبس.

أمثلة أخرى نوردها للتّأكيد على دور المخاطب في عملية التّبليغ ، إذ إنّ المتكلّم وهو يصدر الخطاب لا بدّ له أن يضع المخاطب في حسبانه ، فيحذر من أن يلتبس عليه الأمر، فأيّ حذف مثلا يكون المتلقّي على دراية به وبالتّالي تتمّ الفائدة من الكلام .

يقول سيبويه في باب : هذا باب يحذف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل : " وممّا ينتصب في هذا الباب على إضمار الفعل المتروك إظهاره : انتهوا خيرا لكم ووراءك أوسع لك ، وحسبك خيرا لك ، إذا كنت تأمر .

وإنّما نصبت خيرا لك وأوسع لك ، لأنّك حين قلت : انته فأنت تريد أن تخرجه من أمر وتدخله في آخر .

وقال الخليل: كأنّك تحمله على ذلك المعنى ، كأنّك قلت : انته وادخل فيما هو خير لك فنصبته لأنّك إذا قلت له : انته ، أنّك تحمله على أمر آخر ، فلذلك انتصب وحذفوا الفعل لكثرة

(1) سيبويه : الكتاب ، ج1 ، ص 55،56.

استعمالهم في الكلام ، ولعلم المخاطب أنّه محمول على أمر حين قال له : انته فصار بدلا من قوله : ائت خيرا لك ، وادخل فيما هو خير لك "[1] .

فالحذف ما كان ليحصل لولا أنّ المخاطب على علم بذلك ولكثرة استعماله صار حذفه معروفا ومعلوما لدى المتلقّي، وعليه فالرّسالة تصله في أحسن الظروف.

والأمثلة في هذا الشّأن كثيرة لا تكاد تعدّ أو تحصى، وإنّما أوردنا هذه الأمثلة لنفهم دور كلّ من المتكلّم والمخاطب والاعتبارات التي نراعيها في عمليّة الخطاب.

ومن الأمور التي ننبّه إليها، أنّه لا بدّ أن تكون اللّغة المتداولة بين الملقي والمتلقّي معروفة لكليهما حتى تفكّ الرّموز بشكل صحيح، فلا يمكن للمتكلّم أن يحذف أو يضمر إلاّ إذا كان الطرف الآخر على دراية بنوع الحديث الذي يجري بينهما. وكخلاصة لهذا المبحث أقول :إنّ سيبويه نظر إلى اللّغة نظرة مستبصرة، انغمس في العربية واصطبغ بها، حاول أن يقدمها لنا كاملة العناصر، تماما كما تكلّم بها السّلف دون نقص أو إغفال. وقد قدّر الجميع مجهوداته؛ يقول علي النجدي ناصف:" لقد بذل سيبويه جهدا لا يقدّره إلاّ من تعرّض بالنّظرة الفاحصة لكتابه إذ حشد فيه مادّة النّحو الأولى، قاده إليها طبعه ،ومنهج الفطرة الذي اتّبعه، فقدّم النّحو موفور العناصر كامل المشخّصات، لايكاد يعوزه إلاّ استخلاص الضّوابط وتصنيع الأصول، قدّم النحو في أفكار رئيسة وأبواب شاملة يستحضرها ويضع المعالم لها، ويتعرّف حاجتها من الأمثلة والنّصوص فيجمعها ويصنّفها، ثمّ يعرضها جملة أو آحادا وينظر فيها تصعيدا وتصويبا، يحلل التّراكيب ويؤول الألفاظ ويقدر المحذوف ،ويستخلص المعنى المراد، وفي خلال ذلك يوازن ويقيس ويذكر ويعيد ويستفتي الذّوق"[2] .

(1) سيبويه : الكتاب ، ج1 ، ص 246 .

(2) علي النّجدي ناصف :سيبويه إمام النّحاة ، ص159.

ثانيا : خاصية إلحـــــــــاق :

لقد أوردنا فيما سبق تعريفا للخطاب فقلنا :"بأّنّه حدث لغويّ يرسله متكلّم أو مرسل نحو مخاطب أو مرسل إليه، قصد إفادته بمعلومات أو أخبار جديدة، في مقام محدّد، وباستعمال وسيلة تبليغية محدّدة، والانطلاق من ظروف وأحوال وأوضاع مشتركة بين المتخاطبين لا يعرفها غيرهما " [1].

وباعتبار اللّغة أداة من أدوات التّواصل يسعى متعلّم اللّغة إلى اكتسابها عن طريق النّحاة و الروّاة ومن هنا يمكن اعتبار ما يدور بين النّحاة والمتعلّمين خطابات تعليمية.

وعلى هذا الأساس يصبح الخطاب النّحويّ التّعليميّ " نقلا للفصاحة العربية بصورتها المثالية إلى المتلقّي الجديد، وتربيته على نموذج معيّن من المثالية اللّغوية التي تحدّدها العادات اللّسانية العربية المتوارثة " [2].

وككلّ خطاب، يشارك في إنجاح الخطاب النّحوي مجموعة من العناصر تشارك في إنتاجه وتتفاعل فيما بينها ليصل في أحسن الظروف وبالتّالي تحصل الفائدة منه. وهذه العناصر يمكن ذكرها كما يلي :

أ ــ الأعرابي أو المتكلّم المثالي :

ونقصد به العربي الموثوق بعربيته سواء كان خطيبا أو شاعرا ينتمي إلى زمن الفصاحة ومكانها .

(1) بشير إبرير : آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه ، ص11.

(2) فؤاد بو علي :الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النّحوي العربي ،عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط 1 ، 1432 هـ/ 2011، ص 19.

فمن المعلوم أنّ البصريّين قد حرصوا على وضع ضوابط دقيقة في المادّة اللّغوية التي بنوا عليها قواعدهم، وكان هدفهم الأسمى المحافظة على لغة العرب من التأثّر باللّغات الأعجمية الأمر الذي يؤدّي لا محالة إلى تجريد اللّغة العربية من خصائصها المعروفة عند نزول القرآن، وظهور لغة ثانية ذات خصائص مغايرة بدخول ألفاظ أعجمية إلى اللّغة العربية ، ولتحقيق هذه الشّروط تشدّدوا في وضع الضّوابط .

فقد جعلوا السّماع أصلا من أصول النّحو عندهم ودليلا قويّا من أدلّتها ، وهو نقل المادّة اللّغوية من أفواه العرب الخلّص ، بجمعها أوّلا واستقرائها ثانيا ، وهو ما يطلق عليه ابن الأنباريّ مصطلح (النّقل) ويعرّفه بقوله :" بأنّه الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصّحيح الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة " [1].

أمّا السّيوطي فيعرّفه قائلا : " وأعني به ما يثبت في كلام من يوثق بفصاحة فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن، وكلام نبيّه عليه السّلام ، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولّدين " [2] .

وقد حدّدوا للفصاحة حدودا مكانية متمثّلة في بعض القبائل البعيدة كلّ البعد عن منافذ الدّخيل والاختلاط كشرط أوّل ، والشّرط الثّاني أن تكون ضمن الإطار الزّماني سواء ما تعلّق منها بالبداوة أو الحضر، لأنّ الاختلاط يؤثّر في فصاحة العربي حتّى وإن كان من القبائل التي يستشهد بكلامها ، ولتحقيق هذه الشّروط توصّلوا إلى تعيين القبائل التي يعتدّ بالأخذ عنها، والقبائل التي لا يؤخذ عنها لسبب مجاورتهم الأعاجم سواء من الفرس أو الرّوم أو الأحباش أو غيرهم .

(1) الأنباري كمال الدّين : الإغراب في جدل الإعراب ،تح :سعيد الأفغاني ،مطبعة الجامعة السورية ، 1377/1975 ،ص45 .

(2) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن :الاقتراح في علم أصول النّحو ، تح : محمود سليمان ياقوت ، دار المعرفة الجامعيّة ، 1426هـ/ 2006 م ،ص 14 .

وقد نبّه ابن جنيّ إلى خطورة اختلاط العربية بغيرها من الحواضر لأنّ ذلك يترتّب عليه فساد اللّغة ، يقول في (باب ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر) :" وعلّة امتناع ذلك ما عرض للغات الخاصة وأهل المدر من الاختلاط والفساد والخطل، لو علم أنّ أهل المدينة باقون على فصاحتهم ، ولم تعترض لشيء من الفساد للغتهم، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر " [1].

وعند تصفحنا لكتاب سيبويه نجده شديد التمسّك بهذه الشّروط التي وضعها فلا يستدلّ إلّا بالقبائل المتعارف عليها من أهل السّليقة ، ولا يأخذ إلاّ رأي من يثق به سواء كان شعرا أو نثرا، وأمثلة قليلة من الكتاب تظهر درجة تعلّق سيبويه بذلك، يقول سيبويه : " وسمعنا من العرب من يقول ممّن يوثق به " [2] ، وفي موضع آخر يقول سيبويه : " وزعم أبو الخطّاب ــ وسألته عنه غير مرّة ــ أنّ ناسا من العرب يوثق بعربيتهم وهم بنو سليم ، يجعلون باب قلت أجمع مثل ظننت " [3]، والأمثلة في هذا الشّأن لا تكاد تحصى ، فقد أخذ عن القبائل كقيس وتميم، ونسب إلى الشّعراء ممّن يسمح بالاحتجاج بشعرهم وهم شعراء الجاهلية والإسلام إلى غاية منتصف القرن الرّابع الهجري بالنّسبة لأهل الوبر والقرن الثّاني لأهل المدر .

ب ــ النّحوي أو المخاطب :

أمّا الحلقة الثّانية من عناصر الخطاب وفي نظرنا والتي تعتبر أقوى الحلقات التي يعزى إليها نقل اللّغة من مصادرها المتّفق عليها إلى المتعلّمين المفترضين ألا وهي حلقة النّحاة .

فبعد جمع اللّغة من مصادرها الأصلية ، طفق النّحاة يستقرئونها ويصنّفونها ويستنبطون أحكامها لتوليد القواعد المعيارية الضّابطة ، ومن ثمّ تعليم العامة أصول لغتهم آخذين تلك القواعد الميزان الذي به تقاس درجة صواب اللّغة .

(1) ابن جني: الخصائص ، ج2 ، ص 05 .

(2) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 70 .

(3) المرجع نفسه ، ص 126 .

ومن خلال بحثنا عن دور سيبويه في تعليم النّحو ، و بعد تصفّحنا لأجزاء كتابه صادفنا الحديث عن مجموعة من النّحاة ساهموا في بناء الدّرس النّحوي ، فسيبويه -كما يقولون- قد جمع أقواله وأقوال من سبقه من النّحاة دون أن يغفل منها شيئا ، فقد كان أمينا في النّقل، ينسب الأقوال إلى أصحابها يناقشهم ويقدّم لهم البراهين التي قد تؤيّد أو تطعن في آرائهم ، فلم يكن إمّعة يأخذ بدون تدبّر أو إبداء رأي .

ولعلّ المفتّش في الكتاب يجده يروي الكثير عن معلّمه الخليل بن أحمد الفراهيدي سواء بذكر اسمه صراحة أو الإشارة إليه .

وزعم ـ رحمه الله ـ أنّه لا يجوز في : " في ما يحسن بالرّجل " [1]، وزعم الخليل ـ رحمه الله ـ أنّ به ههنا منزلة هو، ولكن هذه الباء دخلت ههنا توكيدا "[2] ، وهذا تعقيبا على المثال: مررت برجل حسبك به من رجل فعلت أيضا " .

ومن الأمثلة أيضا على ورود اسم الخليل في أقوال سيبويه ، وهذا لتعزيز الفكرة أيضا : ما جاء في (باب ما جرى من الأسماء التي من الأفعال وما أشبهها من الصّفات ". فيقول سيبويه في هذا الشّأن : وقال الخليل ـ رحمه الله تعالى ـ : "فعلى هذا المثال تجري هذه الصّفات، وكذلك شابّ وشيخ وكهل إذا أردت شابّين وشيخين وكهلين، نقول : مررت برجل كهل أصحابه ومررت برجل شاب أبواه "[3] .

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 2 ، ص 09 .

(2) المرجع نفسه ، ص 18 .

(3) المرجع نفسه ، ص 28 .

ثمّ يقول : قال الخليل ــ رحمه الله ــ : فإنّ ثنّيت أو جمعت فإنّ الأحسن أن نقول مررت برجل قريشيان أبواه ومررت برجل كهلون أصحابه ، تجعل اسما بمنزلة قولك : " مررت برجل خزّ صفته "[1] .

وقال الخليل رحمه الله : " من قال أكلوني البراغيث أجرى هذا على أوّله فقال : مررت برجل حسنين أبواه ، ومررت بقوم قريشيين آباؤهم " [2] .

إلى غير ذلك ممّا رواه عن أستاذه الخليل حتى عدّ عند الدّارسين أنّ الكتاب للخليل وإن نسب لسيبويه .

وكذلك يروي عن يونس وإن كان بدرجة أقل فيقول مثلا : " وزعم يونس أنّ ناسا من العرب يجرّون (هذا) كما يجرّون مررت برجل خزّ صفته " [3] .

وفي موضع آخر يقول : " وزعم يونس أنّه لم يسمعه من ثقة ولكنّهم يقولون هو نار حمرة لأنّهم قد يبنون الأسماء على المبتدأ ولا يصفون بها " [4]. والأمثلة في هذا الشّأن لا تكاد تنتهي.

ج ــ المتلقّي أو المخاطب :

أمّا الحلقة الثالثة والأهمّ في موضوع الخطاب التّعليمي فهي ما يتعلّق بمسألة التّعلّم، أي من هو المقصود بالمتعلّم ؟ أهو العربي الذي ضعفت سليقته ؟ أم الأعجميّ الذي دخل في كنف الدّولة الإسلامية ؟ أهو الحاضر في حلقة الدّرس ؟ أم هو كلّ شخص يرغب في تعلّم العربية ؟، وللإجابة على هذا السّؤال لا نجد بدّا من إحضار تعاريف رآها الدّارسون تجيب عن نظرة

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 2 ، ص 28 .
(2) المرجع نفسه ، ص 18 .
(3) المرجع نفسه ، ص 18 .
(4) المرجع نفسه ، ص 19 .

الأقدمين للدّرس النّحوي ، ولا شكّ أنّ تعريفين من التّعريفات الكثيرة سيجيبان عن هذه التّساؤلات .

أمّا التّعريف الأوّل فهو لابن السّرّاج الذي يقول فيه : " النّحو إنّما أريد به أن ينحو المتكلّم إذا تعلّمه كلام العرب ، وهو علم استخرجه المتقدّمون فيه من استقراء كلام العرب حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللّغة ، فباستقراء كلام العرب فاعلم : أنّ الفاعل رفع، والمفعول به نصب، وأنّ فعل ما عينه ياء أو واو تقلب عينه من قولهم قام وباع "[1].

فبقراءة سطحية لهذا التّعريف نقف على حقيقة أنّ النّحو عند الأقدمين هو اتّباع لسنن العرب في كلامها من خلال تطبيق القواعد التي توصّل إليها النّحويون غداة جمع اللّغة ودراستها.

أمّا فيما يخصّ التّعريف الثّاني فإنّه يتعلّق بتعريف ابن جنّي والذي يعتبر تعريفا شاملا للنّحو والذي يقول فيه : " النّحو هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره كالتّثنية والجمع والتحقير والتّكسير والإضافة والنّسب والتّركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها ردّ به إليها " [2]. فمن خلال هذه التّعريفات ندرك أنّ المقصود بالتّعليم هنا هو الفاقد لشرط الفصاحة سواء كان عربيا أو أعجميا ، كما يبرز لنا الهدف من الخطاب النّحوي ألا وهو التّعليم، أي أن ينحو المتكلّم إذا تعلّمه كلام العرب .

فسيبويه وهو يبدي اهتماما كبيرا بالمتعلّم بحيث يحدّد له حيّزا كبيرا في خطاباته سواء كان هذا المتعلّم سامعا من خلال حلقات الدّرس التي كان يقوم بها، أم كان قارئا للكتاب، فقد دأب على تعليمه أصول الكلام العربي موجّها إيّاه إلى اتّباع سنن العرب في تعابيرها واستعمالها

(1) ابن السّرّاج : الأصول في النّحو ، ج 1 ، ص 35 .

(2) ابن جني: الخصائص ، ج 1 ، ص 34 .

للخطاب، وإرشاده إلى السّير وفق قواعد المتكلّمين الأصليين للّغة ألا وهم العرب الثقاة الذين يحتجّ بعربيتهم، والذين أشرنا إليهم فيما سبق هذا البحث .

وكأنّ سيبويه يوجّه خطابه المباشر وغير المباشر إلى هذا المتعلّم المحتمل يقرّر له القاعدة، يجمع له المعلومات ثم يفصّل ، يناقشه ويحاوره ، ثمّ يستدرجه ليصل معه إلى المطلوب وفق الكلام العربي الفصيح ، يخاطبه ويقحمه في تحاليل ومناقشات ليكون طرفا فاعلا فيها ، بعيدا عن سلبيّة التلقّي دون فهم أو إبداء رأي ، فيتوجّه إليه بالحديث في أغلب نصوص الكتاب آمرا أو ناهيا مستعملا عبارات عديدة تدلّ على ذلك صراحة كعبارة "اعلم" ، " ألا ترى أنّك تقول"، "وإن قلت" ، "وذلك قولك" ، وغيرها من العبارات التي استخدمها سيبويه .

هذه الخطابات، أو قل مفاتيح الخطابات، احتوتها المختصرات والمطوّلات على حدّ سواء، بل هناك من جعلها دليلا على أنّها خاصّة بالمصنّفات التّعليمية وعلى ضوئها فرّقوا بين ما هو علميّ وما هو تعليميّ. وبما أنّ الكتاب يزخر بها شأنه شأن المختصرات الخاصة بتعليم النّحو فلا شكّ في أنّ صاحبه ألّفه لتعليم العربية.

لقد تنبّه الكثير من الدّارسين والمختصّين بعلمي اللّغة والنّحو إلى هذه الخطابات، وأشاروا إليها في كتاباتهم ،كالنّص الذي سنورده والذي أدلى به الدّكتور تمّام حسّان في كتابه الأصول، وهو يتحدّث عن الموالي وكيف انتزعوا راية التّعليم من العرب وكيف راحوا يبسطونه ويقدّمونه إلى من يريد العربية فيقول : " ... وسرعان ما حوّل الموالي النّحو من منهج علميّ إلى منهج تعليميّ، وشتّان بين المنهجين ، وبالسّعي إلى تحقيق الغاية التّعليمية وجذب المؤدّبين من النّحاة يكتبون المختصرات منذ عهد الكسّائي، لا ليؤدّبوا بها أبناء الخلفاء وأبناء أعيان الدّولة فقط ، ولكن ليجعلوا تعلّم اللّغة في متناول من شاء من الموالي والمولّدين على حدّ سواء (.....) فتحوّل النّحو

شيئا فشيئا إلى أداة تعليم، وانسحبت طبيعة التّعليم من المختصرات على المطوّلات، **فوجدنا مؤلفيها يسوقون القواعد، وشرح القواعد بعد عبارة " اعلم يا فتى " في كثير من الأحيان** " [1].

نفس الملاحظة أشار إليها إبراهيم عبادة حيث يقول: "وظهر أثر طريقة الحفظ والاستظهار والتّلقين في المصنّفات النّحوية فكلّها تتّسم بالطّابع التقريري ، أي تقرّر القاعدة ثمّ يعطي أمثلة من الكتاب تؤكّد هذه الحقيقة ، يقول سيبويه في باب الترخيم : " **اعلم** أنّ التّرخيم لا يكون إلاّ في النّداء إلاّ أن يضطرّ شاعر "[2]، " **واعلم** أنّ التّرخيم لا يكون في مضاف إليه ولا في وصف " [3] .

وكأنّ إبراهيم عبادة يوجّه نقده للّذين نفوا صفة التّعليمية عن كتاب سيبويه ويقولون أنّه لم يوضع للمتعلّمين ، فها هو يأتيهم بالدّليل القاطع على أنّ المختصرات التي وضعت للتّعليم وللمبتدئين تستعمل نفس الأسلوب ، وقد أعطاهم أمثلة مشابهة من كتاب التّفاحة لأبي جعفر النّحاس إذ يقول : " **اعلم** أنّ العربية على ثلاثة أقسام : اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ..."[4] " **اعلم** أنّ الإعراب على أربعة أوجه : الرّفع والنّصب والجرّ والجزم " [5]، وهكذا مع بقية الموضوعات .

ولا شكّ أنّ هذا الأسلوب كان سائدا في تلك الفترة والفترات التي سبقتها والفترات التي أعقبتها ، استعمله أهل اللّغة والفقه والتّفسير على السّواء ،وهو أسلوب قرآني بامتياز حيث نجد الكثير من الآيات القرآنية تبتدئ بهذا اللّفظ " اعلم ". كقوله تعالى : ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩﴾ [6] .

(1) تمّام حسّان : الأصول ، ص 28 .

(2) سيبويه : الكتاب ، ج 2 ، ص 172 .

(3) المرجع نفسه ، ص 172 .

(4) محمد إبراهيم عبادة نقلا عن كتاب التّفاحة في النّحو ، ص 14 .

(5) المرجع نفسه ، ص14.

(6) سورة محمد ، الآية 19 .

وقد استعمل أيضا في كثير من الأحاديث النّبوية الشّريفة ، ففي الحديث الذي رواه التّرمذي عن ابن عبّاس أنّه قال :" كنت خلف النّبيّ ــ صلى الله عليه وسلّم ــ يوما فقال :" يا غلام إنّي أعلّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، **واعلم** أنّ الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك ..." [1].

وبما أنّ النّحاة واللّغويين هم أقرب النّاس إلى القرآن ، بل هناك منهم من كان لغويا قارئا وفقيها في نفس الوقت ، فلا عجب إذن إن كانوا أوّل النّاس في استعمال هذا المصطلح ، وسيبويه واحد من هؤلاء، استعمله كثيرا ، بحيث لا يخلو باب من أبوابه النّحوية أو صفحة من كتابه إلاّ واستعمله ؛ و هو بمثابة تقرير لقاعدة أو معلومة نحوية مسلّم بها بحيث تلقّن ثمّ تشرح ويطبّق عليها بالنّماذج الكثيرة .

وبعد أن سلّطنا الضّوء على المتعلّم المقصود بتعلّم النّحو والمشار إليه في التّعاريف النّحوية التي أوردناها ، وبعد أن بسّطنا القول في أهم الخطابات التي كان يخصّ بها هؤلاء المتعلّمين نريد أن نطرح سؤالا : ما هي الطريقة المثلى في تعليم النّحو عن النّحاة الأقدمين وعند سيبويه على وجه الخصوص ؟.

فالنّحو لم يكن مجرّد قواعد تقنينيّة تقدّم للمتعلّم يتعلّمها ويحفظها سرعان ما ينساها ويطرحها : بل توجيهه إلى مواطن كلام العرب شعرا أو نثرا وإلى آيات القرآن الكريم باعتباره أقوى المصادر على الإطلاق ، وبمجرّد تصفّح (الكتاب) يتّضح لنا هذا المنهج بوضوح، وهذا ما أشار إليه الدّكتور **حسن عون** في معرض الحديث عن الفرق بين نحو سيبويه ونحو من جاء بعده إذ يقول في هذا الصّدد : " ولو قارنا صنيع سيبويه بصنيع النّحاة، بعده في هذه القضية لوجدنا

(1) مجموعة علماء ، شرح الأربعين النّحوية ، تح : أبو عبد الله محمود بن الجميل ، دار المستقبل ، القاهرة ، ط 1 ، 1426 هـ / 2005 م ، ص 223 .

فرقا كبيرا بينه وبينهم : سيبويه يغرق القارئ في بحر من النّماذج اللّغوية مبيّنا له طرق الاستعمال العربي ووجه إعرابها ورأي النّحاة فيها ، وهذا النّمط من التّصنيف يكاد يكون متّبعا في كلّ أبواب الكتاب وفصوله ، أمّا النّحاة بعد سيبويه ، فإنّهم يوجّهون هممهم إلى صناعة القاعدة النّحوية أوّلا صياغة علمية منهجية تكشف عن مدى التأثّر بالنّظريات والمبادئ الفلسفية : تعريف ثم تقسيم للأنواع ، ثمّ حصر للنّماذج المستعملة ... " [1] .

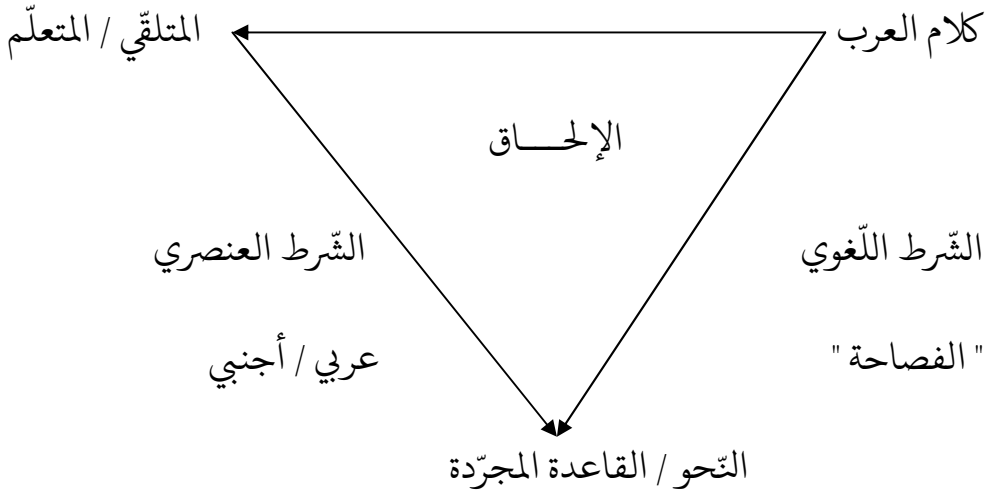
وبهذا يكون سيبويه هاديا للمتعلّم العربي إلى اكتشاف النّظام اللّغوي المختزن في الذّاكرة الجمعية العربية، ومن ثمّ الدّخول إلى هذه الدّائرة اللّغوية والاصطباغ بخصائصها، ولا يكون هذا إلاّ بمعرفة القوانين اللّغوية الخاصّة والتّطبيق عليها عمليّا، لأنّ الفرق بين اللّغة والنّحو كصناعة كبير، وقد سبق وأشرنا إلى رأي ابن خلدون في هذا الشّأن حين فرّق بين الملكة وصناعة العربية بقوله : " إنّ ملكة هذا اللّسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التّعليم، والسّبب في ذلك أنّ صناعة العربية إنّما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لا نفس كيفية، فليس نفس الملكة وإنّما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا، وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه القوانين في نفسها، فإنّ العلم بقوانين الإعراب إنّما هو علم بكيفية العمل ..."[2] .

ولكي تتوطّد العلاقة بين الملكة والصنعة ، أو بعبارة أدّق لكي تتحوّل الصّنعة إلى ملكة، لا بدّ من الأخذ بحظّ وافر من كلام العرب وأشعارهم حتّى تترسّخ أكثر ومن ثمّ تتأتّى القدرة على الإنتاج وفق منوالهم.

(1) عون حسن : تطوّر الدّرس النّحوي ، ص 39 .

(2) ابن خلدون : المقدّمة ،ج 1 ، ص 435 .

ولتوضيح الصّورة الخّاصّة بعملية إلحاق المتعلّم بخصائص المجتمع العربي، يمكن التّمثيل لها بالخطاطة التّالية : [1]



فمن خلال هذه الخطابة ندرك العلاقة بين عناصر دورة التخاطب، كما ندرك كيف ولماذا تتمّ عملية الإلحاق ؟ .

إذ تعني هذه العملية جعل المتعلّم / المتلقّي حاذقا لكلام العرب الأقدمين شريطة أن يتوفّر هذا الكلام على عناصر الفصاحة ، بواسطة الضّوابط والقوانين المتمثّلة في القواعد النّحوية ، وما النّحاة في هذه الحالة إلاّ همزة وصل أو قل هم الجهاز التّنفيذيّ الذين تتمّ بهم هذه العملية.

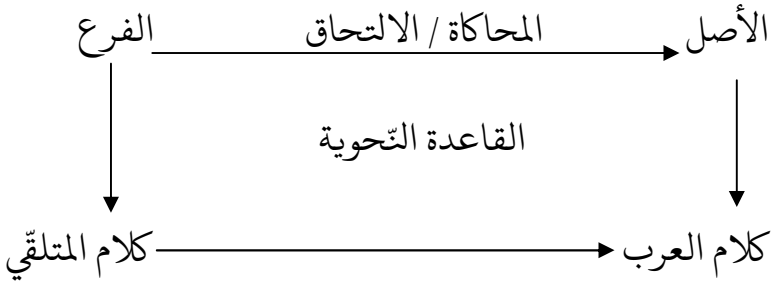
يقول **فؤاد بوعلي** في كتابه الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النّحوي -وهو يتحدّث عن دور المتعلّم- :" أمّا مشاركته الفعلية فتنحصر في تخزين المعلومات قصد استرجاعها عند الحاجة.

فعن طريق المعلّم، يحاول المتعلّم أن يحاكي نظاما لغويا مفقودا وهو النّظام الفصيح، ومن ثمّ فالمفهوم المحوري هنا هو **مفهوم الالتحاق** وبتعبير ابن جنّي :" **ليلحق من ليس من أهل**

(1) فؤاد بو علي : الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النّحوي العربي ، ص 29 .

العربية بأهلها في الفصاحة "، و عليه يصبح دور النّحو هنا دورا (**إلحاقيا**) حيث يبحث المتلقّي عن التّماثل مع البدوي في صحراء نجد و الحجاز " [1] .

ثمّ يورد لنا الأستاذ بو علي خطاطة يشرح من خلالها المقصود من كلامه والتي توضّح الغاية المرجّوة من النّحو والتي جعلناها خاصيّة من خصائص النّحو التّعليميّ وهي كالتّالي : [2]



وحتّى نفهم أكثر سنعمد فيما هو آت من بحثنا هذا إلى اعتماد مجموعة من الأمثلة من كتاب سيبويه ، لنوضّح كيف أنّ هذا الأخير عند تقريره للقاعدة أو للمعرفة النّحوية يحيل المتعلّم إلى النّماذج الكثيرة من أقوال العرب نثرا وشعرا ، وبما أنّ الكتاب يعجّ بالأمثلة سنقتصر على بعضها فيما يلي :

- قد يحيل سيبويه إلى القبائل المعترف بعربيتها مباشرة كقوله مثلا : " وزعم أبو الخطّاب ــ وسألته عنه غير مرّة ــ أنّ ناسا من العرب يوثق بعربيتهم وهم **بنو سليم** ، يجعلون باب قلت أجمع مثل ظننت " [3] .

وفي مثال آخر : " وأمّا **بنو تميم** فيجرونها مجرى أمّا وهل ، أي لا يعلمونها في شيء، وهو القياس لأنّه ليس بفعل وليس ما كليس ، ولا يكون فيها إضمار " [4] .

(1) فؤاد بوعلي : الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النّحوي ، ص 33 .
(2) المرجع نفسه ، ص 34 .
(3) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 126 .
(4) المرجع نفسه ، ص 73 .

" وأمّا أهل الحجاز فيشبهونها بليس إذ كان معناها كمعناها ... " [1] .

- وقد يحيل إلى العرب ويشير إليهم مباشرة كأن يقول : " **وسمعت بعض العرب** " ، "**ومن يقول من العرب** " ، " **وسمعنا من العرب** " ، " **وزعموا أنّ بعض العرب** " .

- وقد يدّل اللّفظ عليهم كأن يقول : زعموا، يحذفون، يستبدلون، قالوا، استغناؤهم، استغنوا...."، ثمّ يذكر أقوالهم ويقارنها أو يدعم رأيه بها أو يضعفها وهذا كلّه حتّى يتمكّن المتعلّم من محاكاة كلام العرب .

- وقد يحيل إلى أقوال الشّعراء صراحة غير مكتف بقول شاعر واحد، بل يدعم فكرته بكلّ ما يعرف من أقوالهم زيادة في الفهم وترسيخا للمعلومة أكثر.

وإليك الأمثلة التّالية :

جاء في (باب ما يكون في اللّفظ من الأغراض).

" اعلم أنّهم ممّا **يحذفون** الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك **ويحذفون** و**يعوّضون** و**يستغنون** بالشيء عن الشيء الذي أصله في **كلامهم** أن يستعمل حتّى يصير ساقطا " .

" فما حذف وأصله في الكلام غير ذلك ، لم يك ولا أدر وأشباه ذلك ، وأمّا **استغناؤهم** بالشيء عن الشيء فإنّهم **يقولون** : يدعُ ولا **يقولون** وَدَعَ ، **استغنوا** عنها بترك ، وأشباه ذلك كثير.

والعوض **قولهم** : زنادقة وزناديق وفرازنة وفرازين **حذفوا** الياء و**عوّضوها** حركة العين من أفعل .

وقولهم : اللّهم **حذفوا** " يا " و**ألحقوا** الميم عوضا " [2] .

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 74 .

(2) المرجع نفسه ، ص 45 .

فكلّ الألفاظ تشير إلى العرب الثقاة المعوّل عليهم في أخذ اللّغة، وتحيل إلى طرائقهم في الكلام مثال آخر وهذه المرّة في (باب ما يحتمل الشّعر)[1] ، فبعد أن يطلع المتعلّم عن القاعدة ويقرّرها له ، يشرع في إحالته على كلام العرب .

يقول سيبويه : اعلم أنّه يجوز في الشّعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف ويشبهونه بما ينصرف من الأسماء ، لأنّها أسماء كما أنّها أسماء ، وحذف ما لا يحذف ، ويشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفا كما قال العجاج :

قَوَاطِنًا مَكَّةَ مِنْ وُرْقِ الحَمِي . (يريد الحمام) [2]

وقال خفاف بن ندبة السلّمي :

كَنَوَاحِ رِيشِ حمَامةٍ نجديّةٍ ومَسَحْتِ باللّثّتينِ عَصْفَ الإثمِدِ (حذف ياء نواحي)[3]

وكما قال : " دارٌ لسُعدَى إذْهِ منْ هواكا . (سكّن الهاء ثم حذف الياء من هي)[4]

وقال : فطرت بمنصلي في يعملاتٍ دوامي الأيدِ يخبطن السّريحَا (حذف ياء الأيدي)[5]

وكما قال النّجاشي :

فلسْتُ بآتيهِ ولا أستطيعُهُ وَلاكِ اسْقِني إن كان ماؤُكِ ذَا فضْلِ (حذف النون)[6]

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 49 .
(2) المرجع نفسه ، ص 50.
(3) المرجع نفسه ، ص 50.
(4) المرجع نفسه ، ص50 .
(5) المرجع نفسه ،ص 51.
(6) المرجع نفسه ، ص 51.

وكما قال مالك بن خريم الهمداني :

فإن يكُ غثّاً أو سمينا فإنّني سأجعلُ عيْنَيْهِ لنَفسِهِ مَقْنَعا (لنفسهي ضرورة للوصل)[1]

وقال الأعشى :

وأخو الغوانِ متى يشأْ يصرِمْنَهُ ويعُدْنَ أعداءً بُعَيْدَ وِدادِ (حذف ياء الغواني)[2]

وربّما مدّدّوا مثل مساجد ومنابر فيقولون : مساجيد ومنابير شبّهوه بما جمع على غير واحدة في الكلام كما قال الفرزدق :

تنفي يداها الحصى في كلّ هاجرةٍ نفي الدّنانيرِ تنقادُ الصّياريفِ [3] .

إلى غير ذلك من الأبيات الشّعرية التي تشرح وتؤكّد وتبيّن الفكرة، فعند إيراد أيّ جزئية يبرهن عليها، وهذه الأقوال ليست للبرهنة والدّليل فقط، وإنّما هي نماذج يعتمد عليها القارئ أو المتعلّم تجعله ينغمس في دائرة الكلام العربيّ وتمدّه بالمنوال الذي ينسج عليه فيما بعد.

ثالثا : خاصيـــــة إنتاج :

إنّ النّحو عند سيبويه ذو صبغة إنتاجية ، أي أنّ متعلّم اللّغة عنده لا يكتفي بحذق القواعد المعيارية بل يتعدّى ذلك إلى العمل بها وتطبيقها ميدانيا حتى يلتحق بالجماعة اللّغوية الفصيحة ، فلا يمكن أن يكون هناك علم بلا عمل ، فالعلم بالقوانين يتطلّب تطبيقا. وكأنّي بالنّحاة الأوائل يطبّقون شعار العلم والعمل . ولا يمكن لهذا الشعار أن يتحقّق إلاّ بمحاكاة النّماذج اللّغوية أو محاولة المماثلة بين المتلقّي المتعلّم والأعرابي الموسوم بالفصاحة وهذا ما أكدّه ابن خلدون حين قال : " وتعلّم ممّا قررناه في هذا الباب أنّ حصول ملكة اللّسان العربي إنّما هو

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص51.

(2) المرجع نفسه ، ص51.

(3) المرجع نفسه ، ص 51 .

بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه ..." [1] .

لهذا السّبب نجد سيبويه يغدق على المتعلّم المحتمل فيضا من الأمثلة والشّواهد ويغرقه في بحر من النّماذج حتى يتمثّل هذا الأخير المقصود من تعلّم اللّغة الهدف وهو ما يسمّى بالتّربية اللّغوية.

والتي تعني عند فؤاد بوعلي أنّها :" ليست إعادة إنتاج كلام الفصحاء فقط ، بل هو ضبط السّلوك اللّغوي للشّخصية المسلمة ، أي أنّ البحث في عمق الإشكالية اللّغوية يربطنا بالعناية العمليّة المحدّدة في خلق مثال عيني لنموذج لغوي سابق ، ويتمّ ذلك بواسطة منظومة القواعد الممثّلة في النّحو ، فالنّحو هنا هو القناة التي تقدّم صورة الكلام العربي ، ومن ثمّ فإنّ هدف النّحو العربي ليس وصف الكلام العربي فحسب ، أو معالجة القدرة الباطنية للمتكلّم العربي فقط ، لكن محور اهتمامه هو **خلق ناطقين جدد بلغة الأقدمين وذلك بضبط صورة الكلام الأصلي وهيئته** "[2] .

ولا شكّ أنّ مفهوم الإنتاج يؤدي بنا إلى الحديث عن القياس في شقّه الاستعمالي إذ هو الآلة التي بواسطتها ينتج الكلام، فلا يمكن أن نتصوّر نحوا بلا قياس وهذا ما قاله ابن الأنباري: "أنّ من أنكر القياس في النّحو فقد أنكر النّحو، وأنّه إذا بطل أن يكون النّحو رواية ونقلا، وجب أن يكون قياسا وعقلا، والسرّ في ذلك أنّ عوامل الألفاظ يسيرة محصورة والألفاظ كثيرة غير محصورة، فلو لم يجز القياس واقتصر على ما ورد في النّقل من الاستعمال لأدّى ذلك إلى أن لا يفني ما تخصّ بما لا تخصّ، وبقى كثير من المعاني لا يمكن التعبير عنها، لعدم النّقل وذلك مناف لحكمة الوضع، فلذلك وجب أن يوضع وضعا قياسيا عقليا لا نقليا ".[3]

(1) ابن خلدون : المقدّمة ، ص 560 .

(2) فؤاد بوعلي : الأساس المعرفي والمنهجي للّغويات العربية ، ص 29 .

(3) ابن الأنباري : لمع الأدلة في أصول النّحو ، تح : سعيد الأفغاني ، مطبعة الجامعة السورية ، 1377 هـ / 1957 م ،ص99.

فالقياس اللّغو ي يعتبر من أهم الوسائل العمليّة في تعليم اللّغة العربيّة ، فقد استعمله سيبويه كثيرا في كتابه ، لأنّه الآلة التي بواسطتها ينتج اللّغة باستعمال النماذج والمثل . وقبل أن نسير قدما في بحثنا هذا نودّ أن نعرّف هذا القياس لغة واصطلاحا لنصل إلى أهمّ أقسامه .

إنّ القياس لغة هو التقدير ، حيث جاء في لسان العرب أنّ : قاس الشيء يقيسه قيسا وقياسا، واقتاسه وقيّسه إذا قدّره على مثاله " [1] .

أمّا القياس في الاصطلاح : " فهو حمل شيء على شيء لجامع بينهما "[2] ، أو " هو حمل غير المنقول على المنقول إذا كان في معناه " [3] .

والقياس عند النّحاة قسمان : قياس أصلي وقياس تعليلي [4]. فأمّا القياس الأصلي أو الاستقرائي أو الاستعمالي كما يسمّيه بعض النّحاة فهو : " إلحاق كلمة بما يناظرها في الصيغة، أو إلحاق تركيب بما يناظره في البنية في حكم ثبت للنّظير بالاستقراء لكثرته في بابه ، فهو إذن إلحاق لفظ وإجراؤه على نظائره على أساس قاعدة نحوية بنيت بالاستقراء على الكثير والمطّرد في بابه ، فهو حمل لفظ على نظيره في الحكم لأنّهما من باب واحد ويضبطهما قانون واحد ، ولأجل ذلك يكون لهما حكم واحد " [5].

إنّ هذا النّوع من القياس هو انتحاء لكلام العرب ، واتّباع لسننها في الكلام فما النّحو إلاّ قياس يتّبع ، وكما قال ابن جنّي : " واعلم أنّ من قوّة القياس عندهم اعتقاد النّحويين أنّ ما قيس على كلام العرب فهو عندهم من كلام العرب " [6] .

(1) ابن منظور : لسان العرب ، ج 5 ، ص 3793 . (المادة قيس) .
(2) عبد الرّحمن الحاج صالح : بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية ، ج2، ص49 .
(3) السيوطي: الاقتراح في علم أصول النّحو ، ص203 .
(4) ينظر : بن لعلام مخلوف : مبادئ في أصول النّحو ، ص 86.
(5) المرجع نفسه ، ص86 .
(6) ابن جنّي : الخصائص ، ص 114 .

ومثال ذلك أن يلحق المتكلّم فاعلا غير منقول عنده ولم يستعمله من قبل في التّركيب فاعلا منقولا ومعلوما عنده نحو قوله : دخل سفيان البارحة . فيرفع سفيان غير المنقول على ما عرفه واستعمله مما اختزنته ذاكرته من نظائر لهذا التّركيب الذي يستعمل على فاعل نحو : دخل محمد البارحة ، وخرج أحمد البارحة ، وسافر جمال البارحة .

ومثال ذلك أن تستعمل مفعولا به غير منقول عندك ولم تستعمله سابقا، في مكان مفعول به منقول ومعروف عندك ، كقولك : شاهدت التلفاز ، فتنصب المفعول به التلفاز غير المستعمل سابقا على نصب مفعول به منقول ومعروف لديك من جملة المفاعيل التي اختزنتها ذاكرتك كقولك : شاهدت الصّور ، شاهدت المناظر وهكذا دواليك .

ومن الأمثلة أيضا أنّك لمّا سمعت اسم مفعول من الفعل الثلاثي " كتب " مثلا صنعت عليه أسماء مفاعيل أخرى متّبعا القالب نفسه " مفعول " فقلت : مقروء ، ومدخول ومخروج على وزن مكتوب وهي كلّها صيغ قستها على نظائر في ذهنك عرفتها من قبل .

يقول بن لعلام مخلوف : " فهذا القياس إذن يقوم على اعتبار ما يطّرد من اللّفظ على سمت واحد في كلام العرب تستنبط منه قواعد ينبغي إجراء الكلام على منوالها ،ولذلك قالوا كلّ فاعل مرفوع وكلّ مفعول به منصوب ، ونحو ذلك ثبت ذلك باستقراء كلام العرب" [1] .

وهو نفسه ما قاله ابن جنّي : " ألا ترى أنّك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كلّ فاعل ولا مفعول وإنّما سمعت البعض قست عليه غيره فإذا سمعت قام زيد أجزت ظرف بشر، وكرم خالد"[2].

(1) مخلوف بن لعلام : مبادئ في أصول النّحو ، ص 87 .

(2) ابن جنّي : الخصائص ، ج 1 ، ص 317 .

وهو الموضوع الذي تحدّث عنه ابن خلدون كثيرا أثناء تناوله للملكة اللّغوية وكيفية تحصيلها ، إذ هي عنده عملية تكرار لمجموعة من الجمل والتّراكيب حتى تصير ملكة راسخة في الذّهن، نقوم بعد ذلك بالقياس عليها وبناء ما لا يعدّ ولا يحصى من أمثال تلك الجمل والتّراكيب. يقول ابن خلدون : "فالمتكلّم من العرب حين كانت ملكة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله، وأساليبهم في مخاطبتهم، وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصّبي استعمال المفردات فيلقفها أوّلا ثمّ يسمع التّراكيب بعدها فيلقفها كذلك، ثمّ لا يزال سماعهم لذلك يتجدّد في كلّ لحظة ومن كلّ متكلّم واستعماله يتكرّر إلى أن يصير ملكة، وصفة راسخة"[1].

وقد تحدّث تمّام حسّان كثيرا عن هذه الفكرة ، وأوعز هذا النّوع من القياس إلى الطفل باعتباره يملك ملكة فطرية تجعل في استطاعته أن يكتسب اللّغة التي يسمعها من حوله بواسطة استظهار نظامها وتشرّب طرق تركيبها ، ثمّ لا تلبث هذه الملكة أن تضعف بالتدريج كلّما ابتعد عن مرحلة الطفولة واقترب من مرحلة الرّجولة إذ تصبح عملية اكتساب لغة جديدة تتسّم بالصّعوبة وتظهر الحاجة إلى معرفة قواعد تلك اللّغة [2] .

ثمّ يعطي أمثلة لذلك بقوله : " وواضح من ملاحظة سلوك الأطفال أنّهم ينشئون في أنفسهم القواعد الكليّة أوّلا ثمّ يستثنون منها فيما بعد قواعد فرعية عليها ، ومن قبيل ذلك أنّ الطفل ينشئ قاعدة التأنيث بالتّاء قبل قواعد التأنيث بالعلامات الأخرى فإذا سمع مقابلات مثل : (كبير ، كبيرة)، (صغير ، صغيرة) ، استضمر هذه القاعدة من قواعد التأنيث وراح يطبقها على حالات أخرى فيقول :(أحمر ، أحمرة)، (أكبر ، أكبرة)، (عطشان ، عطشانة)، (سكران، سكرانة)، بل ربّما تصوّر وجود مؤنث لكلمات مثل : زوج و مرضع ... إلخ ، ثم يعدل بعد ذلك عن هذا التّعميم كلّما اكتشف لنفسه قاعدة تقيّد هذا الإطلاق فيعرف أنّ (أحمر) يؤنث على

(1) ابن خلدون : المقدّمة ، ج2 ، ص 378 .

(2) ينظر : تمّام حسّان : الأصول ، ص 151 .

حمراء، وأكبر على كبرى، ولكن الفرصة ضئيلة أمامه في الكشف عن أنّ (زوج) و(مرضع) لا تلحقهما التاء وبهذا يظل يستعمل زوجة ومرضعة "[1] .

وهذا القياس هو نفسه الذي تسعى المدرسة إلى تقديمه وتدريب التلاميذ عليه من خلال محاكاة نماذج معينّة تقدّم مع فارق بينه وبين المستعمل في الأسرة لأنّ المستعمل في المدرسة يخضع لقواعد وضوابط منتقاة بعناية حسب درجة السّهولة والصّعوبة وحسب طبيعة المستويات الدّراسية. وهو بهذه الحالة قياس تطبيقي على أساس نظري [2] .

وعلى هذا الأساس يصبح القياس الاستعمالي كالقالب أو المنوال الذي ينطلق منه مؤلف الكلام لينتج كلاما جديدا ، فمن طبيعته أن ينتج بالنّمط التّركيبي الواحد جملا لا حصر لها .

يقول ابن خلدون في هذا الشّأن : " فإنّ مؤلف الكلام هو كالبنّاء أو النسّاج والصور الذّهنية المنطقية كالقالب الذي يبنى فيه والمنوال الذي ينسج عليه " [3] .

فالمتعلّم أو مؤلف الكلام يحفظ كلام العرب من قرآن وأحاديث وأشعار وأقوال منثورة ثمّ يستعملها للتّعبير عمّا في نفسه مبتكرا بذلك تراكيب وجملا مماثلة لها، بأسلوبه الخاص من خلال القياس والبناء على هذا الحفظ .

يقول ابن خلدون : " ثمّ يتصّرف بعد ذلك في التّعبير عمّا في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم " [4] .

إنّ هذا القياس هو قياس المتكلّم فهو من يجريه بالسّليقة والصّيغ يلجأ إليه الصّغير والكبير لأنّه انتحاء لسمت كلام العرب ومحاكاة لقوالبه وبناه ، يلجأ إليه المتكلّم دونما شعور منه، فهو ينشئ جملا على نظائرها المختزنة في ذاكرته .

(1) تمّام حسّان : الأصول ، ص 152 .

(2) المرجع نفسه ، ص 152 .

(3) ابن خلدون : المقدمة ، ج 2 ، ص 398 .

(4) المرجع نفسه ، ص 384 .

فهو الآلة التي بواسطتها تنتج اللّغة ، فمن خلالها يتمّ إنتاج جمل و تراكيب وصيغ لم تستعمل من قبل قياسا على نظائرها موجودة في ذهن وذاكرة المتكلّم .

وبهذا يصير القياس الاستعمالي عملية إبداعية يلجأ إليها اللّغوي لإنتاج مصطلحات جديدة على غرار تلك التي سمعها ، فعلى شاكلة نخاسة يضع صحافة وعلى وزن قافلة يسمّى حافلة وطائرة.

أمّا الغاية المرجوّة من هذا النّوع من القياس فهو مجاراة العرب في كلامها والسّير على منوالها ، ووفق القوالب التي وضعوا، نضع ما نشاء من التّراكيب والصّيغ، وبالتّالي نحافظ على بنى اللّغة وقوالبها الإفرادية والتّركيبية فتجري اللّغة عند المتكلّمين على سمت واحد ، وتتعاقبها الأجيال .

ومن فوائد هذا القياس أنّ النّحاة قد استطاعوا أن يجمعوا لغة العرب وفق هذه القوالب، فلو أردنا أن نجمع كلّ ما نطقت به العرب من حيث المفردات أو التّراكيب فالأكيد أنّ ما لايعدّ ولا يحصى من المجلّدات غير قادر على حملها وبالتّالي توصف العملية بالمستحيل . وهذا ما ذهب إليه تمّام حسّان في معرض حديثه عن العلم المضبوط وغير المضبوط حيث نجده يشرح الفكرة التي نحن بصدد دراستها إذ يقول : " والمعروف أنّ العلم المضبوط حين يستعصي عليه الاستقراء التّام لما "لا يدخل تحت الحصر " لا يقف عاجزا أمام هذا الاستعصاء إنّما يعمد إلى الاستقراء النّاقص، ثمّ يجبر صفة النقصان فيه بالاعتماد على **مبدأ الحتمية** الذي يرتضي أنّ ما صدق من حكم على المفردات المحدودة التي خضعت للاستقراء صدق (حتما) على ما لم يخضع من المفردات للاستقراء في نطاق الموضوع المدروس . وهكذا تمنح الحتمية للعلم صفة الشّمول إذ تجعل ما غاب من المفردات بمثابة ما حضر، وتنسحب النتائج العلمية التي يصل إليها الباحث على الحاضر والغائب على حدّ سواء " [1].

(1) تمام حسّان : الأصول ، ص 17 .

ومعنى ذلك أنّ النّحويين حين استقرأوا لغة العرب لم يشملوها كلّها وإنّما خضعت بعضها لهذا الاستقراء ،وبناء على مبدأ الاطّراد تمّ وضع القواعد الضابطة ومن هنا تخضع لهذه القواعد كلّ لغة العرب سواء ما سمع أو ما لم يسمع ، نقل أو لم ينقل . وهذا ما يطلق عليه مبدأ الحتمية .

وعليه نقول بأنّ القياس هو الآلة التي تولد المفردات والجمل من مثل ما نطقت به العرب يحمل عبارة " صيغ عند العرب " .

كما أنّه (القياس) اعتبر دائما الوسيلة المثلى لاكتشاف الكلمات المتماثلة بنائيا ، وكذا الجمل المتناظرة من حيث البنية العاملية ، يقول عبد الرّحمن الحاج صالح : " إنّ حمل الكلم أو الجمل المتناظرة بعضها على بعض تظهر من خلاله البنية التي تجمع النظائر في الباب الواحد وهذا عمل رياضي يسمّى الآن بتطبيق النّظير على النّظير " [1].

"والنّظائر هي مجموعة الأفراد التي تنتمي إلى الباب ، وكونها نظائر بعضها لبعض معناه أنّ كلّ واحد منهما هو المقابل والمساوي في الصّيغة لجميع عناصر الباب ، والنّظير غير الشّبيه بل المتّفق في البناء وهذا التوافق في البناء هو الذي يسميه النّحاة قياسا " [2]. وبهذه الطّريقة القياسية يحمل الشيء على شيء مساو له وينتميان إلى نفس الباب .

يوضح بن لعلام العملية القياسية في باب اسم المفعول من الفعل الثلاثي وكيف أنّ النّظائر والأمثلة تحمل بعضها على بعض [3] :

(1) عبد الرّحمن الحاج صالح : النظرية الخليلية الحديثة، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد10، 1996، ص95 .

(2) عبد الرّحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية ، ج 1 ، ص 322 ـ 323 .

(3) مخلوف بن لعلام : مبادئ في أصول النّحو ، ص 91 .

موضع الزيادة	موضع الفاء	موضع العين	موضع الزيادة	موضع اللام
مـ	ط	ل	و	ب
مـ	عـ	ر	و	ف
مـ	كـ	ت	و	ب
مـ	عـ	قـ	و	ل

فكلّ هذه الأمثلة تنتمي إلى صيغة واحدة ومن باب واحد ألا وهو باب اسم المفعول، والصّيغة مفعول ، أي أنّ اسم المفعول من الفعل الثلاثي الصّحيح يصاغ على وزن مفعول .

وهكذا بالنّسبة للكثير من الأبواب النّحوية عند سيبويه كاسم الفاعل من مصدر الفعل الثلاثي الصّحيح فهو يصاغ على وزن فاعل كقاتل وكاتب وداخل وخارج وغيرها ، وكمثال آخر لما جاء به سيبويه حيث يقول في باب ما عالجت به والمقصود اسم الآلة : " وكلّ شيء يعالج به فهو مكسور الأوّل كانت فيه هاء التّأنيث أو لم تسكّن وذلك قولك : مِحْلَب ، ومِنْجَل ، ومِكْسَحة، ومسَلَّة ، والمِصّفَّى ، والمِخْرَز ، وقد يجيء على مفعال نحو مقراض ومفتاح ومصباح "[1] .

فسيبويه في هذه الحالة يعطينا المنوال أو القالب ونحن نقوم بحمل ما لم يُسمع من كلام العرب على ما سمعنا باستعمال المثال المقدّم فنقول على سبيل المثال : مقلمة ، مبراة ، ممحاة ، مِفَكّ، مِرْجَل وهكذا .

وكذلك في الجانب التّركيبي فنقوم أيضا بحمل تركيب على تركيب مساو له ونظير له في نفس الباب، فمن خلال التجريد نصل إلى بنية عاملية انتهى إليها القياس والمثال الذي قدّمه بن لعلام في هذا الشّأن والمتعلّق أساسا بالحروف المشبّهة بالفعل يبرز بما لا يدع مجالا للشكّ كيف أنّها ومعموليها تجريد لبنية عاملية انتهى إليها القياس الاستعمالي. فكلّ الجمل المتناظرة في

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 4 ، ص 69 .

هذا الباب (باب الحروف المشبّهة بالفعل) تجمعها بنية عاملية واحدة هي : عامل + معمول أوّل منصوب + معمول ثان مرفوع [1] .

عامل	معمول أوّل منصوب	معمول ثان مرفوع
إنّ	الطّقسَ	باردٌ
كأنّ	السّماءَ	قبّةٌ
ليت	الشّبابَ	متجدّدٌ
لعلّ	الشفاءَ	قريبٌ
لكنّ	ـــه	أمينٌ

وما ينطبق على الحروف المشبّهة بالفعل ينطبق أيضا على الأفعال الماضية النّاقصة ، فكان وأخواتها مع معموليهما تجريد لبنية عاملية تنتمي إلى باب واحد وبنية عاملية واحدة وهي : عامل + معمول أوّل مرفوع + معمول ثان منصوب .

وسنحاول أن نوضح هذا من خلال هذا الجدول قياسا على الجدول السّابق :

العامل	معمول أوّل مرفوع	معمول ثان منصوب
كان	الفارسُ	شجاعاً
أصبح	الجوُّ	صحوًا
أضحى	الطفلُ	عليلاً
أمسى	الأستاذُ	تعبًا
بات	المريضُ	نائمًا
صار	الشّبلُ	أسدًا
ليس	الشّيخُ	بخيلاً
ظلّ	الوالدُ	كئيبًا

(1) مخلوف بن لعلام : مبادئ في أصول النّحو ، ص 92 .

فكلّ هذه التّراكيب متناظرة وتنتمي إلى نفس الباب وهي تجريد لبنية عاملية وهي نتاج لقياس استعمالي استنبطه سيبويه من خلال استقرائه لكلام العرب ، وعليه ومن خلال هذه البنية العاملية نستطيع أن نجمع ما لا يعدّ من الأمثلة ممّا لم نسمعه من كلام العرب قياسا على كلامهم.

وقد أورد عبد الرّحمن الحاج صالح ما يوضح القياس الاستعمالي عند النّحاة فهو:" أن تحمل كلّ ما ينتمي إلى جنس أو فئة معيّنة من العناصر اللّغوية بعضه على بعض حتى يمكن أن يتضحّ تكافؤها في البنية وذلك مثل الفعل الماضي المجرّد الأجوف ، فكلّ الكلمات التي تنتمي إلى هذه الفئة من جهة ، وتختلف في الوقت نفسه بمادتها الأصلية تحمل بعضها على بعض، كلّ عنصر فيها إزاء نظيره من الكلمات الأخرى حتى يظهر تكافؤها (تناظرها)، ويتمّ بذلك استنباط المثال الذي يجمعها الجامع أو البنية المجردّة التي تمتاز بها هذه الفئة من غيرها " [1] .

وبواسطة هذا القياس اكتشفنا البنية الجامعة بحمل كلمات بعضها على بعض ،فكذلك يمكن استنباط البنية العاملية الجامعة بحمل جمل بعضها على بعض .

يقول عبد الرّحمن الحاج صالح : " حملنا كلّ هذه الجمل بعضها على بعض كما فعل سيبويه ، وبذلك تظهر موازاة تامة بين العناصر ، لأنّ إجراء الشيء على ما هو بمنزلته حتى و لو كان مختلفا عنه تماما يكشف لنا البنية اللّفظية الجامعة ، أي التي تشترك فيها العدد اللاّنهائي من الجمل، وهذا هو النّوع الذي يسمّيه النّحاة في مستوى الجملة ههنا قياسا ومثالا واحدا وأصلا تبنى عليه وتتفرّع عليه الفروع فهو بالنّسبة للجمل كالبناء والوزن (والمثال) بالنسبة للكلمة " [2] .

(1) عبد الرحمن الحاج صالح : بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية ، ج2 ، ص 49 .

(2) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 298 .

والجدول الحملي التالي يوضح المقصود من هذا الكلام [1] .

عا	مع 1	مع 2
Ø	زيدٌ	منطلق
إنّ	زيدًا	منطلق
كان	زيدٌ	منطلقًا
ظننت	زيدًا	منطلقًا
اعلمت عمرا	زيدًا	منطلقًا

يقول بن لعلام : " وبهذا القياس تبيّن للنّحاة عامل الابتداء وهو موضع في البنية العاملية عار من اللّفظ ، ولذلك عرفه النّحاة بأنّه التعرّي عن العامل اللّفظي كما تبيّنت لهم البنية العاملية الجامعة لكلّ هذه الجمل وهي هنا : عا + مع 1 + مع 2 " [2] .

وفي الأخير نخلص إلى أنّ هذا النّوع من القياس هو المعمول به والمعوّل عليه كثيرا في تدريس اللّغة العربية بصفة عامة والقواعد بصفة خاصّة في مدارسنا اليوم ، ونقصد به التّطبيق على القواعد، فمن خلال التّمارين البنائية نجعل من المتعلّم يستنبط صيغا وتراكيب كثيرة من خلال حمل كلمات على كلمات أخرى أو جمل على جمل أخرى وهو ما يسمّى النسج على المنوال كما أسلفنا ؛وبالقياس الأصلي أو الاستعمالي وحده يمكن الوصول إلى إنتاج واستنباط صيغ كثيرة وجمل لا حصر لها وبالتّالي الوصول إلى استخلاص القواعد الضابطة وتحديد قوانينها ليتبّع متكلّم العربية سنن العرب في كلامها وينتحي سمتها .

(1) مخلوف بن لعلام : مبادئ في أصول النّحو ، ص93 .

(2) المرجع نفسه ، ص93 .

رابعا : خاصية تعليـــــــــل :

من خصائص الخطاب التّعليمي عند سيبويه ، خاصية تعليل الظّواهر اللّغوية، فعند تصفّحنا للكتاب ، نجده يعلّل لكلّ جزئية أو قاعدة أو موضع رفع أو نصب أو جزم أو جرّ، لكلّ حذف أو إضمار .يقول شوقي ضيف في هذا الشّأن :" وتكثر التّعليلات في كتاب سيبويه كثرة مفرطة، سواء للقواعد المطردة أو للأمثلة الشّاذة ،فهو لا يعلّل فقط لما كثر في ألسنتهم واستنبطت على أساسه القواعد ،بل يعلّل أيضا لما يخرج عن تلك القواعد، وكأنّما لا يوجد أسلوب ولا توجد قاعدة بدون علّة "[1] ، ويستند في كلامه هذا إلى المقولة التي يقدّمها سيبويه في بداية كتابه حين يقول :" وليس شيء يضطرّون إليه إلاّ وهم يحاولون به وجها " [2] .

ويذهب حسن سعيد الملخ إلى أنّ :" كتاب سيبويه يتّخذ شكل البحث الميداني المعتمد على الاستقراء النّاقص، ففيه نماذج من الاستقراء ووصف للمستقرأ وتقعيد له وتعليل للوصف والتّقعيد "[3] .

هذا الاهتمام بالتّعليل والإكثار منه ليس لسيبويه منه إلى فضل التّوسع عمّا كان عند شيوخه ، زد على ذلك فالكثير من التّعليلات النّحوية عنده لا تعدو أن تكون فطرية مستمدّة من النّصوص اللّغوية ، وهذا ما حذا بالدّكتور حسن عون لأن يقول :" قد يلجأ سيبويه إلى التّعليل لبعض القواعد النّحوية أو الظّواهر اللّغوية وهو ــ إن فعل ــ لا يلجأ إلى التّعليل **المنطقي المتسم بالتجريدية ، ولا إلى التّعليل العقلي المتعب ،وإنّما هو تعليل فطري في متناول الكثير،تعليل مستمدّ من فهم النّص اللّغوي فهما لا تكلّف فيه ولا صنعة** " [4] .

(1) شوقي ضيف : المدارس النّحوية ، ص 63 .

(2) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 54 .

(3) حسن خميس سعيد الملخ : نظريّة التّعليل النحوي ،دار الشّروق، عمّان ،الأردن ،ط1 ،2000،ص41.

(4) عون حسن : تطوّر الدّرس النّحوي ، ص 82 .

والدّليل على أنّ النّحاة أكثروا من التّعليل أنّهم كانوا يؤمنون بحكمة الواضع ، وينظرون جراء ذلك إلى اللّغة على أنّها كلّ متكامل ، يحكمه النّظام ويسوده الانسجام ، عملوا ما عملوا بعد استقراء ظواهرها إلى تصنيفها في أبواب تجمع النّظائر ، وضبطها بأقيسة تنتظم الأشباه والأمثال، وأيّ شذوذ أو عدول عن هذه الأبواب أو الأقيسة استوجب منهم التّعليل ، فكانوا يعلّلون الشّواذ بتبيين سبب شذوذها ، ويعلّلون ما عدل به عن قياس بابه بتقدير أصله الذي كان ينبغي أن يكون عليه، وبتبيين التّحولات التي طرأت عليه حتى آل إلى ما هو عليه " [1] .

وقد سبق وأن أشرنا عند حديثنا عن العلّة وأنواعها ومسالكها ، أنّ من بين هذه التّعليلات، نوع تتطلّبه الغاية التّربويّة، إذ هو ضروري للمتعلّم حتى يفهم المقصود من الدّرس النّحوي، وهذا النّوع أطلقوا عليه (العلل التّعليمية)، لما له من علاقة مباشرة بتعلّم كلام العرب وفهم قانون لغتهم .

وقد أشار السّيوطي في كتابه الاقتراح عن الدّينوري الجليس قوله :" إنّ اعتلالات النّحويّين صنفان : علّة تطّرد على كلام العرب ، وتنساق إلى قانون لغتهم ، وعلّة تظهر حكمتهم، وتكشف عن صحّة أغراضهم ومقاصدهم في موضوعاتهم وهم للأولى أكثر استعمالا وأشدّ تناولا، وهي واسعة الشّعب ، إلاّ أنّ مدار المشهورة منها على أربعة وعشرين نوعا وهي : علّة سماع، وعلّة تشبيه ، وعلّة استغناء، وعلّة استثقال، وعلّة فرق ،وعلّة توكيد ،وعلّة تعويض، وعلّة نظير ، وعلّة نقيض، وعلّة حمل على المعنى، وعلّة مشاكلة، وعلّة معادلة ،وعلّة قرب ومجاورة، وعلّة وجوب ، وعلّة جواز ، وعلّة تغليب ، وعلّة اختصار، وعلّة تخفيف، وعلّة دلالة حال، وعلّة أصل وعلّة تحليل ، وعلّة إشعار ، وعلّة تضاد ، وعلّة أولى "[2] .

(1) بن حجر محمد : العلّة والتّعليل بين النّحاة والفقهاء ، ماجستير لغة عربية ،إشراف د : مخلوف بن لعلام ،جامعة البليدة، 2004 ،ص 97 .

(2) السّيوطي : الاقتراح في أصول النّحو ، ص 256 ــ 257 .

والشيء الذي يجب الإشارة إليه هو أنّ سيبويه لم يذكر لفظ العلّة إلاّ فيما ندر، وإنّما هذه التّسميات استنبطت من خلال حديثه وتفسيره لظواهر اللّغة . ولا يهمنا من الحديث عن التّعليل عند هذا النّحوي الفذّ إلاّ علاقة تعليلاته بتعليم النّحو بعيدا عن التّصنيفات والتّعريفات .وفيما يلي نورد بعض التّعليلات ونعلّق عليها لنشير إلى طريقة سيبويه في التّعليل وعلاقته بالتّعليم .

المبني والمعرب :

ففي ثاني باب من أبواب النّحو عند سيبويه يعلّل للسّبب الذي دعاه إلى ذكر المجاري الثمانية فيقول :" وإنّما ذكرت لك ثمانية مجار **لأفرّق** بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل ــ وليس شيء منها إلاّ وهو يزول عنه ــ وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التي لكلّ عامل منها ضرب من اللّفظ في الحرف وذلك الحرف حرف إعراب " [1] .

في نفس الباب يعلّل لعدم جزم الأسماء ، إذ يقول : " وليس في الأسماء جزم لتمكنّها وللحاق التنوين ، فإذا ذهب التنوين لم يجمعوا على الاسم ذهابه وذهاب الحركة " [2] .

ولا يقف سيبويه عند تعليل إعراب الاسم بل يتعدّاه إلى تعليل إعراب الفعل المضارع، فبعد أن يتحدّث عن نصب المضارع وجزمه ، يعلّل عدم جرّه فيقول :" وليس في الأفعال المضارعة جرّ كما أنّه ليس في الأسماء جزم لأنّ المجرور داخل في المضاف إليه معاقب للتنوين وليس ذلك في هذه الأفعال "[3] .

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 39 .
(2) المرجع نفسه ، ص 40 .
(3) المرجع نفسه ، ص 40 .

ولا يكتفي بالتّعليل بل يبرّر فكرته بذكر الأمثلة التي تشرح وتقرّب الفهم فيقول :" وإنّما ضارعت أسماء الفاعلين أنّك تقول : إنّ عبد الله ليفعل فيوافق قولك :لفاعل حتى كأنّك قلت : إنّ زيدا لفاعل فيما تريد من المعنى "[1] .

فالمضارع شابه اسم الفاعل لهذه الأسباب ، لأنّه في معناه ويقع موقعه ، ثمّ ينتقل سيبويه إلى تعليل عدم تسكين الفعل الماضي وكأنّ الأصل في الأفعال أن تكون ساكنة الآخر ،والسّبب الذي جعل الفعل الماضي مفتوح الآخر أنّ فيه بعض ما في المضارعة ولذلك كان يقع موقع اسم الفاعل والمضارع جميعا .

يقول : "ولم يسكّنوا آخر فعل لأنّ فيها بعض ما في المضارعة تقول : هذا رجل ضربنا فتصف بها النّكرة وتكون في موضع ضارب إذا قلت هذا رجل ضارب ، وتقول : إن فعل فعلت فيكون في معنى إن يفعل أفعل فهي فعل كما أنّ المضارع فعل وقد وقعت موقعها "[2] .

وعن هذه القضية (فتح الماضي) تحدّث السّيرافي إذ يقول :" إن قيل :لم وجب فتح أواخر الأفعال الماضية ، وهلا أسكنت أو حرّكت بغير الفتح ؟ فالجواب عنه : إنّ الأفعال كلّها حقّها أن تكون مسكنة الأواخر ، والأسماء كلّها حقّها أن تكون معربة، غير أنّ الأفعال انقسمت ثلاثة أقسام : فقسم منها ضارع الأسماء مضارعة تامّة فاستحقّ أن يكون معربا، وهو الأفعال المضارعة، التي في أوائلها الزّوائد الأربع. والضّرب الثاني : ما ضارع الأسماء مضارعة ناقصة، وهو الماضي، والضّرب الثالث ما لم يضارع الأسماء بوجه من الوجوه وهو فعل الأمر " [3] .

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 40 .

(2) المرجع نفسه ، ص 41.

(3) المرجع نفسه ، ص 42 (الهامش).

أمّا في مسألة المثنّى والجمع في الأسماء فسيبويه يرى أنّ النّون ليست علم الإعراب ، بل علمه حروف اللّين التي قبلها وهي الألف والياء في المثنّى والواو والياء في جمع المذكر السالم ، أمّا النون فحرف يقابله تنوين الاسم المعرب وكذلك كانت تحذف في حالة الإضافة .

ويقارن سيبويه بين هذه النون التي في الأسماء والتي في الأفعال الخمسة :يفعلان وتفعلان، ويفعلون وتفعلون وتفعلين ، ويقول : إنّ نون هذه الأفعال علم الرّفع ، أمّا حروف اللّين قبلها فضمائر وليست علما للإعراب كما هو الشّأن في الأسماء المثناة والمجموعة، ويشرح ذلك كما يلي :" واعلم أنّك إذا ثنيت الواحد لحقته زيادتان : الأولى منهما حرف المدّ واللّين وهو حرف الإعراب غير متحرك ولا منوّن **يكون في الرّفع ألفا ولم يكن واوا ليفصل بين التثنية والجمع الذي على حدّ التثنية ويكون في الجرّ ياء مفتوحا ما قبلها ولم يكسر ليفصل بين التثنية والجمع الذي على حدّ التثنية ،ويكون في النّصب كذلك ولم يجعلوا النّصب ألفا ليكون مثله في الجمع وكان مع ذا أن يكون تابعا لما الجرّ منه أولى لأنّ الجرّ للاسم لا يجاوزه والرّفع قد ينتقل إلى الفعل فكان هذا أغلب وأقرب** "[1] .

ثمّ يواصل حديثه في هذا الشّأن مبيّنا رأيه في النّون التي في الأسماء المثناة والمجموعة قائلا :" وتكون الزّيادة الثانية نونا **كأنّها عوض لما منع من الحركة والتنوين** وهي النّون وحركتها الكسر وذلك قولك : هما الرّجلان ، ورأيت الرّجلين ، ومررت بالرّجلين "[2] .

ثمّ ينتقل إلى الحديث عن الجمع إذ يرفع بالواو والنّون وينصب ويجرّ بالياء والنّون فالواو والياء هما حرفا الإعراب ، أمّا النّون فهي عوض عن التّنوين في المفرد ،وقد فصّل سيبويه حتى في حركة الحرف الذي يسبق حرف اللين وكذا حركة النّون الأخيرة ليفصل بينها وبين نظيرتها في المثنى .

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 42 .

(2) المرجع نفسه ، ص 43 .

فيقول في هذا الشّأن :" وإذا جمعت على حدّ التثنية لحقتها زائدتان : الأولى منها حرف المدّ واللّين والثانية نون، وحال الأولى في السّكون وترك التنوين وأنّها حرف الإعراب حال الأولى في التثنية إلاّ أنّها واو مضموم ما قبلها في الرّفع وفي الجرّ والنّصب ياء مكسور ما قبلها ونونا مفتوحة فرّقوا بينها وبين نون الاثنين كما أنّ حرف اللّين الذي هو حرف الإعراب مختلف فيهما"[1] .

وعند حديثه عن الأفعال الخمسة يوضح الزيادة التي تلحق الفعل في حال التثنية والجمع كما وضحها في الاسم حتى يزيل كلّ التباس معلّلا ذلك دون تعقيد أو فلسفة فيقول :" واعلم أنّ التثنية إذا لحقت الأفعال المضارعة علامة للفاعلين لحقتها ألف ونون ولم تكن الألف حرف إعراب لأنّك لم ترد أن تثني بفعل هذا البناء فتضمّ إليه بفعل آخر ولكنّك إنّما ألحقته هذا علامة للفاعلين ولم تكن منوّنة ولا يلزمها الحركة لأنّه يدركها الجزم والسّكون فتكون الأولى حرف الإعراب والثانية كالتّنوين فكلّما كانت حالها في الواحد غير حال الاسم وفي التثنية لم تكن بمنزلته فجعلوا إعرابه في الرّفع ثبات النّون لتكون له في التثنية علامة للرّفع كما كان في الواحد منع حرف الإعراب " [2] .

وكما تحدّث عن النّون في الأسماء يتحدّث عنها في الأفعال الخمسة فيقول:" وجعلوا النّون مكسورة كحالها في الاسم ولم يجعلوها حرف الإعراب إذ كانت متحرّكة لا تثبت في الجزم ولم يكونوا ليحذفوا الألف لأنّها علامة الإضمار والتثنية في قول من قال (أكلوني البراغيث) وبمنزلة التاء في قلت وقالت ، فأثبتوها في الرّفع وحذفوها في الجزم كما حذفوا الحركة في الواحد " [3] .

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 43 .

(2) المرجع نفسه ، ص 44 .

(3) المرجع نفسه ، ص44 .

ويناظر بين الأسماء والأفعال فيقول : " ووافق النّصب الجزم في الحذف كما وافق النّصب الجرّ في الأسماء، **لأنّ الجزم في الأفعال نظير الجرّ في الأسماء** ، والأسماء ليس لها في الجزم نصيب كما أنّه ليس للفعل في الجرّ نصيب وذلك قولك : هما يفعلان، ولم يفعلا ، ولن يفعلا " [1] .

ثمّ يواصل كلامه عن الجمع في الأفعال الخمسة فيقول :" وكذلك إذا لحقت الأفعال علامة للجمع لحقتها زيادتان إلاّ أنّ الأولى واو مضموم ما قبلها لئلا يكون الجمع كالتثنية ونونها مفتوحة بمنزلتها في الأسماء كما فعلت ذلك في التثنية لأنّهما وقعتا في التثنية والجمع ههنا كما أنّهما في الأسماء كذلك وهو قولك : هم يفعلون ولم يفعلوا ولن يفعلوا " [2] .

والحديث في هذا الباب يطول ، والتّعليل موجود تقريبا في كلّ جزئية ، وسيبويه تراه يفصّل تفصيلا ويغدق على القارئ في الشّرح حتى يفهم ويثبت لديه الفهم ،" فهو يسند دائما ما يستنبطه من القواعد والأحكام بالعلل التي تصوّر دقّته في فقه الأسرار اللّغوية والتّركيبية التي استقرّت في دخائل العرب من قديم " [3] .

الممنوع من الصّرف :

وهو من الأبواب التي أسالت حبرا كثيرا ، كون سيبويه وضعها في الجانب الصّرفي، فعند حديثنا عن إعرابه تكون في الجانب النّحوي وعند تطرّقنا إلى بقيّة أحكامه نكون قد تطرّقنا إلى جانبه الصّرفي، وما يهمّنا هو إعراب الممنوع من الصّرف، وقد ذكره في الباب الخاص بمجاري الكلم من العربية ، وقد أشار سيبويه إلى علّتين لهذا الموضوع : أمّا العلّة الأولى فتخصّ جرّه بالفتحة نيابة عن الكسرة، أمّا الثانية فعلّة جرّه بالكسرة إذا أضيف أو دخلته الألف واللاّم .

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 44 .

(2) المرجع نفسه ، ص 44 .

(3) شوقي ضيف : المدارس النّحوية ، ص 51 .

يرفع الممنوع من الصّرف بالضمة وينصب ويجرّ بالفتحة كما أشارت إلى ذلك كتب النّحو، وقد ذكر سيبويه سبب جرّه بالفتحة بقوله :" واعلم أنّ ما ضارع الفعل المضارع من الأسماء في الكلام ووافقه في البناء أجري لفظه مجرى ما يستثقلون ومنعوه ما يكون لما يستخفون وذلك نحو أبيض، وأسود، وأحمر وأصفر، فهذا بناء أذهب وأعلم، فيكون في موضع الجرّ مفتوحا، استثقلوه حين قارب في الكلام ووافق في البناء " [1] .

فيتضح لنا أنّ العلّة عند سيبويه في جرّ الممنوع من الصّرف بالفتحة هي **شبيهة الفعل ، والفعل محروم من التّنوين والجرّ ، فكذلك ما أشبهه يحرم منهما**، وجرّ بالفتحة حملا للجرّ على النّصب كما حمل جزم الفعل على نصبه ، لأنّ الجرّ في الأسماء نظير الجزم في الأفعال .

أمّا العلّة الثانية في هذا الموضوع فهي سبب الذي جعل الممنوع من الصّرف يجرّ بالكسرة **إذا أضيف أو دخلته الألف واللاّم .**

فسيبويه يرى أنّ جميع ما لا ينصرف إذا دخلته الألف واللاّم أو أضيف انجرّ بالكسرة فيقول : " وجميع ما لا ينصرف إذا أدخلت عليه الألف واللاّم أو أضيف انجرّ " [2] .

وقد علّل سيبويه ذلك بقوله :" لأنّها أسماء أدخل عليها ما يدخل على المنصرف وأدخل فيها الجرّ كما يدخل في المنصرف ولا يكون ذلك في الأفعال وأمنوا التّنوين "[3] .

وهذا يعني أنّ الألف واللاّم والإضافة من خواص الأسماء فأخرجتها عن شبه الفعل .

- **علّة رفع الفاعل ونصب المفعول** : إنّ الفاعل مرفوع ، وإنّ المفعول به منصوب ، وهذا الأمر واضح لدى كلّ النّحاة والدّارسين وهو ثابت باستقراء كلام العرب ، وقد علّل سيبويه لهذا الأمر

(1) سيبويه : الكتاب ، ج1 ، ص 45 .
(2) المرجع نفسه ، ص 46 .
(3) المرجع نفسه ، ص 47 .

بعلّة تعليمية واضحة بعيدة عن التكليف والجدل والفلسفة فهو يقول : " هذا باب الفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعول " ، وذلك قولك : ضرب عبد الله زيدا ، فعبد الله ارتفع ههنا كما ارتفع في (ذهب) ، وشغلت ضرب به كما شغلت به ذهب، وانتصب زيد لأنّه مفعول تعدّى إليه فعل الفاعل " [1] .

ومعنى هذا الكلام أنّ الفاعل ارتفع بفعله لأنّنا شغلنا الفعل به ولم نشغله بغيره ، فعبد الله ههنا فاعل ارتفع بـ (ضرب) المتعدّي ، كما ارتفع الفاعل في ذهب اللاّزم لأنّنا شغلنا الفعل به وفرغناه له، وانتصب المفعول به لأنّه تعدّى إليه الفعل فنصبه ، فهذه العلّة واضحة مشتقة من صميم اللّغة بعيدة عن كلّ تعقيد تفهم من قبل المتلقّي من دون بذل جهد .

- **علّة رفع نائب الفاعل** : فهي علّة إسناد ، وهو حمل ما لم يسمّ فاعله (نائب الفاعل) على الفاعل في الرّفع بعلّة الإسناد ، فالفاعل أصل ونائب الفاعل فرع، والحكم هو الرّفع، والعلّة هي إسناد الفعل إلى الاسم مقدّما عليه، فكلا الاسمين الفاعل ونائب الفاعل تربطهما بالفعل علاقة إسناد،أي أنّ كليهما مسند إليه الفعل وهذه علّة رفع نائب الفاعل كما إنّها علّة رفع الفاعل .[2]

وقد أطلق سيبويه على هذا الباب تسمية :" المفعول الذي لم يتعدّ إليه فعل فاعل ولم يتعدّه فعله إلى فعل آخر " [3] .

فعند حذف الفاعل ينوب عنه المفعول به فيعطى ما كان للفاعل من أحكام وأحد هذه الأحكام كما أسلفنا هي الرّفع مثل : ضُرِبَ زيدُ ، فزيد نائب فاعل مرفوع وجوبا وعلّة رفعه عند سيبويه كعلّة رفع الفاعل .

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 55 .

(2) ينظر : مخلوف بن لعلام : مبادئ في أصول النّحو ، ص 79 .

(3) سيبويه :الكتاب ، ج 1 ، ص 55 .

إذ يقول : " يرتفع المفعول كما يرتفع الفاعل ، **لأنّك لم تشغل الفعل بغيره وفرغته له ، كما فعلت ذلك بالفاعل** "[1] والمقصود بذلك أنّ المفعول الذي ينوب عن الفاعل يرتفع بفعل الفاعل كما ارتفع به الفاعل حينما شغل الفعل به ، فكذلك يرتفع المفعول إذا ناب عن الفاعل لأنّ الفعل شغل به وفرغ له .

- **علّة حذف المستثنى** : لقد جرت عادة العرب في كلامها أنّها تنزع إلى طلب الخفّة اقتصادا للجهد العضلي ، وكانت كلّما استثقلت أمرا حادت عنه إلى الأخف للعلّة التي سبق وأن ذكرنا زيادة على ذلك أنّه كلّما كان المخاطب على علم بمدار الكلام ،تمّ اللّجوء إلى هذا النّوع من الإجراء، وكأنّ الأمر عبارة عن شيفره معلومة تفاصيلها ومفاتيحها عند المتكلّم والسامع وإلاّ تحوّل الخطاب إلى مجردّ طلاسم لا يعلم كنهها أحد .

ومن الأمثلة على ذلك ما عقد له سيبويه بابا أطلق عليه : " باب يحذف المستثنى فيه استخفافا "[2] وقد ذكر عدّة أمثلة لذلك بقوله : " وذلك قولك " ليس غير " ، و" وليس إلاّ " ، كأنّه قال : ليس إلاّ ذاك وليس غير ذاك ، **ولكنّهم حذفوا ذلك تخفيفا واكتفاء بعلم المخاطب** " [3] .

ثمّ يواصل دعم فكرته والاستدلال عليها بشواهد من القرآن الكريم والشّعر العربي الفصيح والأمثلة المصنوعة حتى تترسّخ الفكرة أكثر،والعلّة في ذلك كما قلنا هي علّة استخفاف ولكن بشرط علم المخاطب .

- **علّة استغناء** : وهو الاستغناء عن لفظ لعلم المخاطب به ، وهذا ما نجده في باب " لا يكون وليس وما أشبههما " [4] ومعنى ذلك إذا جاءتا في الكلام وفيهما معنى الاستثناء وقع فيها إضمار .

(1) سيبويه :الكتاب ، ج 1 ، ص 55 .
(2) المرجع نفسه ، ص 248 .
(3) المرجع نفسه ، ، ص248 .
(4) المرجع نفسه ، ص 250 .

يقول سيبويه : " فإذا جاءتا وفيهما الاستثناء فإنّ فيهما إضمارا،على هذا وقع فيهما مع الاستثناء ، كما أنّه لا يقع معنى النّهي في حسبك إلاّ أن يكون مبتدأ " [1].

يعطي سيبويه كعادته الأمثلة التي تشرح مراده فيقول : " وذلك قولك : ما أتاني القوم ليس زيدًا ، وأتوني لا يكون زيدًا ، وما أتاني أحد لا يكون زيدًا " [2] والعلّة في الإضمار ها هنا هي الاستغناء عن اللّفظ لعلم المخاطب به .

يقول سيبويه : " كأنّه حين قال : أتوني ، صار المخاطب عنده قد وقع في خلده أنّ بعض الآتين زيدٌ ، فكأنّه قال : بعضهم زيدٌ ، فكأنّه قال : ليس بعضهم زيدًا ، وترك إظهار (بعضٍ) استغناء كما ترك الإظهار في لاتَ حين " [3] .

- **علّة التباس** : من العلل التي اعتمدها النّحاة كثيرا **أمن اللّبس** فإن خافوا أنّ الأمر قد يلتبس على المخاطب حذفوا أو قدّموا أو أخّروا .

ومن الأمثلة على ذلك ما أورده سيبويه في " باب ما تردّه علامة الإضمار إلى أصله "[4] كعادة سيبويه يورد لنا كلاما لا تكاد نستسيغه أو نتبيّنه إلاّ بعد أن يمثل له بأمثلة مصنوعة أو يستدلّ عليها بما جاءت قريحته من شعر العرب الأقحاح وآي الذّكر الحكيم .

ففي هذا الموضوع يقول : " فمن ذلك قولك : لِعبد الله مال ، ثمّ تقول : لك مال وله مال (فتفتح اللاّم) **وذلك أنّ اللاّم لو فتحوها في الإضافة لالتبست بلام الابتداء** إذا قال إنّ هذا لَعليٌّ، ولهذا أفضل منك . فالحركة الواردة المختصّة باللاّم هي الفيصل ، فإن كسرنا اللاّم صارت جارّة وإن فتحناها صارت لام الابتداء وللتّفريق بينهما لا بدّ من الإضمار ، والعلّة في ذلك كما يقول

(1) سيبويه :الكتاب ، ج 2 ، ص250 .
(2) المرجع نفسه ، ص 250 .
(3) المرجع نفسه ، ص 250 .
(4) المرجع نفسه ، ص 272 .

سيبويه هي علّة (مخافة اللّبس) فيقول : " فأرادوا أن يميّزوا بينهما فلمّا أضمروا لم يخافوا أن تلتبس بها لأنّ هذا الإضمار لا يكون للرّفع ويكون للجرّ " [1] .

وقد وضّح الأستاذ عبد السلام محمد هارون هذا الموضوع بشرح لأبي سعيد السّيرافي إذ يقول :" إنّما كسروا اللاّم مع الظّاهر وفتحوها مع المضمر لأنّ حروف الظّاهر وصيغتها لا تتغيّر بتغيّر الإعراب ولا تدلّ على مواضعه من الرّفع والنّصب والجرّ ، وحروف المضمرات بأنفسها تدلّ على مواضعها من الإعراب ، فلذلك كسروا اللاّم مع الظّاهر ، لأنّهم لو فتحوا لم يعلم : أهي لام الإضافة والملك الخافضة، أم لام التوكيد، وإنّما كان أصلها الفتح لأنّ الباب في الحروف المفردة أن تبنى على الفتح فإذا وصلتها بالمكنى عادت إلى أصلها " [2] .

- **علّة مشابهة** : قد تحمل شيئا على شيء لعلّة الشبه بين المقيس عليه والمقيس وهذا كثير عند سيبويه ومن أمثلة ذلك حمل ما الحجازية على ليس ، وقد أشار إلى ذلك بقوله : " هذا باب ما أجري مجرى ليس في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ،ثمّ يصير أصله ،وذلك (حرف ما) "[3] .

فهي عند بني تميم شأنها شأن الحروف غير العاملة كأمّا وهل وهذا هو القياس لأنّ (ما) ليس بفعل وليست كليس ولا يكون فيها إضمار " [4] .

ويبيّن سيبويه علّة حمل " ما " على " ليس " بقوله : " وأمّا أهل الحجاز فيشبّهونها بليس **إذ كان معناها كمعناها** " [5] ، أي أنّها تحمل معنى النّفي كما في ليس وعليه فحكمها كحكم ليس أن ترفع الاسم الأوّل وتنصب الاسم الثاني .

(1) سيبويه: الكتاب ، ج 2 ، ص 272 .
(2) المرجع نفسه ، ص 72 (الهامش) .
(3) المرجع نفسه ، ص 73 .
(4) المرجع نفسه ، ص 73 .
(5) المرجع نفسه ، ، ص 74 .

- **علّة مجاورة** : وهي علّة لها موضع قدم عند العرب ، وقد انتبه إليها النّحاة وخصّوها بكلام كثير ، ومعناها أن يأخذ اسم حكم اسم قبله لمجاورته إيّاه ، ومثال المعروف في ذلك : "هذا جحر ضبٍ خربٍ" ، فلفظ خرب صفة لجحر وهو مرفوع ، فكان من المفروض أن يأخذ حكمه والذي هو الرّفع ، لكنّه أجرى مجرى الاسم الذي يجاوره وهو "الضبّ" .

ففي الباب الذي خصّه سيبويه لشرح هذه الظّاهرة ، والذي عنونه بقوله : " هذا باب ما يجرى على الموضع لا على الاسم الذي قبله " [1] ، يقول : " والوجه فيه الجرّ لأنّك تريد أن تشرك بين الخبرين وليس ينقض إجراؤه عليك المعنى" [2]، يقول هذا الكلام بعد أن قدّم لنا الأمثلة الآتية : ليس زيدٌ بجبانٍ ولا بخيلاً، وما زيدٌ بأخيك ولا صاحبَك.

فلو أجرينا على المجاورة أي يأخذ الخبر الثاني حكم الخبر الأوّل المجرور لفظا لكان حكمه الجرّ . فنقول : ليس زيدُ بجبانٍ ولا بخيلٍ ، وما زيد بأخيك ولا صاحبِك . ولكن إجراؤه على الموضع ، باعتبار الخبر الأوّل منصوب محلاّ وجب نصب الثاني ، لأنّ حرف الباء جرّ الخبر لفظا ولم يجرّه محلاّ وهذا كالمثال الذّي يذكر في هذه الحالة "هذا جحر ضب خرب".

ويتطرّق إلى هذا الموضوع في باب التّوابع فيقول :"وممّا جرى نعتا على غير وجه الكلام: (هذا جحر ضبّ خرب)،فالوجه الرّفع وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم.وهو القياس لأن الخرب نعت الجحر والجحر رفع ،ولكنّ بعض العرب يجرّه..."[3]

- **علّة حذف تاء التّأنيث إذا فصل بين الفعل وفاعله المؤنث** : إذا وصل بين الفعل وفاعله المؤنث ، جاز إثبات تاء التأنيث وحذفها ، وكلّما طال الفصل عند سيبويه كان الحذف أحسن

(1) سيبويه ، الكتاب ، ج 1 ، ص 81 .

(2) المرجع نفسه ، ص 81 .

(3) المرجع نفسه ، ص355.

نحو: حضر القاضي امرأة [1] ، وقد بيّن سيبويه علّة حذف تاء التأنيث من الفعل إذا طال الكلام الفاصل بين الفعل وفاعله المؤنث بقوله : "**لأنّه إذا طال الكلام كان الحذف أجمل، وكأنّه شيء يصير بدلا من شيء كالمعاقبة** نحو قولك : زنادقة أو زناديق فتحذف الياء لمكان الهاء وكما قالوا في مغتلم : مغيلم ومغيليم ، وكأنّ الياء صارت بدلا ممّا حذفوا وإنّما حذفوا التّاء لأنّهم صار عندهم إظهار المؤنّث يكفيهم عن ذكرهم التّاء كما كفاهم الجميع والاثنان حين أظهروهم عن الواو والألف " [2] .

فسيبويه يرى أنّ تاء التأنيث قد تحذف من الفعل إذا فصل بين الفعل والفاعل بكلام، وكلّما طال الكلام كان الحذف أجمل ، **لأنّ هذا الكلام يصير بدلا من حذف التّاء** كما كانت الياء في (زناديق) بدلا من حذف الهاء في (زنادقة) ، وكما كانت الياء في (مغيلم) و(مغيليم) بدلا ممّا حذفوا في (مغتلم) ، وعلّة حذف تاء التأنيث من الفعل هي أنّ إظهار الفاعل المؤنّث يكفي عن ذكر التّاء في فعله كما كفى إظهار الفاعل المذكّر المثنّى أو المجموع عن إلحاق ضميره في الفعل.

وما ذكرناه من علل ذكرت في كتاب سيبويه مثّلنا بها جانبا بسيطا لما يعنيه موضوع التّعليل عنده ، كما أنّنا أردنا أن نسلّط الضوء على طريقته في التّعليل سواء تلك العلل المتعلّقة بالقياس الاستعمالي وما يطلق عليه بالعلل الأوّل أو العلل القياسية التي بواسطتها يتمّ حمل فرع على أصل أو المعمول عن الأصل بعلّة من العلل ، فالمهمّ أنّ سيبويه كان واضحا وضوح الشّمس في شرحه وتفسيره وتحليله حتى أنّها تفهم من قبل القارئ دون أدنى مشقّة .

وعليه يمكن القول ، أنّ التّعليل عند سيبويه شامل لكلّ جزء من المنظومة النّحوية التي ألّفها، فهو يعطي تعليلا لكلّ حذف أو تقديم أو تأخير أو غير ذلك من أسباب الخروج عن الأصل، **كما أنّه تعليل تعليميّ بسيط في كثير من الأحيان** وضّحه وشرحه بالأمثلة العديدة حتى

(1) سيبويه ، الكتاب ، ج 2 ، ص 26 .

(2) المرجع نفسه ، ص 26 .

يسهل استيعابه من قبل الدّارس ، لأنّ هذا التّعليل ــ ببساطة ــ من الممرّات المؤدية إلى تعلّم كلام العرب، زد على ذلك فكلّه تقريبا يدور حول ظاهرة العامل. كما أنّ التّعليل عند سيبويه ما هو إلاّ تفسير للقواعد التي جاء بها، زد على أنّه توضيح لسنن العرب في كلامها وفق المقامات المختلفة ، فلا تناقض بين العلّة والقاعدة ، بل أكثر من ذلك فالعلّة تدعم القاعدة وتؤكدّها وتقدّم لها الشّرعية التّامة [1] .

خامسا : خاصية تمثيـــــــــــل :

نقول إنّ التّمثيل خاصية من خصائص الخطاب التّعليمي لدى سيبويه، فهو يلجأ إليه كثيرا للأسباب التّالية :

* ليوضّح معاني بعض المصطلحات التي تشكل على المتعلّم أو القارئ ، فكثيرا من المصطلحات تبدو لنا من أوّل وهلة صعبة سرعان ما يتبدّد هذا الغموض عند ذكر الأمثلة الموضّحة ، ففي ذكر الأبواب مثلا لا يكاد القارئ يقف على حقيقة ما يريد سيبويه إلاّ بعد ذكرها. ومن خلال النّماذج التي نقدّمها سيتبيّن لنا المقصود من قولنا ، يقول سيبويه : " هذا باب الفعل الذي يتعدّى اسم الفاعل إلى اسم المفعول ، واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد"، فالقارئ عند سماعه ألفاظ (اسم الفاعل) و(اسم المفعول) ينتهي به فكره إلى أنّ سيبويه يتحدّث عن المشتقّات العاملة التي تعمل عمل فعلها والتي تجيء على وزن (فاعل) و(مفعول) ولا يعتقد أنّه سيفهم من خلال قراءة العنوان أنّ سيبويه قد عقده للكلام على (كان وأخواتها) ، والمثال وحده هو الذي يكشف المقصود من كلامه ، إذ يقول : " وذلك قولك : كان ويكون ، وصار ومادام

(1) ينظر : أسعد خلف عبد جابر العوادي : العلل النّحوية في كتاب سيبويه ، ماجستير في اللّغة العربية وآدابها ، المشرف : صباح عطيوي عبور ، جامعة بابل ، 2002 .

وليس وما كان نحوهنّ من الفعل ممّا لا يستغني عن الخبر "[1] ، ثمّ يقول : " تقول : كان عبد الله أخاك ، فإنّما أردت أن تخبر عن الأخوة وأدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى .. " [2] .

نفس الأمر نجده في باب التنازع مثلا فسيبويه يذكر المثال كما يلي:" هذا باب الفاعلين والمفعولين اللّذين كلّ واحد منهما بفعل بفاعله مثل الذي يفعل به وما كان نحو ذلك"[3] ، فالقارئ لا يكاد يتبيّن المقصود من المقول إلاّ بعد أن يقرأ كلّ الفصل أو جلّه .

يقول سيبويه : " وهو قولك : ضربت وضربني زيد ، وضربني وضربت زيدًا ، تحمل الاسم على الفعل الذي يليه "[4] .

نفس الأمر عندما يتحدّث عن باب الاشتغال فلا يكاد القارئ يتبيّن الأمر إلاّ من خلال الأمثلة التي يسوقها ، يقول سيبويه : " هذا باب ما يكون عليه الاسم مبنيّا على الفعل قدّم أو أخّر وما يكون فيه الفعل مبنيّا على الاسم " [5] ، فسيبويه يغلب عليه توضيح الباب الذي يتحدّث عنه بذكر أمثلته التي تكشفه وتوضّحه .

* يلجأ سيبويه إلى استعمال الأمثلة لتوضيح القاعدة ، وهو لا يتوانى في تقديم الأمثلة سواء كانت بسيطة أومركّبة،تكلّم بها النّاس أو جيء بها للتّمثيل فقط،وهي ميزة تختصّ بها كتب النّحو المتقدّمة إذ لم تكن تعنى بوضع التّعاريف ،يقول فؤاد بو علي:" وكأنّ النّحاة القدامى كانوا يرون النّحو من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى حدّ أو تعريف،أو ربّما يرجع إلى طبيعة المنهج

(1) سيبويه : الكتاب ، ج1 ، ص 64 .
(2) المرجع نفسه ، ص 64 .
(3) المرجع نفسه ، ص 86 .
(4) المرجع نفسه ، ص 86 .
(5) المرجع نفسه ، ص 91 .

التصنيفي الذي لا يعتمد الحدّ أساسا في الإبانة عن المقصود، فلو طالعنا (الكتاب) لسيبويه ، أو (المقتضب) للمبرد أو (الجمل) للزّجاجي ، لوجدناها تعتمد التّعريف بالمثال أكثر من الحدّ " [1] .

ففي أوّل باب من أبواب كتابه يمثل سيبويه للاسم والفعل وحتى الحرف رغم أنّ الموضوع يبدو واضحا ، فيقول : " فالاسم : رجل وفرس وحائط ، وبعدما يعطي تقسيمات الفعل يبدأ بالتمثيل لكلّ قسم " فأمّا بناء ما مضى فذهب وسمع ومكث وحمد " [2] ، " وأمّا بناء ما لم يقع فإنّه قولك آمرا : اذهب واقتل واضرب ، ومخبرا :تقتل ويذهب ويضرب "[3] .

ومن الأمثلة التي أوردها سيبويه لتوضيح ما يتعلّق بباب الاستقامة من الكلام والإحالة فبعد أن يحدّد الحالات التي تكون عليها الاستقامة من الكلام ، يشرع في التّمثيل لبيان المغزى من كلّ نوع ،يقول سيبويه :" فأمّا المستقيم الحسن فقولك : أتيتك أمس وسآتيك غدا .

- وأمّا المحال فتقول : أتيتك غدا ، وسآتيك أمس .
- وأمّا المستقيم الكذب فقولك : حملت الجبل ، وشربت ماء البحر ونحوه.
- وأمّا المستقيم القبيح نحو قولك : قد زيدًا رأيت ، وكي زيدًا يأتيك .
- وأمّا المحال الكذب فأن تقول :" سوف أشرب ماء البحر أمس " [4] .

والأمثلة عند سيبويه غزيرة بدرجة أنّه يشرح كلّ جزئية من الكتاب ، حتى أنّك تستطيع القول بأنّه كتاب في الأمثلة وهذا دليل على أنّ سيبويه أعرف النّاس باللّغة كما قيل عنه . ولم يتوقّف هذا الأخير عند سوق الأمثلة المعروفة أو التي تحدّثت بها العرب بل تعدّاها إلى ما لم

(1) فؤاد بوعلي : الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النّحوي ، مرجع سابق ، ص26-27.
(2) سيبويه: الكتاب ، ج 1 ، ص 38 .
(3) المرجع نفسه ، ص 38 .
(4) المرجع نفسه ، ص 49 .

تقله العرب ولكنّه كان يشير إلى ذلك بقوله :" هذا تمثيل لم تتكلّم به العرب " ،وهو من المآخذ التي أخذت على سيبويه ومنه عدّوا نحوه من تخريج الفلسفة .

ولم يكتف سيبويه بالأمثلة التي صاغها بنفسه ، بل نقل إلينا حتّى بعض الأمثلة التي رواها شيوخه ، وهذا يعطي دليلا آخر على أنّ سيبويه كان أمينا في النّقل عن شيوخه .

* هناك أمثلة كثيرة جرت مجرى المثل ، اشتهر بها العرب ، أتى بها سيبويه لتقرير قاعدة وتثبيتها وهي كثيرة في الكتاب " يفسرها سيبويه في باب من الكتاب ثمّ يفترض أنّ هذا التّركيب أصبح صيغة مفهومة الحكم ، فيمثّل بها في الأبواب اللاّحقة مع إشارة يستوعبها غير الذي وقف على الفقرة التي تضمّنت إيضاح الحكم" [1] ، وهي أمثلة نثرية تدلّ أنّه أراد أن يقدّم النّموذج الموثوق به في عصره وفي المنطقة المحيطة ببلدته وسنحاول أن نسوق بعضها مع بعض الشّرح للتوضيح.

- **هذا جحر ضب خرب** : يقول سيبويه :" وممّا جرى نعتا على غير وجه الكلام ، (هذا جحر ضب خرب) ، فالوجه الرّفع وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم ، وهو القياس لأنّ الخرب نعت الجحر ، والجحر رفع ولكن بعض العرب يجرّه " [2] .

ولقد اشتهر وشاع هذا المثال عند النّحويين فيما بعد وسمّوه بالجرّ بالمجاورة، وقد علّل سيبويه هذا النّوع من الاستعمال بقوله : " فجرّوه لأنّه نكرة كالضّب ، ولأنّه في موقع يقع فيه نعت الضّب، ولأنّه صار والضبّ بمنزلة واحدة ، ألا ترى أنّك تقول هذا حبّ رمّان فإذا كان لك قلت رماني ، فأضفت الرّمان إليك وليس لك الرّمان وإنّما الحبّ " [3] .

(1) محمد المختار ولد أبّاه : تاريخ النّحو العربي في المشرق والمغرب ،دار الكتب العلمية ، ط 2 ، 1429 هـ / 2008 م، ص 85 .
(2) سيبويه : الكتاب ،ج 1 ، ص 355 .
(3) المرجع نفسه ، ص 355.

- **ألا تا بلى فا** :يقول سيبويه في (باب إرادة اللّفظ بالحرف الواحد)[1] وسمعت من العرب من يقول : ألا تا ، بلى فا ، فإنّما أرادوا ألا تفعل وبلى فافعل ، ولكنّه قطع كما كان قاطعا بالألف في أنا ، وقال الرّاجز: وهو لقيم بن أوس :

بالخير خيرات وإن شرّا فآ و لا أريد الشّرّ إلاّ أن تآ .

يريد : إنّ شرّا فشر ، ولا يريد الشرّ إلاّ أن تشاء .

يقول ولد أبّاه معقّبا على هذا الكلام بقوله :" ولعلّ سيبويه يلمّح هنا لقصّة رواها الأصمعي، أنّه كان أخوان متجاوران، لا يكلّم أحدهما صاحبه سائر سنته، حتّى يأتي وقت الرّعي، فيقول أحدهما لصاحبه : " ألا تا " ، فيقول الآخر " بلى فا " ، يريد ألا تنهض فيقول الآخر بلى فانهض"[2] .

ومن الأمثلة المتداولة كثيرا عند سيبويه هذا المثال الذي سنورده الآن .

- **له عليّ ألف درهم عرفا** :

جاء هذا المثال في (باب ما يكون المصدر فيه توكيدا لنفسه نصبا)وذلك في قولك له ، عليّ ألف درهم عرفا، ومثل ذلك قول الأحوص :

إِنِّي لَأَمْنَحُكَ الصُّدُودَ وَإِنَّنِي قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصُّدُودِ لَأَمْيَلُ .

يقول سيبويه :" وإنّما صار توكيدا لنفسه لأنّه حين قال : له عليّ فقد أقرّ واعترف وحين قال: لأميل علم أنّه بعد حلف ولكنّه قال : عرفا وقسما وتوكيدا "[3] .

(1) سيبويه : الكتاب ، ج3 ، ص 248 ــ 249 .

(2) المرجع نفسه ، ج 1 ، ص 314 .

(3) المرجع نفسه ، ص 315 .

- **وامن حفر بئر زمزماه :**

جاء هذا المثل في (باب ما لا يجوز أن يندب)[1] ، يقول سيبويه : " وذلك قولك وارجلاه ويا رجلاه، وزعم الخليل رحمه الله ويونس أنّه قبيح وأنّه لا يقال . وقال الخليل رحمه الله : إنّما قبح لأنّك أبهمت [2]".

وزعم أنّه لا يستقبح وا من حفر بئر زمزماه ، لأنّ هذا معروف بعينه " [3] .

وهذا ما ذهب إليه بن مالك حين قال :

ما للمنادي اجعل لمندوب وما نكّر لم يندب ولا ما أبهما،

ويندب الموصول بالذي اشتهر كبئر زمزم يلي وامن حفر [4] .

- **(كليهما وتمرا) :**

من الأمثلة التي يوردها سيبويه ليقرّ بها قاعدة، وقد أورد هذا المثل في (باب يحذف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل)[5] .

يقول سيبويه :" ومن ذلك قول العرب : (كليهما وتمرا) ، فذا مثل قد كثر في كلامهم واستعمل، وترك ذكر الفعل لما كان قبل ذلك من الكلام ، كأنّه قال : " أعطني كليهما وتمرا"[6] ، وقد جاء سيبويه بهذا المثال بعد أن قدّم بعض النّماذج التي تصبّ في نفس الموضوع .

(1) سيبويه ، الكتاب، ج1 ، ص 163 .

(2) المرجع نفسه ، ص163.

(3) المرجع نفسه ، ص 163 .

(4) عبد الله الفوزان ، دليل السّالك إلى شرح ألفية بن مالك، دار المسلم ،ط1،1999، ج2،ص262.

(5) سيبويه: الكتاب ، ج 1 ، ص 244 .

(6) المرجع نفسه ، ص 244 .

يقول سيبويه :" وذلك قولك : هذا ولا زعامتك ، أي لا أتوهّم زعامتك، ومن ذلك قول الشّاعر ، وهو ذو الرّمة و قد ذكر الدّيار والمنازل :

ديارَ ميّةَ إذ ميٌّ مساعفةٌ وَلا يرى مثلها عجم ولا عرب[1]

كأنّه قال :"اذكر ديار ميّة ، ولكنّه لا يذكر(اذكر) لكثرة ذلك في كلامهم واستعمالهم إيّاه"[2].

أمثلة أخرى يأتي بها سيبويه وهذه المرّة في باب المفعول معه ، والذي يطلق عليه : " هذا باب ما يظهر فيه الفعل وينصب فيه الاسم " [3] .

- **استوى الماء والخشبة ، جاء البرد والطيالسة** :

وهي أمثلة جاءت في باب المفعول معه ، ففي هذا الباب ينتصب الاسم بالفعل الذي قبل الواو لأنّها لم تغيّر المعنى ، " فالاسم ينتصب لأنّه مفعول معه ومفعول به ، كما انتصب نفسه في قولك : امرأ ونفسه " [4]،يعلّل سيبويه لانتصاب الاسم بقوله :" وذلك قولك : ما صنعت وأباك، ولو تركت الناقة وفصيلها لرضعها إنّما أردت : ما صنعت مع أبيك ، ولو تركت الناقة مع فصيلها، فالفصيل مفعول معه ، والأب كذلك ، والواو لم تغيّر المعنى ، ولكنّها تعمل في الاسم ما قبلها " [5] .

والأمثلة في الكتاب كثيرة لا يمكن أن يستوعبها بحث كهذا أشرنا فقط إلى بعضها من باب العموم فقط ،غير أنّني لا بدّ من أن أشير إلى بعض خصائص هذه الأمثال :

(1) سيبويه الكتاب ، ج1، ص244.
(2) المرجع نفسه ، ص 244 .
(3) المرجع نفسه ، ص 256 .
(4) المرجع نفسه ، ص 256 .
(5) المرجع نفسه ، ص 256 .

- هذه الأمثال استقاها سيبويه من أفواه العرب الثّقات سواء بنفسه أو بواسطة شيوخه وحتّى بواسطة الرّواة، فهي تعبّر عن البيئة العربيّة الفصيحة .

- هذه الأمثال يوردها سيبويه في كثير من الأبواب والفصول ، وهذا يدلّ على أنّ الأبواب تربطها خيوط دقيقة نظرا للعلاقات التي بينها وهذا ما ذكره محمّد إبراهيم عبادة عندما تحدّث عن طريقة سيبويه في التّبويب والعلاقة التي تربط بين الأبواب فيقول :" ...وهذا يدلّ على أنّ سيبويه كان يعنى بتسجيل ما يظفر به من مسائل ،وهذه المسائل المتزاحمة المتشابكة لم ترد بلا رابط، فقد سبق أن أشرنا عند عرضنا للكتاب إلى خيط دقيق يربط ما عرضه سيبويه من مسائل نحويّة وصرفيّة "[1] .

- لا يمكن للمتلقّي أن يفهم الغرض من المثل إلاّ إذا كان قد اطّلع عليه في حينه ؛كما عليه أن يتعرّف على المواضيع المتشابهة التي يربط بينها مثل من هذه الأمثال.

- هذه الأمثلة سواء كانت بسيطة أو معقّدة ، قصيرة أو طويلة ما هي إلاّ نماذج يسوقها سيبويه لما تتميّز به من مرونة ، إذ يستطيع أن يتصرّف فيها كيف يشاء تقديما وتأخيرا ، إظهارا وحذفا حسب السّياق الذي يريده .

وفي آخر هذا المبحث نقول أنّ الأمثلة التّعليمية التي أوردها سيبويه ، تدلّ على أنّ الرّجل كان معلّما، وأنّ دوره في النّحو لم يكن الجانب التّنظيري فقط، بل كان دوره أكبر من ذلك، لأنّه كان يحوّل القاعدة إلى تطبيق ، والنّص إلى مثال يحتذى به بما ينسج في ضوئه من الاستعمالات اللّغوية ، وبهذا يكون سيبويه قد صوّب سهمه نحو الهدف الأسمى من النّحو ألا وهو التّعليم، دارسا الظّواهر اللّغوية، محوّلا إيّاها إلى استعمالات صحيحة ، لتؤدّي اللّغة دورها كاملا رغم ظروف الحياة وتعقيداتها .

(1) محمد إبراهيم عبادة ،النحو التّعليمي في التّراث العربي ،ص21.

سادسا : مراعاة مستوى المبتدئين :

من خصائص الخطاب التّعليمي لدى سيبويه ،والتي تظهر لنا عند تصفّح الكتاب ،ميزة نراها تنفع المتعلّم المبتدئ كثيرا؛ هذه الميزة هي أنّ هذا النّحوي يوجّه خطابه للمتعلّم المبتدئ تماما كما يوجهّه للمتعلّم الذي قطع شوطا في مجال الدّرس النّحوي ، فحلقات تعلّم النّحوي آنذاك كانت تحوي مزيجا من المستويات مثلما يحدث عندنا اليوم في الكتاتيب الخاصّة بتعليم القرآن الكريم ، هذا الأمر يدفع بالمدرّس إلى الاهتمام بكلّ مستوى على حدّة وفي نفس الوقت، وهذا ما يمكن ملاحظته عند سيبويه ، فخطاباته التّعليمية يعني بها كلّ مستوى على حدّة وبهذا تكون للمستويات الدّنيا أو المتوسطة اهتمامات لديه.

فالأكيد أنّ هناك أساليبا وطرقا يلجأ إليها المؤلفون النّحويون حتى تتّسم مؤلفاتهم بالبساطة واليسر والسّهولة والبعد عن التّعقيد ، من بين هذه الخصائص نلاحظ الكثرة من الشّروحات اللّغوية وتفسير النّصوص كما يكثر الاستطراد لرعاية ظروف الطّلاب الذين يطلبون العلم ، كما تكثر الأمثلة والشّواهد المتنوّعة .

وليس كتاب سيبويه في منأى عن هذا التوجّه، فكلّ هذه الخصائص موجودة في كتابه، فإذا جئنا إلى التّمثيل فلا يكاد يرى له حدّ كما سبق وأن قلنا ، وإذا جئنا إلى التّعليل والتّفسير فكتابه كتاب تعليل بامتياز ، كما أنّ الشّواهد الشّعرية والنّثرية والقرآنية غزيرة غزارة علمه، زد على ذلك فهو يكثر من الاستطراد الذي لا يخرج عن دائرة المعرفة لهدف واحد وهو الزّيادة في الفهم والإفهام .

ولا يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ بل يتعدّاه ــ حسب ما رأينا ــ إلى أمور أخرى ونقصد بها إيجاد مفاتيح تقدّم للطّالب يستطيع من خلالها التّفريق بين معلومات أو فهم أمر ما واستحضاره لحظة الحاجة إليه؛ ولكي نفهم المقصود من كلامنا هذا، أحاول إعطاء بعض الأمثلة من الكتاب.

من الموضوعات النّحوية التي تقدّم للمستويات الدّنيا لا سيما المستوى الابتدائي والتي خصّها سيبويه ببعض المفاتيح و التي مازالت تقدّم إلى يومنا هذا موضوع المفعول لأجله ، وهو من باب المنصوبات والذي أطلق عليه سيبويه (هذا باب ما ينتصب من المصادر لأنّه عذر لوقوع الأمر) [1].

يقول سيبويه :" فانتصب لأنّه موقوع له ، ولأنّه تفسير لما قبله لم كان ، وليس بصفة لما قبله ولا منه ، فانتصب كما انتصب الدّرهم في قولك : عشرون درهما " [2].

بواسطة الأمثلة يعطي سيبويه تفسيرا لما أورده فيقول :" وذلك قولك : فعلت ذاك حذار الشّر، وفعلت ذاك مخافة فلان وادّخار فلان " [3].

وبعد تقديم الشّواهد التي تدعم موقفه ورأيه يعود لشرح ما بدأه فيقول : " وفعلت ذاك أجل كذا وكذا، فهذا كلّه ينتصب لأنّه مفعول له، كأنّه قيل له:لم فعلت كذا وكذا ؟ فقال : لكذا وكذا "[4].

فالمفتاح الذي يقدّمه سيبويه وهو لمعرفة المفعول لأجله يطرح السّؤال بصيغة لِمَ ؟، وهذا الأسلوب أسلوب تعليمي يقدّم حتى لمتعلّمي الابتدائي في وقتنا الرّاهن .

من الموضوعات التّعليمية التي تقدّم للمتعلّمين المبتدئين شأنه شأن المفعول لأجله، موضوع (الحال) والذي يطلق عليه سيبويه مصطلح (هذا باب ما ينتصب من المصادر لأنّه حال وقع فيه الأمر فانتصب لأنّه موقوع فيه الأمر)[5] .

فالحال من المنصوبات التي تعلّم للمبتدئين بنفس الصّيغة التي ذكرها سيبويه تقريبا حيث خصّص لها حيّزا وأعطى المفتاح الذي بواسطته يفرق بينها وبين المنصوبات الأخرى،

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 306 .
(2) المرجع نفسه ، ص 306 .
(3) المرجع نفسه ، ص 306 .
(4) المرجع نفسه ، ص 307 .
(5) المرجع نفسه ، ص 307 .

وكعادته يعمد إلى الأمثلة التّوضيحية ليقرب المعلومة من طالبها ، فيقول :" وذلك قولك : قتلته صبرا، ولقيته فجاءة، وكفاحا ومكافحة، ولقيته عيانا ، وكلّمته مشافهة ، وأتيته ركضا وعدوا ومشيا وأخذت عنه ذلك سمعا وسماعا ..." [1].

فالنّماذج كثيرة ومتنوّعة يقدّمها سيبويه ليغرق فيها القارئ المتعلّم حتى يستطيع أن ينجز على منوالها ، وبعدها ينبّه إلى الالتباس الذي قد يحصل إذ أنّ بعض المصادر التي تقاس على ما تمّ تقديمه لا يمكن أن تكون حالا، ليعطي المفتاح الذي به يحدّد الحال ويفرّق عن بقية المنصوبات فيقول :" واعلم أنّ هذا الباب أتاه النّصب كما أتى الباب الأوّل ولكن هذا جواب لقوله : كيف لقيته ؟ كما كان الأوّل جوابا لقوله : لم ؟ " [2].

(1) سيبويه : الكتاب ، ج 1 ، ص 308 .

(2) المرجع نفسه ، ص 308 .

خاتـــمـــة

ختاما لبحثي هذا، بودّي أن أشير إلى مجموعة من النّتائج التي تشكّل إجابات للإشكالية المطروحة في مقدّمة هذا البحث، ولكن قبل ذكرها، فضّلت الحديث عمّا يجول في خاطري من أفكار، وفي قلبي من حسرة لما آل إليه حال اللّغة العربية بصفة عامة ، والنّحو بصفة خاصة، -ففي اعتقادي- ترجع أسباب عزوف الأجيال العربية عن التّعاطي مع هذا الموروث الثّمين الّذي تركه لنا أجدادنا ، إلى العرب الوارثين أنفسهم ، فالهالة التي أحدثوها حول هذا النّحو، والصّيحات التي كانوا يطلقونها جعلت العرب ينفرون قبل غيرهم، وجعلت المناوئين للّغة العربيّة يضمّون أصواتهم إلى أصواتهم وينادون بترك النّحو -ولسان حالهم يقول- : إذا كنتم براء من هذا الإرث فنحن منه أبرأ .

ولا شكّ أنّ هذا الإرث الّذي نتحدّث عنه يمثّله أولئك الّذين نذروا أنفسهم للتّقعيد لهذه اللّغة الخالدة ألا وهم : الخليل وسيبويه وغيرهم ممّن رفعوا راية الذّود والدّفاع عنها ومحاولة حمايتها من الخطر الدّاهم الّذي كان يتهدّدها.

وبما أنّ النّحو السّيبويهي هو خلاصة طبقات من أولئك العلماء وزبدة تفكيرهم وبحثهم، صنّفه ابن قنبر في مصنّفه المشهور " الكتاب " دون أن ينفرد برأي أو أن يبخس النّاس آراءهم وأفكارهم ، فقد كانت حملات الهجوم عليه عسيرة ، والخطب جللا ، فهو البحر ومن عساه يجرؤ على الولوج فيه ، وهو قرآن النّحو ، فمن يملك الخوض فيه ؟ ، حتى جعلوا حوله هالة زحليّة مقدّسة تبعد كلّ من أراد خوض غماره ، فهو كالفزّاعة التي يراد بها التّخويف من مغبّة الاقتراب ، وكلّما أراد باحث أو دارس التّعاطي معه إلاّ وجد عراقيل معنويّة تبعده عنه ، لما سمعوه عنه من صعوبة وفلسفة، هي ملاحظات ليست مبنية على إطلاق الحكم على الجميع، لأنّ الدّارسين للكتاب كثر ، والمهتمّين به لا يمكن حصرهم ولكن كانت الثّلة المسيئة عن غير قصد كفيلة بأن تجعل الأنظار تبتعد عنه ردحا من الزّمن.

وعَوْدا على بدء، نشير إلى بعض النتائج المتوصَّل إليها من خلال هذا البحث والتي هي على التّرتيب كما يلي :

1 ــ إنّ النّحو العربي نشأ لعلّة تعليميّة بحتة، وهي حماية اللّسان العربيّ من الخطر العظيم الّذي كان يتهدّده ألا وهو اللّحن الّذي بدأ يستشري غداة الفتوحات الإسلاميّة .

2 ــ لم تكن هناك حدود فاصلة بين ما هو علميّ نظريّ ، وما هو تعليميّ تطبيقيّ على الأقل عند النّحاة القدامى كالخليل وسيبويه ، فالنّحو واحد وهو العربيّة الموسومة بسمت كلام العرب كما عرّفها ابن جنّي وغايته واحدة وهو ما ذكرناه في النّتيجة الأولى .

3 ــ إنّ كلّ ما أُلّف من مختصرات أو مطوّلات أو ما فوق المختصرات للأغراض التّعليميّة كان هدفها تقريب النّحو من المتعلّم وهو ما يفرضه منطق اختلاف المستويات .

4 ــ إنّ كلّ ما قيل عن الكتاب من أنّه كتاب علميّ لا يمتّ إلى التّعليم بصلة فيه الكثير من الغلوّ والتطرّف، وفيه أيضا بخس لحقّ الرّجل في تعليم العربيّة .

5 ــ إنّ الأسلوب التّعليميّ المعتمد في المختصرات والتي قيل عنها أنّها مؤلفات تعليميّة ، لا يختلف في شيء عن أسلوب سيبويه ، بل ربما كانت طريقته أسهل في عرض المعلومات في كثير من الأحيان.

6 ــ إنّ الصّعوبة في كتاب سيبويه تعزى إلى مصطلحاته وطريقة تبويبه وأسلوبه في التّحليل وتفسير كلام العرب، وقد التمس الدّارسون الأعذار الكثيرة لسيبويه كونه مات دون أن يراجع مؤلّفه .

ولعلّ الصّعوبة أو الغموض في الكتاب ترجع إلى سببين كما أدلى بذلك عوض حمد القوزي في كتابه "المصطلح النّحوي" :

أ /الإيجاز الّذي حاول به سيبويه أن يجمع أكبر قدر من المعرفة بأقصر عبارة ليسهّل على المتعلّمين .

ب /العامل الزّمني إذ لا بدّ أن يؤخذ بعين الاعتبار ، فعمر الكتاب ينيف على اثني عشر قرنا ، واللّغة لا تبقى دون تطوّر ، وألفاظها شبيهة بالكائن الحيّ في التّطوّر والفناء ، فينبغي لمن أراد الحكم عليه من حيث الغموض أو الوضوح ألاّ يغفل ما قد اعترى العربيّة من تغيّر وتطوّر عبر هذه الأزمنة .

7 ــ ما يجعل نحو سيبويه تعليميا ، هو أنّ الكثير من مصطلحاته لا زالت تنبض بالحياة ، وما زالت قواعده تدرّس للنّاشئة قبل الباحثين رغم تغيّر التسميات ، ولكنّ هذا التّغيير لم يفسد للودّ قضيّة ، بل لم يأت من جاء بعده بجديد ، فقد بقي الهيكل الّذي صنعه سيبويه ينتصب بشموخ ، رغم العوامل الكثيرة .

8 ــ إنّ كلّ ما رمي به سيبويه من غموض وصعوبة ، يبقى نسبيّا أمام الجهود التي بذلها في سبيل الرّفع من شأن اللّغة العربيّة و الذّود عن قدسيّتها ومكانتها .

9 ــ إنّ المنادين بطرح النّحو التّراثي واستبداله بآخر أسهل وأيسر للأسباب المذكورة آنفا، ينطلقون من حجج واهية وبالتّالي نقول لهم : إن كنتم تريدون استخدام أمثلة وتشابيه تحمل من المواصفات الفنّية فلكم ذلك ، وإن كنتم تريدون أن تختاروا ما يناسب كلّ مستوى فما المانع ؟ !وإن ابتغيتم استعمال طرق غير تلك التي استعملها السّلف، نقول لكم : أنتم أعلم بشؤونكم ولكن اعلموا أنّ التّسامح في قاعدة واحدة سيعرّض هذا البنيان الضّخم إلى الهدم.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة الكتب :

1. القرآن الكريم (برواية حفص عن عاصم) ، النسخة الإلكترونية ، إعداد محمد توفيق.

2. ابن الأنباري : لمع الأدلة في أصول النّحو ، تح : سعيد الأفغاني ، مطبعة الجامعة السورية، 1377 هـ/ 1957 م .

3. ابن الأنباري كمال الدّين : الإغراب في جدل الإعراب ، تح : سعيد الأفغاني ، مطبعة الجامعة السورية ، 1377 هـ/ 1975 م .

4. ابن السراج محمد بن سهل : الأصول في النّحو ، تح : عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، لبنان ، ط1 ،1985 .

5. ابن جنّي أبو الفتح عثمان : الخصائص ،محمد عي النّجار ،دار الهدى ، بيروت ،ط 2 ، 1372 هـ/1952 م .

6. ابن خلدون :المقدّمة ، تح: عبد الله محمد الدّرويش ،دار يعرب ، ط1، 1425 هـ/ 2004 .

7. ابن عصفور الإشبيلي الأندلسي:شرح المقرّب ، تح :علي محمّد فاخر ، الرّيّاض ، العربيّة السّعوديّة، ط1 ،1414هـ/ 1994م.

8. ابن قتيبة عبد الله بن مسلم : أدب الكاتب ، تح : محمّد محي الدّين عبد الحميد ، مطبعة السّعادة، ط4 ، (د ت) .

9. ابن منظور: لسان العرب ، دار المعارف ، تح :عبد الله الكبير و آخرون ، القاهرة ، ط2 ، (د ت) .

10. ابن هشام جمال الدّين الأنصاري : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، تح : محمد محي الدّين عبد الحميد ، دار الفكر ،بيروت ، ط 6 ، 1394 هـ / 1974 م .

11. ابن هشام جمال الدّين الأنصاري: شرح قطر النّدى وبل الصّدى ، تح : محيي الدّين عبد الحميد ، مطبعة مصطفى محمد ، مصر ، 1937 .

12. ابن يعيش : شرح المفصّل ، إدارة الطّباعة المنيريّة ، مصر ، (د ت) .

13. أبو السّعود صابر بكر : في نقد النّحو العربيّ، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، مصر، 1988م .

14. أبو المكارم علي: تعليم النّحو العربي- عرض وتحليل- ، المختار للنّشر والتّوزيع ، القاهرة، ط 1 ، 1875.

15. الأندلسيّ أحمد بن محمّد بن عبد ربّه: العقد الفريد ، تح : مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلميّة ، ط 1 ، 1404 هـ/ 1983 م .

16. البجّة حسن عبد الفتّاح : أصول تدريس العربيّة بين النّظرية والممارسة ، دار الفكر ، عمّان، ط 1 ، 1420 هـ / 1999 م .

17. بدر بن ناصر البدر : اختيارات أبي حيّان النّحوية في البحر المحيط ، مكتبة الرّسيد ، الرّياض ، 1420 هـ/ 2000 م .

18. بدوي أحمد : سيبويه حياته وكتابه ، مكتبة نهضة مصر ، ط 2 ، د ت .

19. بشر كمال: علم اللّغة الاجتماعيّ ، دار غريب ، القاهرة ، ط 3 ، 1997 م .

20. البكّاء محمد كاظم : منهج سيبويه في التّقويم النّحويّ ،بغداد ، 1983 .

21. بو حساين نصر الدّين: مدخل إلى اللّسانيّات التّطبيقيّة ، الأمل للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر ،(د ت) .

22. بودرع عبد الرّحمن : الأساس المعرفيّ للّغويّات العربيّة ، نادي الكتاب لكلية الأدب ، تيطوان ، المغرب ، 2000 .

23. تمّام حسّان : اللّغة العربية معناها ومبناها ،دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب، 1994م .

24. تمّام حسّان : اللّغة بين المعيارية والوصفية ، مكتبة الأنجلومصرية ، 1958 .

25. تمّام حسّان : كتاب الأصول اسبتمولوجية الفكر اللّغويّ عند العرب (النّحو ، فقه اللّغة ، البلاغة) ، أميرة للطّباعة ، 1420 هـ / 2000 م .

26. الجاحظ : كتاب المعلم (مجموعة رسائل الجاحظ) ، مطبعة التقدّم ، مصر، ط1، (دت).

27. الجرجاني عبد القاهر : العوامل المئة النّحوية في أصول اللّغة العربية ، تح : خالد الجرجاوي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ، (د ت) .

28. الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز ، مطبعة المنار ، 1331 هـ .

29. الجمحي محمد ابن سلاّم : طبقات فحول الشّعراء ، محمود محمد شاكر ، دار المدني، القاهرة ، مصر (دت).

30. الجنديّ أنور : الفصحى لغة القرآن ، دار الكتاب اللّبناني ، الموسوعة الإسلاميّة العربيّة ، بيروت، العدد 10 ، (د ت) .

31. الحاج صالح عبد الرّحمن: بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة،موفم للنشر ، الجزائر، 2007 م .

32. الحديثي خديجة : المدارس النّحوية ، دار الأمل ، الأردن ، ط 3 ، 1422 هـ / 2001 م .

33. الحديثي خديجة : دراسات في كتاب سيبويه ، دار غريب للطباعة ، القاهرة ، 1980م .

34. الحديثي خديجة: الشّاهد وأصول النّحو في كتاب سيبويه ، مطبوعات جامعة الكويت ، 1394 هـ / 1974 م .

35. حسن خميس سعيد الملخ : نظرية التّعليل النّحوي ، دار الشروق ، عمان ، الأردن، ، ط1، 2000 م.

36. حماسة عبد اللّطيف محمد : النّحو والدّلالة (مدخل لدراسة المعنى النّحوي الدّلالي) ، دار الشّروق ، القاهرة ، ط 1 ، 1420 هـ / 2000 م .

37. الخوري يوسف داود الموصلي : التّمرنة في الأصول النّحويّة ، دير الآباء الدومنكيّين، ط1، 1875م .

38. الدّاودي : حاشية الخضريّ على شرح ابن عقيل على الألفيّة ، دار إحياء الكتب العربيّة ، عيسى الباي الحلبي وشركاؤه ، (د ت).

39. الرّافعي مصطفى صادق : تحت راية القرآن ، دار الكتاب العربيّ ، بيروت ، ط7 ، (د ت).

40. روّاي صلاح : النّحو العربي ، نشأته ، تطوّره ، مدارسه ، رجاله ، دار غريب ، القاهرة ، 2003م .

41. الزّبيديّ أبو بكر بن محمّد : طبقات النّحويّين واللّغويّين ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، مصر ، ط 2 ، (د ت).

42. الزّجّاجيّ أبو القاسم : الإيضاح في علل النّحو ، تح : مازن المبارك ، دار النّفائس ، بيروت، ط3 ، 1399 هـ / 1979 م .

43. سالم مكرم عبد العال : الحلقة المفقودة في تاريخ النّحو ، مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط2 ، 1413 هـ / 1993 م .

44. سالم مكرم عبد العال: تطبيقات نحويّة وبلاغيّة ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت، ط2، 1413 هـ / 1992 م .

45. السّامرّائي إبراهيم : المدارس النّحويّة أسطورة وواقع، دار الفكر،عمّان ، الأردن ، ط1، 1987 م .

46. السّامرائيّ فاضل صالح : الدّراسات النّحويّة واللّغويّة عند الزّمخشريّ ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، 1390 هـ / 1971 م .

47. سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر) : الكتاب ، تح : عبد السّلام محمد هارون، دار التّاريخ ، بيروت ـ لبنان ، ط6 ، (د ت) .

48. السّيوطي جلال الدين عبد الرحمان : الاقتراح في علم أصول النّحو ، تح :محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية ، 1426هـ/ 2006 م .

49. السّيوطي جلال الدّين عبد الرّحمان : المزهر في علوم اللّغة ، دار الفكر ، بيروت، (د ت).

50. شوقي ضيف : المدارس النّحويّة ،دار المعارف ، القاهرة ، ط7، (د ت).

51. شوقي ضيف : تيسير النّحو التّعليميّ قديما وحديثا مع نهج تجديده ،دار المعارف، القاهرة ، ط 2، (د ت) .

52. الصّبان :حاشية الصّبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك في النّحو،دار الفكر، بيروت ، (د ت) .

53. صبحي تميمي : هداية السالك إلى ألفية ابن مالك ، دار الهداية ، قسنطينة ، الجزائر ، ط2 ، 1990 .

54. الطّنطاويّ محمّد : نشأة النّحو وتاريخ أشهر النّحاة ، دار المعارف ، القاهرة، ط2، (د ت).

55. عبادة محمد إبراهيم : النّحو التّعليميّ في التّراث العربيّ ، منشأة المعارف، الاسكندريّة ، حزي وشركاؤه ، (د ت) .

56. عباس حسن : اللّغة و النّحو بين القديم والحديث، دار المعارف ، القاهرة، مصر (د ت).

57. عبّاس حسن : النّحو الوافي ، دار المعارف ، مصر ، ط3 ، 1974 م .

58. عبد الله الفوزان : دليل السّالك إلى شرح ألفية ابن مالك ، دار المسلم ، ط1، 1999 م.

59. عون حسن : اللّغة والنّحو ، دراسات تاريخيّة وتحليليّة ومقارنة ، مطبعة روايال، ط1، 1952 .

60. عون حسن : تطوّر الدّرس النّحويّ، معهد البحوث والدّراسات اللّغويّة، 1970م .

61. الفاكهاني عبد الله بن أحمد :شرح كتاب الحدود في النّحو، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، 1414 هـ / 1993 م .

62. فؤاد بوعلي : الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النّحوي العربي ، عالم الكتب الحديث، الأردن ، ط 1 ، 1432 هـ/2011 م .

63. قباوة فخر الدّين: التّحليل النّحويّ أصوله وأدّلته ، لونجمان ،دير نوبار للطباعة ، ط1، 2002 م.

64. القرطبي ابن مضاء: الردّ على النّحاة ، تح : شوقي ضيف ، دار المعارف ، ا لقاهرة ، ط2، (د ت) .

65. القفطيّ جمال الدّين : إنباه الرّواة على أنباه النّحاة ،دار الفكر العربيّ ، مصر، ط1، (دت).

66. القوزيّ عوض حمد : المصطلح النّحويّ نشأته وتطوّره حتّى أواخر القرن 3 هـ ، عمادة شؤون المكتبات ، الرّياض ، ط 1 ، 1401 هـ / 1981 م .

67. لاشين عبد الفتّاح : التّراكيب النّحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر ، دار المرّيخ ، الرّياض ، (د ت) .

68. مازن المبارك : العلّة النّحوية نشأتها وتطوّرها ، دار الفكر، بيروت ، ط3، 1981 .

69. مبروك عبد الوارث : في إصلاح النحو العربي، دراسة نقدية، الكويت، ط1، 1406هـ /1985 م.

70. مجموعة علماء ، شرح الأربعين النّحوية ، تح : أبو عبد الله محمود بن الجميل ، دار المستقبل ، القاهرة ، ط01 ، 1426 هـ/ 2005 م .

71. محمد المختار ولد أبّاه : تاريخ النّحو العربي في المشرق والمغرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت / لبنان ، ط 2 ، 1429 هـ / 2008 م .

72. مخلوف بن لعلام : مبادئ في أصول النّحو ، دار الأمل للطّباعة والنّشر والتّوزيع ، تيزي وزو ، الجزائر ، (د ت) .

73. مصطفى إبراهيم : إحياء النّحو ، دار الفكر ، القاهرة ، ط 2 ، 1413هـ/ 1992م.

74. مصطفى جمال الدّين : البحث النّحوي عند الأصوليين ، مطبعة دار الهجرة ، قم ، إيران ، ط 2 ، 1405 هـ/ 1983 م .

75. المهيري عبد القادر : نظرات في التّراث اللّغوي العربي ،دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان ، ط1، 1993 م .

76. النّجديّ ناصف علي : سيبويه إمام النّحاة ، عالم الكتب، المطبعة العثمانيّة ، ط2، 1979 م .

77. نهاد الموسى: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، دار البشير، الأردن، ط2، 1987م .

78. وضحة عبد الكريم جمعة الميعان : التّأليف النّحويّ بين التّعليم والتّفسير ، دار العروبة، الكويت ، ط 1 ، 1428 هـ / 2007 م .

79. ياقوت أحمد سليمان: ظاهرة الإعراب في النّحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم ، دار المعرفة الجامعيّة ، الاسكندريّة ، 1994م .

قائمة البحوث والرّسائل والدّراسات :

1. إبرير بشير : آليات تحليل الخطاب في كتاب سيبويه ، مجلّة العلوم الإنسانيّة ، كليّة الآداب واللّغات ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، العددان : 10 و11 جانفي 2012 .

2. بن حجر محمد : العلة والتعليل بين النحاة والفقهاء ، ماجستير لغة عربية ، إشراف د . مخلوف بن لعلام ، جامعة البليدة ، 2004 .

3. الحباس محمد : النّحو العربيّ والعلوم الإسلاميّة ، رسالة دكتوراه ، جامعة الجزائر ، 1420هـ / 1999 م .

4. حسّاني أحمد : النّظام النّحويّ العربيّ بين الخطاب الفلسفيّ والخطاب التّعليميّ ، مجلة ثقافات، جامعة وهران ، 2004 .

5. الخالدي سارة عبد الله : أثر سياق الكلام في العلاقات النّحويّة عند سيبويه مع دراسة مقارنة بالتّراث النّحويّ العربيّ والمناهج اللّغويّة الحديثة ،رسالة ماجستير،كليّة الآداب والعلوم ، الجامعة الأمريكيّة ، بيروت ـ لبنان ، جوان 2006 .

6. الربيعيّ كريم عبد الحسين حمود : المثال النّحويّ المصنوع في العربيّة ، كلية التّربية ، رسالة دكتوراه في اللّغة العربيّة ، بغداد ، 2005 .

7. الزهراني أحمد بن جاد الله بن أحمد الصّلاحي : اتجاهات تجديد النّحو عند المحدثين ، دراسة وتقويم ، الرسالة العلمية ، جامعة أم القرى .

8. السّعدي عبد الرزّاق عبد الرّحمان أسعد : (ابن فلاح النّحوي : حياته وآراؤه ومذهبه الجزء الأوّل من كتاب المغني)، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، 1404 هـ / 1984 م .

9. السّلميّ عويقل عبد الله: محاولات التّيسير النّحويّ (دراسة تاريخية نقدية) ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز للآداب والعلوم الإنسانيّة ،جدة ، 1430 هـ/ 2009 م، مج17 .

10. صاري محمد : تيسير النّحو موضة أم ضرورة ، مجلة الدّراسات اللّغويّة ، مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة ، المجلّد الثّالث ، العدد الثّاني ، جويلية ، سبتمبر 2001 .

11. صاري محمد : محاولات تيسير تعليم النّحو قديما وحديثا ـ دراسة تقريبية في ضوء علم تدريس اللّغات ، رسالة دكتوراه ، جامعة عنابة ، 2003 .

12. عبد الرحمان الحاج صالح : النظرية الخليلية الحديثة ، مجلة اللغة و الأدب ، جامعة الجزائر ، العدد 10 ، 1996 .

13. العواديّ أسعد خلف عبد الجابر : العلل النّحويّة في كتاب سيبويه ، ماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها ، المشرف : صباح عطيوي عبور ، جامعة بابل ، 2002 .

14. الغامدي ربيع محمد سعيد صالح : نحو سيبويه ونحو المتأخرين ، بحث ألقي في مؤتمر النّحو الدّولي السادس المنعقد في قسم النّحو والصّرف والعروض ، كلية العلوم، جامعة القاهرة ، 8 ــ9 مارس 2010 .

15. مثنّى علوان الجشعمي : النّحو وطرائق تدريسه من القرن الأوّل للهجرة إلى القرن الرابع للهجرة ، مجلة ديالي ، بغداد ، العدد 26 ، 2007 .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

مقدّمة ..... ص أ-هـ

الفصل الأوّل : نظرة الدّارسين إلى النّحو التّعليمي قديما وحديثا.....ص01

تمهيد ص02

1.تعريف النّحو ص03

1.1.النحو تسميات متعددة ص03

2.1.أهمية النّحو ص05

3.1.الغاية من نشأة النّحو..... ص08

4.1.نشأته ومراحل تطوّره ص11

5.1.واضعه..... ص12

6.1.سبب وضع النّحو..... ص13

2.تعليميّة النّحو العربيّ قديما وحديثا ص17

1.2.النظرة إلى النحو التعليمي قديما ص27

2.2.النحو التعليمي من منظور المحدثين ص35

الفصل الثاني : مظاهر النّحو التّعليمي في كتاب سيبويه..... ص49

تمهيد ص50

1.سيبويه ونشاطه العلمي ص51

2.موقع نحو سيبويه بالنّسبة للدّارسين ص54

أ- الجانب العلمي في كتاب سيبويه ص56

ب- الجانب التعليمي في كتاب سيبويه ص60

3.مظاهر النّحو التّعليميّ في الكتاب ص67

أولا : الموضوعات التعليمية ص67

ثانيا : التبويب ص69

ثالثا : العامل ص73

رابعا : التعليل التعليمي ص83

خامسا : الأساليب التعليمية عند سيبويه ص88

أ- طريقتا التلقين والتقرير.....ص91

ب- طريقتا الحوار والمناظرة.....ص92

ج- أسلوب استخدام الشاهد والمثل في تعليم النحو عند سيبويه ص97

د- أسلوبا الإجمال والتفصيل ص102

الفصل الثّالث:خصائص الخطاب التّعليميّ في كتاب سيبويه.....ص108

تمهيد.....ص109

أوّلا : نظرة سيبويه إلى تعليم النّحو ص110

ثانيا : خاصية إلحاق ص116

ثالثا : خاصية إنتاج ص130

رابعا : خاصية تعليل ص142

خامسا : خاصية تمثيل ص156

سادسا : مراعاة مستوى المبتدئين ص164

خاتمة.....ص167

قائمة المصادر والمراجع.....ص171

فهرس الموضوعات.....ص180

